Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

المشاعل

بقلم اثنين

المشاعل

جميع الحقوق محفوظة

893.783
K527

إهـــــداء

إلى القارى . .

فى الحياة وقائع أغرب من الخيال ، وفى الإنسانية شخصيات مثالية تعجز عن خلق مثيلات لها أخيلة الكتاب وقرائح الشعراء ، فهى بحق مشاعل للخير والحب والجمال .

وأطيب متعة للمطالع أن يعرض تلك الشخصيات ، ويتابع تلك الوقائع بين الأطلال الدارسة ، وأن يجالس التأريخ و « يستنطقه ذكريات الماضى ، ويصيخ سمعا إلى قصص ذاك الجنى الساحر الذى يعيد الأنقاض قصوراً ، والتراب أمما ، ويبعث صخب المدائن القدامى مكان صمت الصحراء » على حد تعبير أديب من الغرب .

ونحن فى هذا الكتاب تناولنا عرض شخصيات ووقائع وتأريخ أحلام وأطماع ومآس وجهود مضنية فى سبيل أهواء عنيفة كما بسطنا تاريخ كد واستشهاد فى سبيل الإنسانية ؟

نسيب رهيبة الخازن الأب بولس مسعد

واصطدمت برومية تملأ الدنيا ثرثرة وشموعاً وترسم إشارة الصليب المختصرة على وجهها وصدرها بمعدل عشر مرات فى الثانية الواحدة ، وتتلو الدعوات بلحن كثير وإيمان عميق ، ثم تستعين على صاحب الضريح بجاره مارى جرجس ، على اعتقاد أن الأخير رومى ، فتتضرع إلى الولى إيليا وتنهى طلباتها الكثيرة بقولها : « أنا سايقة عليك مار جرجس » .

ومرت الأعوام ، وخادم الضريح يطرد الشياطين ، ويوزع المياه التى تربط النمل والحشرات ، وتشفى العلل وتشرح الصدور ، وتبعث الأمل فى شقاء الحياة .

* * *

بعد أن نلت إجازة الحقوق التحقت بالقضاء وكان أكبر الكتبة سناً ، مصطفى الحبيب أفندى ، شيخاً قد حف شعر شاربيه ولحيته ورأسه على « زيرو » وضرب صحيفة وجهه وشفتيه بفرشاة ، والدهان غير منتظم ، والرجل يسرع فى كل صباح ليلحق بسجل الحضور ويوقع أزاء إسمه ، والردينجوت الكحلى أو الأسود تمايل أذياله ، ومئات من الناس تجرى وراءه ، هذا يقبل يده وذاك يلثم طرف الرداء .

وكان إذا وصل غرفته جلس يلهث ووقف على جانبى المكتب وأمامه ثلاثة رجال ، هذا متصلب كأنه من أتباع شيخ الجبل ينتظر إشارة من شيخه ليرمى بنفسه من النافذة ، والثانى يفتح الدرج

ويملأه من السميط المستخرج من جيبه ، والثالث فتى نحيل يملأ عينيه بريق الرجاء والإيمان .

وعرفت الرجل ، وفى جلسة واحدة هدم حديثه القيم المدنية والقياسات الاجتماعية التى رسمها أساتذتى الفرنسيون : كان الرجل يشرب القهوة ولا يكترث لما يتساقط من الفنجان على قميصه المنشى الناصع البياض . فالتفت إلى بعد التحية ودار بيننا الحديث :

— تنظر إلى وجهى وقد اصبطبغت منه سطور بسواد أخضر ؟

— عفواً لاتؤاخذنى

— هذا من عبادة الوظيفة . . فقد يرى الرؤساء الشيب ويحكمون بأنى هرمت .

— قلت : هناك صباغ أفضل . .

— وقاطع بكل بساطة : ورنيش ! وهل جلد الإنسان غير جلد الحيوان وما ينفع هذا ينفع ذاك ؟

وغادرت الشيخ وأنا أتأمل ضعف الإنسان الملازم لطبيعته ، وكبرياءه فى غير مواضع الكبرياء

وكنت قد غادرت أساتذتى وحياة المدرسة فشعرت أن الشيخ خير الأساتذة فى مدرسة الحياة .

وفى يوم تذكرت ضريح الولى — وكانت أحوال الشيخ مصطفى تذكرنى بسير الأولياء — فسألت الشيخ عن ولى مصر القديمة فأجاب : « هناك راهب يعمل من وراء الكنيسة » .

قال هذا وهو يبتسم ابتسامة ملأت وجهه حلاوة ، وكان

يقرض الصميد الجاف ويلوث الردنجوت بالفتات ويستعين ببعض الملح والدقة « لكسر زفر السمسم » وهو يقول :

— مثل هذا الضريح محج إنسانى ، والإنسان روح وحيوان . وليس بين العنصرين تناقض ، والتدين حاجة روحية بشرية . والحاجة الملحة تلتمس السبل الكثيرة ، وهناك نواح تجمع أصحاب النفوس الشفافة والقلوب الصافية من كل دين . وهذا ابن العربى يقول :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى
إذا لم يكن دينى إلى دينه دان
فأصبح قلبى قابلا كل صـــورة
فمرعى لغزلان ودير لرهبـــان
وبيت لنـــيران وكعبة طائف
وألواح توراة ومصحف قـرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت
ركائبه فالحب دينى وإيمـــانى

* * *

من كان يظن أننى أجد فى سجلات الرهبان سيرة أجداد الشيخ مصطفى الحبيب منذ مائتى عام وسر الضريح ١١٦—٢٧٩ فى مصر القديمة ؟

فى سنة ١٩٣٨ أصدرت من عزلتى كتباً ورسائل ثم حبست قلمى وأودعت التآليف خزائن كتبى فتكدست ...

وفى سنة ١٩٤٨ سألنى صديقى الراهب الأب بولس مسعد ذات يوم :

— إلى متى تسكت ؟ سأحملك على التأليف والنشر !

— قلت : أنت من جبال ملهمة ارتفعت عن الأرض واقتربت إلى السماء . ثم أنت مرسل ، ورسالتك قد حددت مراميها تسعة عشر قرناً ونصف قرن . . . أما أنا فماذا أنشر ؟ إننى أردد قول نبى جبران :

« ما هو الكنز الذى وجدته فى السكينة لأوزعه على الناس بطمأنينة ؟ »

قال : أنشر رسالتك فأنت متصوف كالرهبان ، ومعلم كمشايخ الصوفية .

قلت : رسالتى ؟ بل ذكريات مدونة فى كتاب أضيف إليه كل يوم صفحة ، ذاك كتاب مذكرات حياتى وقد يصبح جديراً بالنشر عندما يكمل . . . أى عندما تكتمل الحياة !

ولم يضع الراهب وقته فى الجدل بل دفع إلى قصة تسلسات وقائعها فى سجلات أسلافه الرهبان ، وكأنها مومياء دفنت فى طيات الكتب وظلمة الخزائن ، نزع عنها الراهب لفائفها وأرسل فى يبسها الدماء الحارة .

ومن خلوتى فى مصر الجديدة ذهبت مع الراهب إلى ديره ورأيت السجلات حيث جرت أقلام من الغاب بقطرات من مزيج أدخنة البخور : مجلدات ضخمة يجاور فيها الإلهام المادة ،

وتتصل بها المعابد بالمؤن والمطابخ ، وتختلط السمويات بحساب نفقات الهيكل من شمع وبخور وزيت ومصابيح وتكاليف المأكل والملبس .

ففى يوم يرتفع ثمن البخور ، وهذا حادث جسيم فى السجل وفى حياة الراهب ، وهو يذكر عرضاً سببه المباشر ويقول : إن قافلة الحجاز تأخرت بسبب حرب أو سلب أو موقعة . وفى يوم آخر تقفل أبواب المدينة وينقطع الوارد للأسواق فيرتفع الرقم فى السجل ويذكر الراهب السبب الذى قد يكون حصار المدينة والخراب والجور والخطر المدلهم ، وإذا أضاف الراهب ملاحظة على كل هذه الأحداث لم يزد على قوله : « رحم الله الناس ! »

إن حياة الراهب رومانتية بطبيعتها ولكنك تحاول عبثا أن تتعرف إلى تأثيره الشخصى من خلال صفحات السجل . فالوقار الذى يعصم الراهب يظهر فى أسلوب « موضوعى » جاف كأسلوب الجبرتى المعاصر .

ومع هذا ففى التدوين المتسلسل بهدوء واطمئنان خلال مائتى عام ، سنة بعد سنة ، تمر أمامك أجيال الرهبان فى صفاء وسكينة ، وهى تأتى من لبنان إلى مصر ، تحيط بها ظلال الأجواء ، والغابات والمعابد ، وأنوار وشموس وسحب وقناديل .

فى سجل من هذه السجلات وجدت الرقم ١١٦ — ٢٩٧ مسبوقاً بنص عرفت منه أن صاحب الضريح قد استبدل باسمه ما يقابله فى حساب الجمل .

تشاؤماً أم تفنناً أم تواضعاً ؟

والتشاؤم من طبيعة البشر . والتفنن من نزعات الروح ، والتواضع من شيم الملائكة . . .

* * *

ورأيتنى أكتب وذكرت قول الراهب :

— سأنتزع منك مؤلفاتك وسأنشرها . . سأفعل ما فعل راهب إيطالى بسلفيو بليكو .

وقلت إن الراهب قد انتصر !

ولكننى نظرت إلى أغصان العفص اللبنانى التى تزين خزائن الكتب فى منزلى وقلت : بل هذه قد انتصرت !

وأخذت أقدم للقارىء صوراً من ذاك الموطن الساحر ، بلد تعطرت حداثتى بنسيمه العليل ، وابتسمت فى شواطئه الرحيمة ، ولعبت فوق سفوحه وهضابه الضاحكة ، واعتزت فوق قممه الشامخة ، واضطربت فى أسرار وديانه ، وتروعت فى ظلمات كهوفه ، وفى أدغاله وشلالاته ، ونامت فى ظلال غاباته ، ورأت مشاهد الأرض ورؤى السموات منشورة بين مواطىء قدميه وشواهق فروعه ، بين أمواج البحر وأمواج السحب .

نسيب وهيبة الخازن

الكهف

« لقد خلقتنى رجلا لا يعتريه اليأس »
جوتيه ١٧٧٥

سحب من ميراث القرون الغابرة قد انعقدت .
والعالم يدور فى أجواء متلبدة .
وتبدأ حوادث هذه القصة سنة ١٧٦٩

فى هذه السنة تضع ثلاث نساء ، بين ملايين النساء فى العالم ، ثلاثة أطفال . والأطفال الثلاثة سوف يملأون الدنيا فزعاً والجو دوياً.

نابليون
محمد على
ولنجتن

مصر ما زالت منذ الفتح العثمانى (١٥١٧) مسرحاً لأحداث واضطرابات ومجازر .

فى مصر سلطات متعددة تتنازع الحكم والمتعة :
الوالى العثمانى ،
وشيخ البلد رئيس المماليك ،
وطغمة المماليك التى لاتستقر يوماً على وفاق ،
وجنود « الوجاقات » الأتراك وقائدهم ،
وجنود من السفاحين المجانين « دهلى » تهدد بهم الدولة العثمانية

كل ولاية تطالب بحق . والعرب من البدو . وشيوخ قبائلهم .

والى مصر فى نزاع دائم مع ولاة الشام وجزيرة العرب .

الحروب الأهلية تمزق أحشاء الدولة العثمانية .

والدولة فى حروب متصلة مع دول أوربا وعلى رأسها روسيا « المسكوب » .

فى القاهرة يستعد شيخ البلد على بك الكبير لإعلان استقلال مصر .

والامبراطورة كاترينا الثانية تكيل للسلطان مصطفى الثالث الضربة تلو الضربة .

والسلطان يتملق على بك الكبير .

يقول الجبرتى « فى ٩ ربيع الأول لهذه السنة (١١٨٢ هـ) ١٧٦٩ حضر قابجى من الديار الرومية بمرسوم وقفطان وسيف لعلى بك من الدولة . »

ثم يطلب السلطان جيشاً فيرسل على بك ١٢٠٠٠ مقاتل ليقفل بهم دون السلطان باب الريب . ويشترى المماليك وقد بلغ عددهم ستة آلاف . ويحرم ذلك على من لايثق به من البكوات والكشاف . ثم يبدأ وثبته فيخلع الوالى ويتقلد القائمقامية كخطوة الأولى ويرسل إلى السلطان الهدايا والخيول الجياد . ومع الهدية شكوى من والى دمشق عثمان بك العظم لأنه آوى بعض المصريين وعاونهم . ويوشى به فيعزله السلطان وحينئذ يثب وثبته الثانية فيجمع البكوات ومنهم ثمانية عشر من مماليكه . ويخلع الوالى العثمانى . ويأمره بمغادرة

مصر ، ويعلن الاستقلال . ومن رجال على بك الكبير فى هذا اليوم التاريخى العظيم محمد بك أبو الذهب . وأحمد بك الجزار ، وابرهيم بك . ومراد بك .

* * *

فى مقاطعة كسروان اللبنانية وهى أحد مسارح قصتنا ما زالت روح العصور الوسطى نامية فى القلوب ، وعقلية العصور الوسطى ، متسلطة فى النفوس ولكن النفس الشرقية العربية رقيقة شفافة وقد لازمتها الرومانتية فى جميع العصور . اقرأ من حوادث هذه السنين بعض مقتطفات :

« فى سنة ١٧٤٨ أنشأ الشيخ خازن بن خالد الخازن مدرسة فى قرية عجلتون المجاورة لعشقوت.

وفى سنة ١٧٦٤ اقتبل المطران يوسف اسطفان الأمير قاسم عمر الشهابى فى حظيرة النصرانية وبنى الشيخ نمر ابن أبى ناصيف نوفل الخازن دير النبى الياس فى قرية «باونه» التى تحمل اسم ربة وثنية ، وبنى الشيخ عبد السلام بن عبد الملك الخازن ديراً فى القرية عينها للنبى موسى » .

« وفى سنة ١٧٦٦ كانت ابنة الأمير يوسف الشهابى الوالى المسلم فى بلاد جبيل اللبنانية ملقاة على فراش الموت وفى جبيل المدينة قسيس يدعى بطرس ديب يجمع التبرعات لديره « سيدة الحقل » ودخل القسيس مخدع الفتاة وأنعم الله بواسطة صلاته

بشفائها . وطابت نفس الأمير وزال غمه وعرف أن الرجل من الدراويش لايقبل مالا فأنعم عليه بأرض يحرثها واشترط عليه أن يبنى فيها ديراً ومنح هذا الوالى الأملاك الواسعة للرهبان وأعاد إلى الموارنه أديراً خربت من قبل ومنها أديرة للراهبات يسميها المسلمون « أديرة البنات » .

وتوفى البطريرك السيد طوبيا الخازن زعيم لبنان الروحى وخلفه السيد يوسف اسطفان الذى تخرج من مدارس روما .

« وفى سنة ١٧٦٧ سافر إلى فيينا راهب من عشقوت من عائلة عطا الله المعروفة الآن بعائلة الشدياقية . . ذلك أنه كان يقرع جرس دير سيدة الحقلة فى يوم من الأيام فانكسر الجرس . .ولكى يخمد غضب رئيسه أخذ منه ورقة يجول بها طالباً الإحسان ليعوض قيمة الجرس المكسور . . وأوصله مسيره إلى بيروت فوجد فى ميناثها سفينة على أهبة السفر وقبل القبطان أن ينقله إلى أوربا لتوسمه به علامات الصلاح ومخافة الله » (هذه كانت إجراءات السفر) . . . « وفى فيينا (كما فى جبيل) كانت ابنة الملكة ماريا تيريزا مريضة . . . وسمعت الملكة براهب شرقى يجول فى أنحاء العاصمة . . . » وكان الشفاء . . . وقص الراهب على الملكة حادث الجرس المكسور . . (هكذا بكل سذاجة) . . وأهدت الملكة جرساً حتى الآن لم يوجد مثله فى الشرق كله فى رواق رنته المطربة الشجية المشنفة آذان سامعيها وصداه الذى يميل

بسامعه للترنح والترنم » (وبقية القصة أن صاعقة انقضت على الجرس بعد اثنين وعشرين عاماً وكسرته) .

وفى سنة ١٧٦٨ انتهى اختلاف الرهبان الذى دام عشرين سنة بقيام رهبنتين مستقلتين .. فئة تريد العمل بالحقل وأخرى ترى إلى جانب الحقل عملا مثمراً فى نواح أخرى .

وتأيد حكم القسمة فى سنة ١٧٦٩ وهى السنة التى تبدأ بها قصتنا .

* * *

والناس هم الناس يألفون كل حال ويعيشون فى القطب وفى خط الاستواء . والحياة ظافرة واللهو قائم . وفى هذه السنة عينها (١٧٦٩) يذكر الجبرتى بين وفيات العام ثلاثة من الأدباء ثم يأتى بذكر بعض قصائدهم فنسمع أحدهم يقول بأسلوب الجيل الذى نسميه عصر الانحطاط والتنميق اللفظى :

زمان كل حب فيه خب وطعم الخل خل او يذاق
له سوق بضـــاعته نفاق فنافق فالنفاق له نفـــاق

ويقول الآخر . بأسلوب نارى كأسلوب معاصرين لنا :

حيي بكأسك لى مع نسمة السحر
وساسلى الراح من نحرى إلى سحرى
حيي بشمسك فى ظل الشباب وفى
ظل الغصون وفى ظل من الشعر

ويقول :

ما يلذ السكر حتى يأكل السكران نعله
ويرى البغلة ديكا ويظن الفيل نمله
اسمع القسيس قد دق لشرب الراح طبله

ويقول الثالث عن شهر الصيام :

فقلت لهم يا قوم إن جاء نحوكم يطالبكم بالصوم فيه كاوه

° ° °

وذكر القسيس ورمضان فى هذه الأبيات الماجنة يقودنا إلى سيرة قسيس وشيخ يعيشان فى دمياط بصداقة حميمة وحب أخوى : القس أنطون بحر نزيل دمياط منذ تسع سنوات . وصديقه الشاب العربى مصطفى الحبيب . وهما فى حياتهما الوضيعة يعيشان كما عاش الصالحون منذ وجدت الإنسانية وقد حلت صداقتهما الكثير من العقد المستعصية فى عصرهما .

ويرزق الشيخ مصطفى بكره إبرهيم يوم وفاة محمد باك أبو الذهب فى سنة ١٧٧٦ ويموت فولتير فى سنة ١٧٧٨ وفولتير الذى هز أركان أوربا ، وزعزع العروش ، وحارب رجال كل دين . فولتير الجبار نكرة فى دمياط . يجهله القس ويجاهه الشيخ كما يجهله إبرهيم فى مطلع العام الثالث من عمره الزاهى وكما يجهل الجميع جان جاك روسو الذى يموت فى هذه السنة أيضاً .

ويموت القس أنطون بحر بمرض الجدرى بعد ثلاث سنوات (١٧٨١) ويدفن فى دمياط فيحزن عليه الشيخ مصطفى حزناً

عميقاً . . . ثم يستقبل قسيسين يحلان محل أخيهما الراحل فلا يجد فرقاً بين الثلاثة . . واكن طائفة مسيحية أخرى غير طائفة هؤلاء تعلن الحرب على أحد القسيسين فينقله الرؤساء إلى القاهرة لإزالة البغضاء من النفوس ويبقى القس يوسف فى دمياط والشيخ مصطفى ثابت فى محبته للرهبان . . وابنه الذى بلغ الخامسة عشرة فى سنة ١٧٩١ وتخرج من « الكتاب » بعد أن حفظ القرآن الكريم قد أصبح تلميذاً للقسيس .

ومصر مازالت مسرحاً للاقتتال العنيف وللمجازر الشنيعة وهى فى هذه السنة تحت حكم مملوكين انتصرا على زمرتهما : إبرهيم بك ومراد بك . وقد عرفنا الاثنين فى سنة ١٧٧١ تحت لواء سيدهما على بك الكبير .

نسيب وهيبة الخازن

الغـــروب

« ما كان سيكون »
سليمان الحكيم

جلس الصديقان الشيخ مصطفى الحبيب والقس يوسف عند أصيل أحد الأيام على مصطبة الشيخ تحت شجرات النخيل العتيقة ، والطيور تغرد على أغصانها ترانيم المساء . والشمس فى الأفق البعيد تميل إلى المغيب فتنقشع سحب تبرها عن المعمور والمغمور . . .

لم تله هذه المشاهد الطبيعية الصديقين عن حديثهما العميق ، فقد أغفلا النظر إلى الغروب ، وتجاهلا وجود سكان البسيطة الأحياء ، وغرقا فى ذكرياتهما يقص كل منهما على رفيقه قصة مجيئه إلى دمياط .

قال القس يوسف بعد أن فرك جبهته ، وأحكم جلسته على الطراحة واضعاً المسند تحت إبطه :

كنت أميناً لأسرار رياسة الرهبانية العامة ، إلا أن هذه الوظيفة لم تكن تلائم طبيعتى التى تحب خدمة الناس فى دينهم ودنياهم ، وتلك الوظيفة تحتم على الانقطاع عن العالم ، والتفرغ للكتابة والصلاة والتأمل . فاتحت الرئيس العام بالأمر فقال لى : إنه فى الوقت المناسب سيرسلنى إلى مصر لخدمة الكاثوليك الشرقيين ، وليس لهذه الجالية إلا هذا المحل فى وادى النيل .

— منذ كم سنة أنتم تدفعون إيجار هذه « البارجة » ؟

— من سنة ١٧٤٥ التى جاء فيها من لبنان المرحوم الأب موسى هيلانة الشامى ، وخدم الجالية باخلاص وغيرة .

— إذن أنتم أعرف منا بهذه المدينة وأحوالها .

— نعم فقد دون أسلافى كل شىء فى السجلات . ويود الإنسان أحياناً أن يهرب من معرفة أعمال أخيه الإنسان . لقد صدق القائل : فى كثرة المعرفة كثرة الغمة . . .

وسكت الراهب هنيهة ثم قال :

— أتعرف لماذا لانستطيع شراء هذا المبنى أو أى محل آخر نقيم فيه شعائرنا الدينية ؟ ذلك لأن حكومات المماليك لاتعترف بسلطة دينية كاثوليكية ما خلا سلطة الآباء الفرنجة « الفرنسيسكان » فهم يتولون شؤون جميع الكاثوليك أشرقيين كانوا أم غربيين . يا لسخرية الأقدار ! الأجنبى له من الحقوق فى بلادنا مالا نملكه نحن ، بل إن حكومتنا تلحق رعاياها قسراً بالأجنبى !

— إننى لأجل هذه الفوضى تركت أملاكى وعائلتى الغنية فى الصعيد ، ونبذت خفارة البرين التى تولاها أجدادى ، وأتيت هذه المدينة لأستنشق شيئاً من نسيم العدل والمحبة .

وكانت أمواج البحر الحمراء بلون الغروب تتكسر على الشاطئ . والأظلال تلقى نقاباً شفافاً على جسد الطبيعة ، وقد شرد خيال الصديقين لحظة ثم تابع الشيخ حديثه :

— لقد وجدت فى سلفك كما وجدت فيك تصوفاً ، وذكرت مراراً سيرة خالد بن الوليد مع صديقه الحكيم راهب دير الزجاج

الذى لازمه بعد فتح الاسكندرية . وطالما رددت قول ابن الوليد : صدق رسول الله إذ قال : الحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها . نعم لقد وجدت فيكم التصوف والحكمة ، وأريد أن يجدها ابنى بعدى ، فلقد مللت جيلى ولا أحب هذا لولدى . فما رأيك أيها الصديق فى مستقبل ابنى إبرهيم أأرجعه إلى الصعيد كى يتمرس على أشغال الأسرة التقليدية أم أرسله إلى الأزهر حتى يتعلم العلوم الدينية ويصير شيخاً ؟

— إن خدمة الله أهم من خدمة البشر وأجل قدراً . لكننى ألمس فى شخصية إبرهيم نفوراً من الناس وكآبة عميقة ، وضيق صدر ، ورجل الدين يحتاج إلى بال أطول من يوم الجوع . أما إرجاع الصبى إلى الصعيد فهذا غير مرغوب فيه لأنه يظل مسمراً فى البيئة التى ولد فيها ولا يتقدم فى معارج الحضارة . وإبرهيم بعد ذلك ضعيف البنية . . .

— وكيف نضمن له مستقبله ؟

— المستقبل لله وحده . . . لكننى أظن . . .

— قل فأنا من المؤمنين بحكمتك وبحبك لنا .

— نرسل إبرهيم إلى أحد الأديار فى لبنان حيث يتعلم الفرنسية ، وتفتح الجبال صدره الضعيف ، ويعود إلينا شاباً قوياً مثقفاً ، فأقدمه إلى القنصلية الفرنسية وإلى كبار التجار الأفرنج . . .

— جميل . لكن أمه لن توافق لأنها متعلقة به كثيراً . . . وإذا خالفتها وعملت بموجب نصيحتك جعلت حياتى جحيما .

— فى الحياة سلامان : سلام النفوس الكبيرة ، وسلام النفوس الصغيرة . أريدك من أصحاب النفوس الكبيرة ، وألا تلتفت إلى العاطفة فى سبيل تحقيق عظائم الأمور . . . إن هذا السفر يفيد إبرهيم ، ويجعل من الصبى الهزيل شاباً متين العضلات ، وشخصاً فذاً فى تعليمه .

— فى أول الأمر سأقول لأمه إننى سأرسل إبرهيم إلى الصعيد حيث يطلع على أحوال الأهل ويتعود أشغال أولاد عمه ثم ننقل إليها الخبر شيئاً فشيئاً .

— هذا حسن .

— إذن أكتب إلى رئيس أحد الأديار ليعد له مكاناً عنده . وإبرهيم هو ابنك ولا يجوز لى أن أوصيك به . . .

وانتشر الهواء البليل ، وحاكت الظلال ثوبها الكثيف ، وقد نهك الطبيعة قيظ النهار ، فاضطجعت تحت ملحفة مرصعة بالنجوم .

ورقد الناس ، وقد وجدوا فى أخيلة الظلام تعزية فى محناتهم ، وفى نسيم الليل أرجوحة لأحزانهم وميداناً لأحلامهم وآمالهم .

الأب بولس مسعد

من دمياط إلى عشقوت

« الحديث عن الطبيعة وعن الفن يفتقر
إلى النظر ، كما تفتقر الكلمة إلى الحياة »
جوته

« الريس » جبور شيخ العرب نوتى من ملاحى بيروت الذين اشتهروا منذ عهد فينيقيا العظمى ، والرهبان قد تعودوا السفر على مركبه الشراعى ، وإذا اعتمدالرهبان رجلا فقد اعتمدت أجيال منهم أحفاده .

سافر إبرهيم إذن فى مركب الريس جبور شيخ العرب .

سفر طويل ممل ، وسهرات صامتة تحت نجوم السماء ، وذكريات كأنها أحلام ، ونوم تملأه الرؤى المزعجة ، كابوس تلو كابوس .

ينظر الصبى إلى الأفق ، ويذكر طفولته ومسارح ألعابه على شواطىء النيل ، وتمر على حداثته أعياد بهداياها وبعرائس باسمة : ها هى عروس مولد النبى وهى من السكر ، ينكسر مع الزمان ذراع لها فيأكله ، ثم يبتر ساقها فيأكلها ، ويبقى وجهها والابتسامة ملازمة لثغرها .. ثم تختفى العرائس وتعود إلى عالمها المسحور مع زميلات لها من تماثيل لأبى زيد الهلالى ومآذن ومساجد . . .

وينام فيغيب كل شىء ، النيل والحقول وابتسامة الدمية ، ثم تبدأ الأحلام . . . أمه تقبله مذعورة من هول السفر ، وأبوه الشيخ يوصيه بأن يكون رجلا ، والقسيس يعده بمباهج لبنان وبعالم جميل ساحر كعالم ألف ليلة وليلة ، وبيوت دمياط يعتريها المحاق

شيئاً فشيئاً ، وتغطس المآذن بعدها فى أعماق السماء ، وجبال مائعة من المياه تمر على كل هذا فتحبس صدره فى لججها العميقة ، وتخنقه فى تياراتها العنيفة . . ثم بعض الهدوء عند الشفق . . إلى أن تتفتح عيناه فى وهج لايطاق .

* * *

وتمضى الأيام ، وتتسلسل بعد ذلك مشاهد الموانىء وما وراءها من وديان وجبال . . . ثم ها هى بيروت ولبنان . . وبغال تقطع الجبال ، وتتعلق فى طرقات مخيفة فوق هاوية من الوديان العميقة ، وأجراس القافلة تجلجل فى الليل ، والجو بارد . . وقد اختلط برنين الأجراس حفيف يملأ الجو ويتصاعد صوته . . . المطر قادم . . . لكن القافلة قد دنت من حصن أسود فى الليل المظلم ، وسكتت الجلاجل ، ونادى صوت من رتاج القصر ، من شق باب ضخم مصفح بالحديد :

— من ؟

— قفل بيروت ، معنا راكب للدير ، وحمولة !

لغة جافة متعطشة الحروف ، صلبة المقاطع ولكنها بينة العروبة ، تؤنس أذن الفتى فى هذه البلاد الموحشة وفى الليل المخيف . ويفتح أحد مصراعى الباب الضخم فتدخل البغال وتقدح سنابكها على بلاط من الصخر ثم يقفل مصراع الباب وتردد دويه جنبات القصر المربع ، ويسود السكوت ، يقطعه من وقت لآخر تحرك بغل ورنين الجرس المعلق بعنقه .

ثم يدخل المكارون وراء بغالهم الحوش الداخلى المربع وبعضهم ينقل الأحمال إلى « الكلار » والبعض الآخر قد اجتمع فى «المنزل» وهو غرفة النوم للضيوف ، أو فى المائدة ، وإبرهيم يسمع الأصوات فيستأنس بلهجة عربية كأنها بالنسبة إلى اللهجة المصرية المدللة الرطبة شقيقة كبرى قاسية يابسة .

ويظهر فى أروقة القصر رجال سود صامتون يشبهون القس يوسف ، وكأنهم فى هذا البناء الضخم بل هذه الثكنة ، جنود لملك صارم مجهول ، ويرى ابرهيم أحدهم ، وهو يقطع الحوش حيث زرعت الأشجار والزهور ، وقد ستر رأسه باسكيم أسود أخفى وجهه وأسفر عن لحية بيضاء طويلة ، ثم يدنو الراهب منه ويهمس فى أذنه :

— تفضل يا ابنى !

ويتبعه ابرهيم فى درج كأنه يصعد إلى مأذنة أو يتسلق دهليزاً فى حصن منيع . ثم يدخلان رواقاً يمتد وراء قناطر ضخمة تدور حول الحوش من جهاته الأربع ، وعلى جانبه الأيمن تتسلسل أبواب الغرف .

دفع الراهب بابا وانحرف إلى ناحية ليدع المجال للضيف وانحنى أمامه مشيراً بيده :

— تفضل يا ابنى !

فى الغرفة سرير وحصير وبلاس وفرو خروف . وفى زاوية فراش ولحف ، وفى الزاوية الأخرى فى كوة من الجدار الضخم

أرغفة خبز مرقوق و « قالب » جبن وصحن دبس . . . وتحت الكوة منضدة صغيرة وطراحة وابريق .

رأى ابرهيم كل هذا ، ونظر إلى الراهب وبسط يده للشكر ، فابتسم الرجل وقال :

— الأب يوسف كتب إلينا . . . هذا بيتك . ومهلة صاحب البيت — ولا أقول الضيف — ثلاثة أيام ثم يقابلك الرئيس بعد الأيام الثلاثة . مساء الخير يا ابنى .

* * *

انصرف الراهب ، وقفلت أبواب الدير ، وابتعد العالم . . . أين دمياط ، وأين ذاك العش الدافىء حيث يرقد أخوة ابرهيم مع أمهم وأبيهم !

ونهض إبرهيم فى الليل على نغمات تسابيح خالها تصدر من جوف الأرض . نغمات ملحنة منذ قرون بعيدة ، وعبير البخور منتشر فى الجو ؛ وخرج الشاب من الغرفة ، وكانت التراتيل تقوى وتضعف بدنوه أو ابتعاده عنها حتى اهتدى أخيراً إلى مصدرها ، فأشرف من الدور الأعلى على معبد مضاء بالشموع كأنه سرداب سرى اختفى فيه المتعبدون ، وإذا بالراهب يصلى بصوت خافت ، وصبى يردد الصلوات ويرتل ، والراهب ينحنى والفتى يجثو ويغفر جبهته .

وفى الصباح خرج إبرهيم من غرفته ، واجتاز الأروقة الواسعة

ذات الدعائم الضخمة ، ووقف عند أحد الأعمدة مبهوتاً . . .

مناظر مخيفة بشواهقها ، باسمة برونقها .

ونزل الدرج الحجرى المنحوت فى الصخر ، وخرج من صدع قد فتح فى أحد مصراعى الرتاج المحلى بنقوش عربية من النحاس ، وإذا هو حقاً ، كما وصف الأب يوسف ، فى بقعة غريبة من الغابات المسحورة . القصر قائم على ربوة . . . وتقدم الراهب يشرح للضيف ويشير بيده : هذه الربوة تدعى «القرقوف»

يرتفع القرقوف(١) فى سفح الجبل الذى يقفل القرية من الجهتين القبلية والشرقية ، وفوق القرقوف قراقيف أخرى تتسلسل إلى قمم « الجويقات» و « الرويسات»(٢) وفى أقصى الشرق أحراش (٣) قائمة فى أخاديد لاترى الشمس فى الشتاء ولا تراها فى الصيف إلا فى الظهيرة وقد دعيت لذلك « الظليلات » .

خالط إبراهيم الرهبان فأبهرته قوة أجسامهم مع قلة أكلهم وكثرة أعمالهم فردد عليهم ما قاله الجاحظ فيهم « ما صحت أبدان الرهبان إلا لقلة الرزق من الطعام وخفة الزاد . . وقيم الدنيا وروح الحياة يجمعان لهم صحة البدن وذكاء الذهن والقرب من عيش الملائكة » وكان هؤلاء الرهبان يعطفون على الولد عطفاً عظيما .

نسيب وهيبه الخازن

---

(١) القرقوف لغة الخمر والماء البارد

وسيجد القارىء فى أسماء الأمكنة اللبنانية كما فى أسماء الأسر والأفراد أسماء عربية عريقة أكثرها يمنى الأصل قحطانى من مواطن غسان الأولى

(٢) الرويسات لغة الرؤوس الصغيرة والجويقات صخور متقابلة كأنها أجواق مجتمعة

(٣) الحرج والحرجة لغة الموضع الذى يلتف شجره

ذات التمائم

« . . صغيرين نرعى البهم »
مجنون ليلى

فى اليوم الثالث (تماماً مثل الحكايات) استقبل الرئيس ضيفه المصرى ، وسلمه إلى مكارى الدير شاهين . ووجد الشاب فى بيت مضيفه الجديد أباً له كما وجد أماً وشقيقة .

كانت منيرة بنت شاهين ترعى غنمها فى « القراقيف » فتظهر فوق تل أو تختفى وراء أكمة من الصخور البيضاء الشاهقة ثم تبدو على حافة هاوية سوداء مخيفة . . وصوتها يلعلع فى أرجاء الجبل ، يرسل الترجيع التاريخى فيرقص فى أغنية :

« يا غزيل يا بو الهيبة يا هاوى يا معـــذبا »

ثم يسبح صوتها فى نغمات الماضى الحزين فى مواويل العتاب .. ثم يشدو بالحدو الحربى والتراويد الحماسية :

« إن كنا شبنا ظهور الخيل ما شابت
وإن كنا تبنا سيوف الحرب ما تابت »

وتمتلىء الهضاب والأخاديد بصوت الفتاة فيترك ابرهيم سكون البيت ويلحق بالفتاة ويتابع معها القطيع الصغير من مرعى إلى مرعى ، ويهيمان بين شجر العفص والصنوبر وفوق درجات لا نهاية لها من « سهوم » الكرمة . ثم يدركان الجبل الأعلى حيث تكسو الصخور أوراق الكرمة، تتدلى من زبرجد خضرتها لآلىء

العنب ، ويشاهدان روعة الشمس فى الغروب وصفحة البحر اللازوردية الملطخة بلون الورود والدماء .

* * *

كان الصبى الغريب متعطشاً إلى الحنان ، متشوقاً إلى البيئة التى نشأ فيها واقتلع منها ، ولكن منيرة ملأت حياته وأصبحت له أهلا ووطناً .

وأخذت أيام الصيف تتباعد وأيام الخريف تمر ببطء لذيذ ، ومختلف أنواع الفواكه فى عز نضجها . وبدأ قطف كروم العنب فى تشرين الأول (أكتوبر) ،وعبقت عطور الخمر ، وبقى التفاح معلقاً كالجواهر .

كان إبرهيم ومنيرة يغدوان إلى الكروم ، يأكلان العنب والتين ، ويحملان الثبت العامر إلى البيت . وكأن عهد ابن الرومى ، الرومى الأب ،الفارسى الأم ، البغدادى النشأة قد تجدد فى إبرهيم . فهو مثل الشاعر الذى مات منذ تسعة قرون ، قد حرم حنان أمه وعطف أبيه ، فارتمى فى حضن الطبيعة ، ورأى فى تقلباتها الموسمية فوق جبال لبنان صورة لحياته : مظاهر الفرح فى الصيف تتراجع أمام مشاهد الحزن فى الخريف . وقلب إبراهيم مثل قلب ابن الرومى يناجى الطبيعة كأنها كائن حى ويفرح بفرحها . . . ولما كان قلب الإنسان دائم التعطش إلى المباهج ، فالصبى يلتفت فى شهور الحزن هذه إلى العالم الإنسانى فلا يجد غير رفيقته التى يخفف حديثها العذب وقر الحياة عنه .

ثم فتحت أبواب المدارس ، وذهب أطفال القرية إلى مدرسة « المعلم » وهى أساس التعليم ودرجته الأولى فى لبنان . « تدور » تحت السنديانة صيفاً وفى مبنى مجاور للكنيسة فى الشتاء .

ودخل إبرهيم المدرسة الراقية (١) وهى فى قلب البلدة على ربوة ترتفع من أعماق الوادى الطويل المتعرج . والدير ينتدب من رهبانه مدرسين ينحدرون من ربوة « القرقوف » إلى المدرسة ، ويعودون إلى ديرهم فى العطلة المدرسية .

فى المدرسة وجد إبرهيم عالما موحشاً بعيداً عن بيته اللبنانى بيت شاهين ، وبات الدير يواجهه فوق ربى القرقوف عابساً فى ظلال السنديان الباسق . وبيت شاهين قرب الدير راقد بين التوت والكروم ذات التربة الحمراء يبتسم له فى الجو الممطر وفى الشمس على السواء ، وهو يرى منيرة أحياناً من بعيد كنقطة سوداء . وهى الآن تخرج للسروح وحدها ، ولكنه لايسمع غناها . وهو حين فى المدرسة ينام باكياً ، ويصبح مذعوراً على صوت جرس يقرع فى الخامسة صباحاً فيقيم التلاميذ من أسرتهم ويرسلهم إلى قاعة الدرس .

---

(١) المدارس الراقية الوطنية قامت فى لبنان منذ القرن السابع عشر وكانت تعلم اللغات الأوربية والعربية حتى أصبحت مهداً للنهضة العربية الحديثة التى وضع أسسها الأمير فخر الدين . ثم أحل أبو نوفل الخازن الآباء اليسوعيين فى عينطوره فى سنة ١٦٥٦ . ومن هذه المدارس مدرسة عين ورقة التى بنيت ديراً فى ١٦٩٠ وتحولت ألى مدرسة فى سنة ١٧٨٩ سنة الثورة الفرنسية ، ومدرسة الرميه ١٦٩٦ ، ومدرسة ريفون ١٦٥٠ وكان فى لبنان أيضا مدارس وارساليات أوربية تعلم اللغات الايطالية والفرنسية فضلا عن اللاتينية . وكان كثيرون من شبان الموارنة يتلقون العلم فى روما ثم ينتشرون فى الشرق والغرب .

كانت منيرة تأتى لزيارة إبرهيم حاملة فى صرة مستورة أطعمة وتيناً مجففاً ، مما لاوجود له فى المدرسة ، وكان قدومها ينسى إبرهيم كل شىء ، ولكن الزيارات قصيرة لها حدود رسمتها قوانين المدرسة . . .

ثم هبت الرياح عاصفة حاملة معها أوراق الشجر وقد اصفر وانكمش ، وأظلمت السماء وتلبدت وقصفت الرعود مدوية فى الأجواء العليا وبين الجبال ، وفى الوديان العميقة ، وهطلت الأمطار بغزارة ، كأنها نذير غضب الشتاء .

وانطوى تشرين الأول ، وحل تشرين الثانى (نوفمبر) وعادت إلى القرية مناظر الخريف الدافىء ، ومظاهر الصيف بين الأشجار العارية والصخور البيضاء ، والقرية تبتسم فى الشمس كما تبتسم العجوز عن أسنان مخلوعة ثم يسود صحو طويل ودفء لطيف ، ويردد الفلاحون قولهم : « بين تشرين وتشرين صيف ثان » . وينسى الناس الشتاء . . .

كانت عطلتا الأسبوع فى يومى الخميس والأحد يخرج التلاميذ الداخليون فى أولها إلى متنزهات البلدة وأقربها مدرسة ريفون .

يخرجون كالجنود يرتاحون متى شاء الضابط وكالقطيع يقيل عندما يرتاح « الراعى » والراعى لقب الضابط فى لبنان . أما يوم الأحد فقد كان لإبرهيم عيداً يصرفه فى بيت العم شاهين وتلبس منيرة ثياباً مزركشة بينما تتزين أمها بالطرطور ويرتدى شاهين سرواله المخملى .

* * *

فى يوم كهذا كان إبرهيم يخرج مع منيرة لنزهة بعيدة تذكرهمابأيام الصيف . غير أن نذير الشتاء كان يبدو من ظهور أسراب الغرانيق السابحة فى أعلى طبقات الجو . وهى عائدة من الشمال إلى مشتاها فى العراق ، والقرويون يهزون الرؤوس تحسراً مرددين : « الصيف ولى » ويصيح الأولاد مرددين مع الأجيال الغابرة ذكرى الحسين وهم يوجهون أبصارهم إلى زرقة السماء :

« يا عرانق إلى أين دلونى عابيت حسين »

وإبرهيم يسمع ذلك من فم منيرة فيتعشق إسم « حسين » كما تلفظه الفتاة الجبلية متعطشاً نشيطاً بادئاً بساكن .

* * *

ومع كانون الأول (ديسمبر) تسلسلت مشاهد غريبة شغلت ذهن الفتى المسلم .

كان التلاميذ يدخلون قاعة من قاعات المدرسة براقة الزينة ، وهاجة الأنوار ، معطرة بدخان البخور ، لامعة بآنيات الذهب وأنسجة الحرير والقصب . والقاعة (فى هذه البقعة الميتة ميتة الشتاء) كأنها قصر من قصور الخيال حمله مارد إلى أرجاء البؤس .

يدخل التلاميذ القاعة ، ويرتلون قطعاً عربية شجية :

« يا ذا المسيح المنتظر متى تخلص البشر »

ثم ترتفع نغمات أخرى بلغة تشبه العربية كما تشبه الأم العجوز الخيفة ابنتها النضرة . أنغام تدوى فى أقبية القاعة ثم تعود كالسحب المخيمة فى جو متجهم بصيحات التفجع واليأس :

« شو بحو لهاو قولو دهو و غوشمو » (١)

وإبرهيم ينكمش من هذه الألحان ، ويرتجف من هذه الألفاظ السريانية ، ولكن رخامة الأنغام المتفجعة تنفذ إلى أعماق فؤاده ، وتختلج فى صدره . . أحزان لذيذة المذاق تهز قلبه . . . وتحمل الخيال إلى أجيال تصرمت حيث كان يرتل جدود منيرة المشرقة تلك الألحان القاتمة ، فيحب هذه النغمات ويرددها .

نسيب وهيبة الخازن

---

(١) « المجد للكلمة التى صار جسدا »

الميـــــلاد

« السلام على الأرض »
إنجيل

فى يوم ٢٤ ديسمبر ١٧٩١ جاء شاهين فى الغسق وأخرج إبرهيم من المدرسة بحجة أن عطلة الميلاد قد بدأت .

الميلاد ؟ لم يفهم إبرهيم هذه الكلمة . . . ولم يفهم لماذا عجز عمه شاهين عن تفسيرها بل أخذه إلى رئيس الدير .

سأل إبرهيم الرئيس عن سبب إخراجه من المدرسة بينما بقى التلاميذ إلى الغد ، وعن اجتماع زملائه كل يوم دونه فى القاعة البهيجة . وأطرق الرئيس طويلا ، وهز رأسه مفكراً .

وكانت مباهج العيد قد أشرقت ، ورنين الأجراس قد آذن بالاستعداد للاحتفال ، والرئيس قد لبس عباءة جديدة ، وهو الآن يتكلم بوقار وتؤدة :

— هذه ليلة الميلاد يا إبرهيم ، ميلاد السيد المسيح . هذا عيد مسيحى ، والأديان سبل لعبادة الله ، وبوسعك أن تدخل الكنيسة وأن تقرأ الفاتحة وأن تتلو الأدعية الصالحة ، ولكن التقاليد التى يحرص عليها الناس تمنعنى من السماح لك بذلك قبل أن استأذن والدك لكيلا أعرضك لنشأة تختلف عن بيئتك فتصبح غريباً فى عشيرتك .

ولم يقتنع إبرهيم بكلام الشيخ الوقور فاعترض :

— وهل السيد المسيح عيسى بن مريم غريب عن الإسلام ؟

لقد عرفته من تعاليم أبى كما أحببته من رجل الله الأب يوسف. فلم لا أحتفل بمولده ؟

— سأكتب للأب يوسف يا بنى ! وفى مثل هذا اليوم من العام المقبل سأصطحبك إلى الكنيسة إن وهبنى الله عمراً .

وقام الشيخ الجليل إلى مكتبة الدير ، وأخرج مصحفاً وسلمه إلى إبرهيم . والرئيس كسائر اللبنانيين رجل ثقف قلبه الإنجيل وثقف لسانه القرآن :

— إقرأ يا ولدى ، واحتفل بهذا العيد إن شئت !

وارتدى الشيخ عباءته السوداء ، ونزل فى سواد الليل تحت وابل من البرد المتساقط كالحصى . وركب البغلة المطهمة ، وحمل شاهين المصباح أمام الرئيس . وانصرف الاثنان فى سواد الليل وبياض الثلج المتناثر . ذلك لأن الميلاد عيد الأطفال والأحداث بصفة خاصة ، والرئيس يصلى صلاة الميلاد لتلاميذ المدرسة فى نصف الليل من كل سنة .

دخل إبرهيم بيت عمه شاهين . وسهر مع خالته نائلة ومع منيرة ، واشترك معهما فى تهيئة النقل من جوز واوز وبندق وفستق وفى استخراج التين المطبوخ من الخابية ، والعنب المحفوظ فى فى التين منذ الخريف . وحاول إبرهيم أن يولع النار فلقى من القداحة والصوفان جهداً ولكن منيرة بادرت إلى معاونته وأشعلت النار فسهر على الاحتفاظ بها متأججة فى الموقد بينما انصرفت منيرة

تحضر المشبك والزلابية . « فتلقى لجيناً من أناملها يستحيل شبابيكاً من الذهب » على حد تعبير ابن الرومى .

ولما انتصف الليل وتزينت الخالة نائلة ونادت جاراتها واتجهت المصابيح من أنحاء القرية إلى كنيسة المدرسة ظلت منيرة فى البيت لمؤانسة الضيف الغريب ، وقامت فى بيت شاهين صلاة أخرى أمها إبرهيم ، وقد تجلل رأس منيرة بخمار ، وتدلى على جسمها اللدن ثوب الصلاة الأبيض ، وتبدلت لهجة إبرهيم المصرية بلغة يواكب كلماتها الجلال وهو يقرأ ومنيرة تردد :

« بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين . آمين . . . »

وهكذا تتحد قلوب الأطفال والسذج فى العبادة كما تتحد الحياة فى الطبيعة . وكأن المصرى المسلم الغريب شعر بهذا الانسلاخ الجديد عن وطنه وذويه ، وإذا الانفعالات تختلج فى صدره ، ويضيق ذهنه دون تعاقب الأحداث فى حداثته فيتفطر قلبه وتخرج الدموع طالبة الأمومة وتنزع منيرة الخمار الأبيض ، وتعود إلى الأنوثة البشرية فتؤرجح الفتى بأغنية ينام على أنغامها الناعمة أطفال الشام منذ أجيال ، ومنيرة أصغر من إبرهيم . إلا أن الأمومة تنبض فى الفتيات تحت قشرة رقيقة ، وهى تتيقظ منذ طفولتهن فتقوم الطفلة بدور الأم لأخيها الأكبر .

وأغنية منيرة اللبنانية تذكر إبرهيم بأغانى أمه فى بلاد مصر إذ كانت تنحنى فوق سريره فى دمياط الراقدة هناك بين ذراعين ناعمتين من ماء النيل وماء البحر . . .

هنا يقولون للطفل :

« أوه أوه يا جمال
خد جملك وروح للشام
جيب لنا حملين حطب
لنقلى الزلابية . . »

بهذا تسلم الأم اللبنانية طفلها إلى الملائكة . . وإلى عالم النوم : حطب من الشام ؟ وأين غابات لبنان ، وهل تسير الجمال فى جبال لبنان ؟ أليست الأمهات النصرانيات فى صحارى الشام قبل عهد الإسلام لايجدن حطباً إلا فى غوطة دمشق ؟ ألم تهاجر المسيحيات إلى لبنان محتفظات بأغنية المهد طيلة ألف عام !..

وسحر الشام !

أليس هو الذى يضع فى أفواه أطفال مصر فى ليالى رمضان أغنية الأزمنة فيقول الأطفال هناك فى مصر :

يحل حزامه ويعطينا
ميتين ريال
نروح بهم على بر الشام
ونجيب زعيقه ومعيقه (١)

---

(١) ذوات الزعق والمعق من خراف وماعز . أو هى « معيكة » من تمعك الدابة أو تمرغها ، والخيل ترد من سوريا الى مصر

وعلى صوت منيرة وسير القوافل فى صحارى الشام ، دابة بعد دابة ، ينام إبراهيم ثم تنام منيرة إلى الصباح حيث الأرض هادئة ، بيضاء ، والثلج قد أوقف الرياح وطمرها وكسا عرى الأرض بوشاحه الطاهر .

ووفد الناس يهنئون نائلة ويدعونها « أم طانيوس » ويتمنون لها مجىء « طانيوس » فى العيد التالى . . . وطانيوس اسم اختاره شاهين لابنه البكر الذى لم يأت بعد ، ولكن السيدة فى جميع البلاد العربية مدعاة للشفقة حتى تلد ابناً . فينادى الناس أم البنت باسم ولد قد يأتى أو قد يبقى فى عالم الغيب .

نسيب وهيبة الخازن

ليلة عربية

« سأبقى على وجه الأرض ، وسأسأل أجيالا
مثلى تلعب ، ومثلى تتألم ، ومثلى تزدرى ... »
جوته (١٧٧٥)

كانت عطلة العيد فى تلك السنة (١٧٩١) مليئة بمشاهدات جديدة انطبعت فى ذهن إبرهيم إلى آخر عمره .

فى الليلة الأولى اجتمع المعيدون فى بيت شاهين . وأحيى المضيف الليل راوياً قصص العرب ، والقوم حوله ما زالوا فى جاهليتهم من حيث العصبية وتمجيد الأنساب والتحزب ، ذلك لأن العنصر العربى فى لبنان صريح العروبة صافى النسب وقد احتفظ بعروبته الأولى وبدين سابق للهجرة فانحصر نسله فى سلالة « العرب المتنصرة » أو هو لم يمتزج إلا بعنصر آخر محلى وأصبح فى عروبته منعزلا عن سائر العرب المسلمين وعن الأمم التى اعتنقت الدين العربى .

بدأ شاهين قصة عنتر :

« كان ، يا ما كان ، فى سالف العصر والأوان ، كان فارس « الطراد الضارب بالسيوف الحداد ، والطاعن بالرماح المداد ، « قادح النار بغير زناد ، حية بطن الواد ، أبو الفوارس الأمير « عنتر بن شداد . . .

« استقبل عنتر الفوارس بقلب أصلب من الحجر ، وطعن يسبق لمح البصر ، وهو ينشد ...

شاهين يقص والقوم فى حماس وإذ هو يصل إلى الإنشاد يقوم الجميع ويطلقون التراويد الحربية وهى هى كما نسبها الراوى إلى عنتر :

« العز فى صهوات الخيـــل معقود
والنصر فى السيف يوم الروع موجود»

ثم يدور الخمر محمولا من الخوابى ويشرب الجميع، ويرقصون على نغمة لبنانية عريقة كأنها ذكرى هجرة العرب بعد سيل العرم :

« الله يا بن بلدى ها لبلد ما هى بلدى »

ثم يقود الشبان الفتيات إلى رقص الدبكة ، ومع أجدادهم الذين تاهوا وتشردوا إلى أن وجدوا فى لبنان نمنا جديدة بعد بلاد اليمن موطنهم البعيد ، قالوا :

« لا طلع رأس الجبل وأشرف على الـــوادى »
« واقول يا مرحبـاً نسم هوا بـــــلادى »

ثم تغلب الشباب غرائز الحب والحياة فيتابع القول :

« يا الله يطوف الجبل وتحمل الـــــــوادى »
«لاعمل زنودى جسر وأحملك ليا »

ثم تلعلع أغانى « الميجانا والعتابا » ففى الوطن الجديد كما فى الوطن القديم ، وفى هناء الحب كما فى شقاء الجفوة يعاتب الإنسان الدهر وعاديات الزمان : ويذكر القوم فى أغانيهم أزمنة العرب الغابرة فيبكون جنات فى دمشق أصبحت قبور الملوك ، ويبكون

الموالى ويرثون « أبا الزلف » السيد القائد .

ويتحمس إبرهيم ،ويجول جولته مستعرضاً فنون الغناء الرفيع فى مصر .

وينتهى « الكيف » بأغنية تصف حال كل فتاة بعد هذه الحفلة وقد تورد خداها واقتربت ليلة زفافها الشبيهة فى حفلاتها بهذه الليلة . . وينصرف القوم وهم يتمنون لصاحب الدار دوام الأفراح ، والأغنية الختامية ترافقهم إلى منازلهم :

« رأيتها فى ضوء القمر وخدودها مثل الجمر »

« يا ليتنى خادم أبيها »

وكما خدم يعقوب أربعة عشر عاماً خاله لابان لينال ابنته راحيل تمنى كل شاب أن ينال فتاة أحلامه بأى ثمن ، ولم يخل ذهن إبرهيم من حلم كهذا . .

وكما ذكر القوم أوطانهم وأمجادهم فى الأزمنة السحيقة ، وكما عاتب القوم دهرهم ، داعبوا الآمال وابتسموا للحياة ورافق كل قلب حلم جميل .

نسيب وهيبة الخازن

القرية المجهولة

« ليس للأمم السعيدة تاريخ »
مثل فرنسى

مر أسبوع الميلاد وبدأت السنة الجديدة . وكان الفارق الوحيد فى حياة إبرهيم رقماً واحداً تغير فى كراسة .

عاد إبرهيم إلى المدرسة فى يوم ١٥ كانون الثانى (يناير) وفى المساء كان فى قاعة الدرس يكتب واجبه اليومى :

« واجب يوم ١٥ كانون الثانى ١٧٩٢ »

وتلاحقت السنون . . . وإبراهيم يكتب فى كل ليلة واجبه اليومى . وتتسلسل الواجبات على أعوام ، ويتغير فى كل عام رقم السنة ١٧٩٣

٤

٥

٦

ولا فرق بين سنة تهوى وسنة تصعد ، والعالم بعيد وأحداثه غريبة عن سكان الجبال .

فى فرنسا وفى ٢١ يناير ١٧٩٣ أعدم رجال الثورة الفرنسية الملك لويس السادس عشر .

أعدم ملك فرنسا فاهتزت أوربا وقامت على فرنسا المحالفات وسادها حكم الإرهاب وتساقطت الرؤوس تحت المقصلة . . وفى

منتصف سنة ١٧٩٤ ألغى سيد حكم الإرهاب روبسبيير عبادة العقل وقرر أن الأمة الفرنسية تعتقد بوجود إله واحد وبخلود الروح ، وأقام هذه الديانة باحتفال عظيم وكان كاهنها الأكبر ثم أعدم فى سنة ١٧٩٤ . وقاد اليعقوبيون والملكيون بعد ذلك عامة الشعب الباريسى فى سنة ١٧٩٥ إلى الثورة ولكن ضابطاً شاباً قضى على الثورة الجديدة فى مهدها وبدأ حياته العسكرية فى سنة ١٧٩٦ فى حروب إيطاليا وترى هذا الضابط فى مصر بعد قليل : ذلك هو نابليون .

ومن ضحايا الإرهاب مولود استنبول ابن الرومية أندريه شينييه الذى صب علمه وفلسفته فى قالب شعرى خلاب وتحفز لتقويض أركان الأدب الملهم بأشعة السماء والعودة إلى أدب وثنى طبيعى وعلمى شعاره « هرمس » اليونان و « تحوت » مصر . . والثورة التى يشترك أخوه فى مجالسها ، الثورة التى اندلعت للافراج عن الحرية قد خنقت هرمس الجديد قبل ميلاده ، وقتلت أبناءها بيدها .

سيدوى اسم القرية المجهولة فى القرن التاسع عشر ؛ وسيكون لها من أبنائها فولتير شرقى وسيبويه عصرى .

أما الآن ففى الدولة العثمانية التى تضم أرجاؤها الواسعة سوريا ومصر ما زال السلطان سليم الثالث جالساً على عرش الخلافة منذ أربع سنوات . . ولا تفرق القرية اللبنانية بينه وبين سلفيه مصطفى الثالث وعبد الحميد .

يذكر مؤرخ مقاطعة كسروان التابعة لها عشقوت ثورة لبنان

على الأمير بشير فى سنة ١٧٩٠—١٧٩١ وقيام الحرب بين اللبنانيين وأحمد باشا الجزار وانتصار هؤلاء بعد سنة وخمسة شهور من المعارك فى مقاطعة صيدا . ولكن أين صيدا من عشقوت !.. إنها تبدو فى أقاصى الأرض .

ويذكر المؤرخ نفسه فى سنة ١٧٩٢ خلافاً قام بين يوسف اسطفان بطريرك الموارنة والرهبان العازاريين الفرنسيين الذين حلوا محل الرهبان اليسوعيين الفرنسيين فى مدرسة «عين طوره» القريبة من عشقوت . وسبب الخلاف إخلال العازاريين بشروط البطريرك التى قضت بتعليم شبان لبنانيين اللغة الفرنسية .

وفى سنة ١٧٩٣ يذكر المؤرخ موت البطريرك ودفنه فى فى غوسطا مسقط رأسه ؛ الراقدة بين أربعة تلال مخروطة كأقماع السكر . . وقد اشترك أهل عشقوت مع سائر القرى فى المأتم العظيم وتولى شاهين الندب وبيده السيف المسلول وأمامه علم القرية وخلفه جماهير الشبان تردد ندبه الارتجالى .

وفى السنة عينها وجه الطاعون سهامه الفتاكة إلى « أهالى دلبتا » جارة عشقوت ومات منهم خمسة وتسعون .

وفى سنة ١٧٩٤ « يتغير » الجزار على بشير الذى ولاه منذ عام ويرسل جنداً إلى « وطا الجوز » القرية الملاصقة « لملحقات » عشقوت ويطيعه المشايخ آل الخازن فلا يلحق بكسروان أذى . ثم فى سنة ١٧٩٥ يرضى الجزار على بشير .

وهكذا تتوالى السنون ومثل هذه الأحداث تحبط القرية ولا تدخلها.

وفى مصر ما زال الجبرتى مكباً على سرد وقائع التاريخ الداخلى المصرى لايهمل واقعة ولا ينسى وفاة عظيم بل هو يستجمع من أدب كل عالم ما ينثره على قبره سنة وفاته ، وهو يكتب فى هذه السنة :

« هبط النيل أيضاً وللمرة الثالثة فى ثلاثة أعوام متوالية ، والأمر فى شدة من الغلاء والمظالم والخراب . . . تشتتت أهل البلاد ، وانتشروا بالمدينة حتى ملأوا الأسواق والأزقة . . . ويموت من الرجال والنساء والأطفال كل يوم عدد عظيم . . . والأرجل تقع على جثث مطروحة ، وإذا وقع حمار أو فرس تزاحم عليه الناس وأكلوه نيئاً ولو كان منتناً . . . يأكلون الأطفال . . لم يبق من الفلاحين إلا القليل وعمهم الموت والجلاء » .

ويواصل الجبرتى تاريخه ، ويبسط وقائع عصره المضطرب بسطاً آلياً ملىء بالمرارة والصبر فيقول عن سنة ١٧٩٥ :

« لم يقع بها شىء من الحوادث سوى جور الأمراء وتتابع مظالمهم ، وقد اتخذ مراد بيك قصر الجيزة سكناً وزاد فى عمارته ، واستولى على غالب بلاد الجيزة بعضها بالثمن القليل وبعضها غصباً . . . وأوفى النيل أذرعه . . .

« اجتمع الأمراء فى منزل إبراهيم بيك وحضر الباشا وأرسلوا إلى المشايخ فحضر الشيخ السادات والسيد النقيب والشيخ الشرقاوى والشيخ البكرى ومنعوا العامة من السعى خلفهم ، ودار الحديث . . . وتاب الأمراء ورجعوا والتزموا بما شرطه العلماء عليهم . . . وانعقد

الصلح . . . على أن يبطلوا المظالم . . . وأن يكفوا أتباعهم عن امتداد أيديهم إلى أموال الناس . . . ويسيروا فى الناس سيرة حسنة ، وكان القاضى حاضراً فى المجلس فكتب حجة عليهم بذلك .

و « فرمن » عليها الباشا وختم عليها إبرهيم بيك وأرسلها إلى مراد بيك فختم عليها أيضاً . . . وتجلت الفتنة ، ورجع المشايخ ، وحول كل واحد منهم وأمامه وخلفه جملة عظيمة من العامة . وهم ينادون حسب ما رسم ساداتنا العلماء بأن جميع المظالم والحوادث والمكوس بطلت من مملكة الديار المصرية وفرح الناس وظنوا صحته . . . وسكن الحال على ذلك نحو شهر ثم عاد كل ما كان مما ذكر وزيادة . . . » .

« ونزل عقب ذلك مراد بيك إلى دمياط وضرب عليها الضرائب العظيمة » .

« ومات الذمى المعلم إبراهيم الجوهرى رئيس الكتبة الأقباط . . . وحزن إبراهيم بيك لموته وخرج إلى قصر العينى حتى شاهد جنازته وهم ذاهبون به إلى المقبرة وتأسف على فقده تأسفاً زائداً ، وكان ذلك فى شهر ذى القعدة » .

أما كاترينا الثانية ، سميراميس الشمال ، والأمبراطورة العظيمة الشأن فهى غريبة عن الجبرتى كما هى مجهولة عند سكان القرية العربية المجهولة ، وها هى تموت فى سنة ١٧٩٦ ويكتب الجبرتى :

« لم يقع شىء من الحوادث التى يعتنى بتقييدها سوى مثل

ما تقدم من جور الأمراء والمظالم » .

« ومات بهذه السنة . . . »

والقرية اللبنانية راقدة فى سهل الوادى وعلى السفوح والتلال ، تقفل جبالها الأفق من جهاتها الثلاث وتنبسط من الجهة الغربية وتنحدر فتنظر البلدة بطرف عينها إلى البحر حيث تسبح فى بعض أيام السنة نقطة بيضاء ، وتبتعد عن كوم من الحصى (مدينة بيروت) أو تقترب ، فى ذهابها إلى قبرص أو دمياط ، أو فى عودتها . . وفى أيام العطلة عندما يتسلق إبرهيم قمم الجبال مع رفيقته منيرة ، وينظران إلى العلامة البيضاء كأنها بيضة عصفور فى اللانهاية الزرقاء ، يلوحان لها مودعين عندما تكون راحلة نحو الجنوب إلى دمياط ، مرحبين عندما تكون راجعة . . .

ها إبرهيم قد عاد من العطلة ، عطلة الميلاد ورأس السنة ، وها هو يكتب « الواجب » فى كراريسه ، واجب الجبر واللغة الفرنسية والجغرافيا والتاريخ ، ورقم ٥ قد أصبح ٦ والسنة الجديدة ١٧٩٦ تحمل من المفاجآت ما يغير مجرى حياته ويقلب بيت العم شاهين رأساً على عقب !

نسيب وهيبة الخازن

الطاعون

« وداعاً أيتها الآثار الباردة ! »
لامرتين

سنة ١٧٩٦ !

كانت كأخوات عديدات لها ، من اللواتى يطلقن منجل الموت يحصد الشعب المصرى . ويتركن فى مسيرهن أكواماً من الجثث العفنة ، وبحوراً من الدموع السخينة ، وأغواراً من الأوجاع والحسرات المذيبة !

كتب الراهب صاحب المذكرات فقال :

لم تمض ثلاثة أشهر من تلك السنة المشؤومة حتى كان المنادى ينادى بأعلى صوته فى مدينتى القاهرة ودمياط :

« الطاعون يا رب استر . القفلة يا رب احفظ »

فأقفرت الشوارع من الأحياء ، وتكدست فيها جثث الموتى ، وفزع الناس من المسير فى الطرق .

سنة حالكة كوجه الموت لها سابقات ولاحقات !

وعلى الرغم من « القفلة » التى لزمها السكان اشتدت وطأة الطاعون ، فأهلك ألوف النفوس ، وتساقطت الأجسام أمامه كأنها سنابل الحقل أمام مناجل الحاصدين . غير أن للسنبلة أملا فى عودة الحياة ، وهؤلاء التاعسون يخرون صرعى ، وهم فى يأس من نفوسهم ، ومن البشرية ، ومن خالقهم !

لايسمع فى شوارع مدينة دمياط الضيقة إلا العويل ، وتأوهات المرضى ، وزفرات المكلومين ، ولا تقع العين إلا على منظر ناقلى الموتى إلى المدافن على ثلاثة ألواح خشبية مركبة على دولابين يجر كل عربة منها حمار هزيل أو بغل نحيل .

مدينة دمياط فى مأتم متصل ، والموت نفسه فقد روعته وجلاله : جثث الموتى مكدسة فى الشوارع كأنها أكوام القمامة ، وناقلوها يساومون أصحاب المنازل على أجرة النقل .

أجساد شبه عارية قد شوهها الداء ، يدنو منها أصحاب العربات فيكومونها ثم يسترونها ببلاس ، ويربطونها بجسر العربة كأنهم يربطون أكياساً من المواد القذرة . ثم يلهب السائق ظهر الحمار أو البغل بسوطه فتسير العربة مترجرجة إلى مدينة الموتى ، وترقص على جوانبها الرؤوس والأيدى والأرجل ، ويتساقط الدم من أفواه الموتى على الدروب .

فى وسط هذا الصراع العنيف بين الموت والحياة نضبت الشفقة من أفئدة البشر ، ولم يبق من آدمى يعود المرضى ويخفف عنهم أوجاعهم ويعاونهم على قضاء حاجاتهم سوى رجلين : الأب يوسف والشيخ مصطفى .

يشغل الأب يوسف القسم الأكبر من وكالة المرحوم الحاج إبراهيم جلبى الخفاجى المعروفة بالبارجة ويقطن الشيخ مع أسرته فى القسم الآخر والقسيس يقوم بالشعائر الدينية فى إحدى غرف البارجة الكبيرة ، ويسكن مع مساعده وضيوفه فى الغرف الأخرى .

وكان لايلذ للشيخ مصطفى إلا مجالسة الأب يوسف ومجاذبته أطراف الحديث وشرب القهوة معاً كما رأينا . وطالما تناولت أحاديثهما سيرة إبرهيم ابن الشيخ ، وكثيراً ما قرأ كل منهما رسالة رئيس الدير عشرات المرات ، وبين المكتوب والآخر شهر أو شهور ، والشيخ والقسيس يتناوبان انتظار مركب جبور شيخ العرب .

أما فى معاملاتها فقد رسما نهجا شرحاه فى الجامع والكنيسة : المناقشات الدينية بين العامة تزرع البغضاء فى القلوب . فالرجل العميق التدين يحترم دين غيره ، لأن الحرية هى فى أن يحترم الإنسان آراء أخيه .

كان الرجلان يعودان المرضى المسلمين والمسيحيين على السواء ، ويقدمان لهم النصائح والمراشد الروحية ليحتملوا أوجاعهم بصبر وتسليم لإرادة الله القدسية . وفى يوم وصل إلى الأب يوسف نعى صديقه الأب بطرس الذى كان يعود المصابين بالطاعون فى القاهرة ، ويعتنى بدفن الفقراء من جميع الملل والنحل ، فأصيب بهذا الداء ، وتحمل مضضه بالصبر الجميل مدة أربعة أيام ثم أسلم روحه إلى بارئها .

إن هذا الخبر المشؤوم أضعف عزيمة الأب يوسف والشيخ مصطفى . فأخذا يفكران فى أمر « القفلة » اتقاء للشر . وبينما هما كذلك إذا بشقيقة الشيخ تصاب وتقضى نحبها فى مدى يومين فيثبت الحادث عزمهما .

القفـــــلة

« تضحية الحياة قليلة ، إنما التألم فى الحياة هو أكثر »
سيلفيو بليكو

بقى الطاعون كسائر الأوبئة مجهول المصدر إلى عهد العالم باستور ، ولكن الناس فى كل عصر قد اصطلحوا على طرق الوقاية التجريبية ، وفى مقدمتها « القفلة » فى مكافحة الطاعون . أما الشيخ والكاهن فقد قرنا الوسائل المادية بالروحانيات .

هكذا يذكر الأب يوسف حوادث القفلة : « وإذ جاسنا نتشاور فى تنفيذ « القفلة » بادر الشيخ تلاوة آيات من القرآن : « إن الله لايظلم الناس شيئاً ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون » .

ثم ردد الآية الأخرى :

« الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله ، فاستغفروا لذنوبهم . ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ » .

ثم نهض الشيخ . ونادى عائلته تشاركه الصلاة ، فهرعوا إلى الوضوء ، واجتمعوا مع الأب يوسف فى غرفة واحدة . هم يتلون الفاتحة ويرددون باخبات : « ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا . ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ، واعف عنا وأغفر لنا وارحمنا أنت مولانا . . . » والقس يوسف ساجد على ركبتيه فى زاوية الغرفة الشرقية يضرع إلى الله بخشوع ويقول : « لتكتمل بنا

مشيئتك يا رب . أغفر لنا ذنوبنا . . . لاتدخلنا فى التجارب لكن نجنا من الشرير آمين » .

وهكذا امتزجت على الأرض صلاة الشيخ المسلم وأسرته بصلاة الكاهن المسيحى ، وطارتا إلى عرش الله الذى يريد أن يمجده جميع الناس بألفة ومحبة .

قال الكاهن : « إن واجبى الرعائى أيها الصديق يحتم على أن أن أغادر المنزل فى أثناء القفلة إذا دعانى مريض لسماع اعترافه وإيلائه سر المسحة الأخيرة ، لذلك أرى محافظة على سلامتك وسلامة أهل بيتك أن أقفل مع الآباء فى مسكنا ، وأن تقفل أنت فى منزلك » .

— هذا أيها الأخ غير ممكن . فاما أن نموت معاً وإما أن نعيش معاً .

— عاطفة نبيلة . إنما الحكمة فى إعمال الروية لافى الانقياد للعواطف أيها الأخ . . . إننا جيران بل نكاد نقطن فى بيت واحد . ثق أننى سأحدثك كل يوم ساعات طويلة . . . لو كنت مثلى من غير أهل لماخالفت لك رغبة ولكنك مسؤول عن مستقبل زوجك وأولادك . . ومن الواجب أن تسمع كلامى لئلا تفقد القفلة فائدتها .

— فليكن كذلك أيها الأخ ، ما دمت قريباً منى فكل شىء سهل على .

— بارك الله فيك يا صديقى ، وأبقاك لى سالماً معافى .

كان القسيس بارعاً فى إعداد القفلة وممارستها إذ أخذ عن علوم

الغربيين وأساليبهم الشيء الكثير وقد بذل نصائحه للشيخ وأهل بيته ، وأوصاهم أن يعدوا أكلهم وشربهم لمدة أربعين يوماً ، وحرص الشيخ على السهر على الباب ليمنع الناس من دخول بيته ثم حذره قائلا له : « إياك وترك القطط فى البيت ، فانها فى ذهابها وإيابها تحمل إليكم جراثيم المرض من الخارج فتذهب الفائدة من القفلة »

سمع الشيخ كلام صديقه ، وأخذ يعمل بمساعدة خادمه على سد النوافذ باحكام ، وسار الراهب إلى غرفته يجهز الشرب له وللشيخ ولسائر أفراد سكان البارجة .

كانت تلك الشربة من مستلزمات القفلة . وكانت مؤلفة من درهم حلبة ، ودرهمين ملح طرطير ودرهم سكر . وكان على القافل بعد الانتهاء من تناول الشربة وتنظيف معدته أن يأخذ كل ليلة بقليل من الماء حبة من عدة حبوب مركبة من الصبر والمر والزعفران.

هيأ الكاهن الدواء وحمله مع الشرب إلى الشيخ ثم راقب سد الأبواب والنوافذ ، وأشار على صديقه أن يضع على مقربة من الباب وعائين كبيرين أحدهما للخل والآخر للماء ثم قال له :

— وصيتى لك أن توجب على الخادم كنس البيت كل يوم مرتين ، وغسله بالماء مرة واحدة . أما الخضر والفاكهة فتسلمها بالماء . وأما اللحوم والحبوب فعليك أن تتلقاها بالمياه الغالية . . . على كل حال توكل على الله ، لأن المتوكل عليه تعالى لايخزى أبداً .

قال الأب هذا واغرورقت عيناه بالدموع ، ثم عانق صديقه وبكيا طويلا دون أن يبوح أحدهما للآخر بما يجول فى صدره :

« من يدرى ؟ لعل هذا اللقاء يكون الأخير على الأرض ! »

ثم دعا الشيخ أولاده وقال لهم بصوت تخنقه العبرات : « قبلوا يد عمكم الأب يوسف ، واطلبوا صلاته وبركته ، لأنه سينقطع عنا مدة القفلة »

ثم رفع الشيخ يديه بالدعاء : « اللهم لانسألك رد القضاء بل نسألك اللطف بنا » .

والتفت الشيخ بعد ذلك إلى الكاهن وقال :

« إذا حل قضاء الله ، فانى أوصيك بابنى البكر ابنك إبراهيم لقد كانت إشارتك فى إرساله إلى لبنان لتلقى العلم بركة ونعمة . ولعل هذا لطف خفى من لدن المولى سبحانه وتعالى أراد به أن أن يحفظ هذا الولد من وباء يهلكنا جميعاً » .

وهرع الأولاد إلى الكاهن يقبلون يده وهو يعانقهم فرداً فرداً ، ويوصيهم أن يكونوا طائعين ثم تركهم داعياً لهم بالتوفيق والشيخ يردد : « قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا » .

أما القس يوسف فانه سار إلى كنيسته الملاصقة لمنزل صديقه ، وغسلها بالماء ، وكان يحمل إليه المياه من الخارج خادمه الأمين « بنايوتى » ثم أمره وأمر مساعده ألا يخرجا من البارجة فى مدة القفلة . وراح الكاهن يتبع فى قفلته نظاماً قاسياً لا يتنافى مع القيام بواجبه الرعائى .

إذا اتفق أن دعا أحد المرضى الأب يوسف لسماع اعترافه كان يسرع إليه ملتفاً بجبته ، رافعاً ثيابه عن الأرض ، مبتعداً عن مصافحة أى إنسان ، مراعياً فى مشيته السير فى الدروب المقفرة لئلا تلمس ثيابه الأرض الملوثة أو ملابس أحد الموتى . ولما كان

يصل إلى بيت المصاب ، كان يبادر إلى أهل البيت ، ويطلب منهم أن يكنسوا غرفة المريض ، ويخلوها من الأثاث بقدر الإمكان ، ويشعلوا كانوناً من النار يوضع بين الكاهن والمصاب ، فيسمع اعترافه عن بعد ثلاثة أو أربعة أذرع ، وهو واقف على رجليه .

كان أبونا يوسف فى حالات الخطر يمنح المريض المسحة الأخيرة بقصبة طويلة يربط فى رأسها قطنة مغموسة بالزيت المقدس. وكان بعد الفراغ من الصلاة يحرق القصبة والقطنة فى النار المشتعلة أمامه.

وكان الكاهن على أثر عودته إلى منزله يخلع ثيابه ويبخرها بروث البقر اليابس المحروق ثم ينشرها على حبل وضعه لهذه الغاية على السطح.

كان القس يوسف مبتكراً فى قفلته إلا أن ابتكاره بلغ الذروة فى حلاقة رأسه . كان يستدعى الحلاق إلى ساحة البارجة الداخلية ، ويأمره بنزع ملابسه من قمة رأسه حتى أخمص قدميه ثم يعطيه قطعة قماش نظيفة ليستر بها عورته . وإذ ذاك يأتى الخادم بالماء الساخن والليفة والصابونة فيسلمهما إلى الحلاق ، وهو يصب الماء على رأسه وسائر أعضاء جسمه حتى يستحم استحماماً كاملا .

كل هذا يجرى ، وأبونا يوسف ساهر على إتمامه بدقة . وبعد الانتهاء من الحمام يسلم الكاهن إلى الحلاق جبة قديمة من ملابسه فيتشح بها ، ويشد وسطه بحبل ، ويعصب رأسه بمنشفة بيضاء ، ويستعد للعمل ، فيجلس أبونا على كرسى إفرنجى ، ويضع كرسياً آخر بينه وبين الحلاق ، ويدفع إليه الموسى المطهرة ، ويأمره أن يحلق رأسه من غير أن تلمس ثيابه ثياب الكاهن .

وحدث مرة ، بعد أن قام الحلاق بهذا الاستعداد المنظم ، أن لمس بيده ثياب الكاهن ، فانتهره بشدة وفقد رصانته ، وكاد يضربه بالكرسى ثم غادر مقعده إلى الغرفة المجاورة حيث خلع ثيابه واستحم بماء ساخن خوفاً من وصول عدوى الطاعون إليه .

هكذا يروى أحد الرهبان هذه الواقعة بأسلوبه الساذج ثم يضيف الخبر الآتى :

فى مساء أحد الأيام كان أبونا يوسف يسامر صديقه الشيخ من نافذة غرفته فشاهد قطاً فى منزل الشيخ فصاح به : « أطرد القط بسرعة . أطرد القط بسرعة » . فاذا بأعصاب الشيخ تتوتر ويجرى مع أولاده وزوجته وراء القط ليطردوه دون أن يفتحوا له منفذاً غير النافذة المطلة على مسكن الكاهن . ولما حوصر القط قفز من تلك النافذة إلى منزل الأب ، فطار صوابه ، وأخذ يصيح مذعوراً : « بنايوتى ، بنايوتى » فجاء فزعاً ، وأخذ يعاون الكاهن على مطاردة القط إلى أن تخلصا من شره .

ألا يرى القارىء أن السليقة الشرقية قد اقتربت بصفائها من سر الحياة والموت قبل أن يكتشف العالم الغربى باستور عالم الجراثيم والميكروبات ؟

الأب بولس مسعد

مناجل الموت

« كتفاً منقلة إلى كتف موجعة ، وجنباً إلى جنب زحاماً وحشوداً متجمعة ، يعشون معاً ، مبتعدين عن أنوار الحياة الوهاجه الملتمعة فى جوف ظلام بهيم ... »

سيجفريد ساسون

يتابع الكاتب وصف الطاعون فيقول :

كانت مدينة دمياط فى غمرة ذاك الوباء الفتاك ترسل الأنة تلو الأنة ، كمريض يعالج سكرات الموت فيشرد نظره ويضل فكره فى فدافد الحياة باحثاً عن شىء يخلصه مما هو فيه ، فيرجع خاسئاً . عندئذ يتحقق من أباطيل الدنيا وغرورها ، ويوجه ألحاظه إلى السماء طالباً الرحمة من الساكن فى أعاليها !

إن هذه الحالة المؤلمة بما فيها من أحداث راعبة قد أقضت مضجع الأب يوسف ، فحار فى أمره ، وأخذ يردد قول أيوب : « الإنسان مولود المرأة قليل الأيام كثير الشقاء . كزهر ينبت ثم يقطع ، وكظل يبرح ولا يقف » .

كان هذا القول وأمثاله بالنسبة إلى الكاهن السائر فى مآتم متصلة كسكن خفيف لمصاب متألم . وكان يطلب مزيداً من التعزية فيجدها تارة فى الصلاة أو يطوى أياماً بلياليها فى ظلام دامس .

جاء فى مذكرات الكاتب :

فى أحد الأيام دعى القسيس لسماع اعتراف مصاب بالطاعون، فأسرع إليه كعادته ، وأهبه لملاقاة ربه . إلا أنه إذ كان يتلو على المريض الصلوات الطقسية طرق أذنيه صوت طفل يصرخ صراخاً متقطعاً . وما كاد ينتهى من إداء مهمته الدينية الرهيبة ويدعو للمريض بالشفاء حتى هرع يفتش عن مصدر ذاك الصوت فى تلك الأكواخ القريبة من منزل المريض ، فاذا به فى باب كوخ حقير منتثرة فى زواياه أربع جثث عفنة ، وعلى مقربة من الجثث طفل لايتجاوز الثالثة من عمره يقوم ويسقط ، ويسقط ويقوم ، يصرخ ويسكت ، ويسكت ويصرخ إلى أن شاهد الأب يوسف واقفاً فى الباب ، فهجم عليه لعله يجد خلاصاً من براثن الموت ، إلا أن ركبتيه الهزيلتين لم تقويا على حمله فوقع على الأرض لايبدى حراكاً، فدنا منه الكاهن ونظر إليه فاذا به قد أسلم الروح .

أمام هذا المشهد المروع ، وقف الكاهن يبكى ويصلى على جثث أولئك المساكين ثم خرج من الكوخ مذعوراً وهو يتمتم : « هذه أسرة كريمة قد محا الموت اسمها من سجل الأحياء وجر الفناء عليها أذياله . . . يا رب هل نقول أكثر من ذلك !

« الراحة الأبدية أعطها يا رب » .

ظل الكاهن على ذهوله حتى عثر على أحد ناقلى الموتى ، فدفع له أجرته ورجا منه أن ينقل تلك الجثث بأسرع ما يمكن إلى المدافن .

لم يكن هذا المشهد على قسوته سوى واحد من ألوف المشاهد التى آلفتها مدينة دمياط فى ذاك العام . غير أن الأب لم ير حتى ذاك التاريخ منظراً مماثلا له . فعاد إلى كنيسته شارد اللب ، ساهم الفكر ، كأن لوثة مست عقله وعقدت لسانه عن الكلام .

وعلى مقربة من الكنيسة سمع عويلا فى الشارع المواجه لها ، فرفع عينيه فإذا به يشاهد ثلاث عربات مكدسة بجثث الموتى ، وبعض النسوة المولولات وفى المنزل المنفرد القائم على رأس الشارع إمرأة تهبط درجات مدخل بيتها وتمشى نحو العربة الثالثة ، فوقف فى مكانه مبهوتاً يراقب ما يجرى .

كان منظر تلك السيدة ينم عن شباب ناضج ومهمل ، ويوحى بجمال مغلف ومشعث لكنه غير مبتذل ، ويدل على انفعال شديد وعنت قتال .

كانت مشيتها ثقيلة وعلى ذراعيها ابنتها التى لم تتجاوز التاسعة من عمرها تحمل جثتها على صدرها بعد أن هصر الطاعون غصن حياتها الرطب . والطفلة فى هندام بديع . شعرها الفاحم مفروق على جبينها . ولباسها الأبيض كالثلج يدل على أنها تستعد لحضور عيد ! إنها حية ولكن يدها مصفرة كالشمع ، ورأسها يهتز على كتف والدتها باستسلام أقوى من النوم . قد فاضت روحها إلى خالقها ، إلا أن الأم هى نفس حية فى جسد ميت !

ثم دنا صاحب العربة ليأخذ الفتاة من أمها بحركة فيها الكثير من العنف وقلة الاحترام ، فانتهرته بدون بغض أو احتقار وقالت له :

« لا ! لاتلمسها الآن . يجب أن أرقدها بيدى على العربة بين الجثث ». ثم دست فى يد ناقل الموتى قطعة من النقود لم يحلم بها فتخشع وواصلت الوالدة قولها :

« عدنى بأنك لاتضع أية جثة فوقها ! أكد لى أنك لاتقذف بها مع الجثث إلى جوف الأرض ! بحقك أحفر لها قبراً مستقلا ، واضجعها فيه بهدوء وراحة ! »

تأثر الرجل ، ووضع يده على صدره ، وأحنى رأسه علامة استجابة طلبها ثم سار إلى العربة المكدسة فوقها الجثث ، وأفسح محلا للمائتة الصغيرة . فوضعتها أمها فى المكان المعد لها كأنها تنيمها فى سريرها ثم قبلتها فى جبهتها قائلة لها : « الوداع يا حبيبتى ! إرقدى بسلام الرب ! فى هذا المساء سألحق بك مع شقيقتك الصغيرة لنكون معاً » .

ثم التفتت إلى ناقل الموتى وقالت له :

« عد إلى منزلنا فى المساء . سأترك الباب مفتوحاً على مصراعيه . عد لتحملنا إلى المرقد الأخير . ستجد أجرتك على منضدة الغرفة التى نموت فيها » .

رسمت إشارة الصليب على وجهها ، وعادت إلى بيتها حيث أطلت من النافذة حاملة طفلة أخرى أقرب إلى الموت منها إلى الحياة . وراحت الأم تتأمل العربة السائرة إلى مدينة الموتى ببطء وعدم اكتراث حتى توارت عن الأنظار .

والآن ماذا تستطيع أن تفعل هذه المسكينة إلا أن تحمل ابنتها

الحية إلى السرير ، وترقد بجانبها لتستقبلا الموت معاً ؟ إنهما كزهرة يانعة على جذعها تسقط مع البرعم الذى يحمله الساق نفسه أمام المنجل الحاد الذى يقطع عشب المرج كله !

شاهد القسيس ذلك كله ، فكاد يجن ، وأخذ يصيح بصوت مذيب : « ربى استجب لها . ربى استجب لها . ارحمها مع طفلتها . إنها قد تألمت ما فيه الكفاية . إنها قد تألمت ما فيه الكفاية » .

وقبل أن يتم دعاءه أسرع إلى منزل اليائسة ، وما كادت تراه فى الباب حتى بادرته الكلام :

— « لاتدخل يا أبانا ! لاتدخل يا أبانا ! إن المنزل كله موبوء . لم يبق من أهلى غير هذه الطفلة . . . لست بحاجة إلى الاعتراف لأننى منذ أيام وجيزة اعترفت عندك وتناولت القربان المقدس . عد إلى الكنيسة وصل . إن الرعية بحاجة إلى خدماتك . . . »

وعاد الكاهن أدراجه يفكر فى هذه الضربات المتواليات وهو نهب مقسم ! ودجا الليل ، ونام الآلهة والناس بلغة هوميروس لابلغة الراهب .

الاب بولس مسعد

حمى كليب

« من قتل دون رزقه فهو شهيد »
(حديث)

مايو (إيار) سنة ١٧٩٦

فى دمياط يبطش الطاعون بالناس ، وفى سائر بلاد الأرض منذ البدء يبطش الإنسان بأخيه من أجل لقمة . . ومناجل الموت تحصد الجميع .

مياه النيل بحور تسير ببطء إلى البحور ، ودمياط جنة من جنات النيل فى أرض مصر المنبسطة ، أما فى عشقوت فالثلوج تغمر الجبال وعيون السماء تتدفق فى الشتاء ، ثم يهل الربيع وتتفجر الأرض بما استوعبت من المياه ، فتكسو أديمها نبتاً وزهراً .

وعشقوت الآن جنة تحملها جبال ثلاثة ، وفى هذه الجنة يشهر ملاك الموت سيفه ويتلطخ أديم الأرض بدماء الإنسان ، والقاتل والمقتول هنا شهيدان .

* * *

قام شاهين فى السحر وأزاح الغصون التى تسد باب خيمته ، ونظر إلى مباهج الشهر المنور ، وتنشق هواءه المعطر ، وردد تسبيحة الأجيال : « إيار ، نوار الورد ، ثم برا وتذكر أيام البرد . » ثم دخل البيت ، والبيت الآن صقالة هى السدة التى تحمل أطباق دود الحرير متدرجة إلى السقف ، وفى البيت عبير الورق

الأخضر وأزيز كوابل المطر : فالدود لايشبع ليلا ولا نهاراً ، والأشر الدقيقة فى آلاف وآلاف من الأفواه الصغيرة تقرض ورق التوت النضير .

أخذ شاهين المنجل المعلقة على السدة ، وخرج يسعى لرزقه تاركاً أسرته الصغيرة فى نومها العميق ، فقد سهرت نائلة إلى الساعة الرابعة بعد الغروب ، تجرد الأوراق من كل غصن فارع كالشلح ، وترش بها الأطباق ، وأمام منيرة عمل للنهار ، فالعيدان كثيرة وقفها سيمر بكل عود ويقشره ، ويداها ستحزمان القشر وتكفتان كل رزمة ؛ وهى بعد ذلك ستحمل نمرها من القضبان وتنزل به إلى قبو الوقيد ، ثم تصعد وتأتى بغمر بعد غمر ، ثم تنقل « كافات » القشر إلى قبو العلف .

* * *

وفى الشتاء عندما تسد الثلوج الأبواب ، سيشق الأب بالمجرفة دربا له ، فى فجر كل يوم ، بين باب البيت وباب القبو . وفى القبو سيضع فى معلف البقر كوماً من جزة ورق التوت التى تبقى فى أطباق القز منقوشة منمنمة بأشر الدود ، ممزوجة ببعرها . وبعد أن يفتح شهية البهائم بالجزة المعطرة بأريج النبت الجاف سيلقى فى المزاود « بكافات » القشر .

وسينادى الديك أسرته فتنتفض الدجج وتصيح مهرولة وتقفز مرفرفة فى ثرثرة إلى المرتفعات حيث تلتقط البعر . والفلاح يحصى دجاجاته بعطف ، وبهائمه لاتحس بأسرابها .

وسيبرز من شق جدار أنف أرنب، ثم تلمع فى الشقوق وعلى فتحة الجحر أنوف وعيون حمراء ، وترقص شوارب من شعرات قليلةطويلة بيضاء، هى أصابع ضئيلةراجية باحثة أكثرمنها شوارب، ثم تتسلل القبيلة بحذر إلى المواطىء حيث تسف بين الحوافرالجبارة سواقط الجزة والقشر .

ثم يدع الفلاح شعبه السفلى فى يقظة الفجر وعجيج الحياة ، ويعمد إلى قبو الوقيد فيحمل حزمة من قضبان التوت التى لحاها الأولاد فى أيام القز ، وقطعا من «عماد» التوت التى قرمها لتقادم عهدها كما كان أجداده فى جزيرة العرب يقرمون الفحل إذ يتركونه عن الركوب والعمل ، ثم يأخذ كتلة من الحطب جاء بها فى الخريف من الغابة البكر التى افترع بعض أشجارها ، ثم يلقى فوق حمله بعض الشيح الذى ربط به دود القز شرانقه .

ثم يصعد الرجل بحمله فإذا بالزوجة قد نزحت رماد الموقدة بالمقلطة ، وأشخصت رأس فتيلة المسرجة بمسلة لابعود ، كأنها حفظت قول الجاحظ فى « بخلائه » ورأت أن العود يشرب الزيت وأن الإبرة أو المسلة من حديد « غير نشاف وهو مع ذلك أملس لايعلق به قطن الفتيلة » .

المسرجة فى القرن الثامن عشر لم تبلغ فى الرقى قنديل الجاحظ المصنوع فى القرن التاسع من زجاج« لايعرف الرشح ولا النشف . . زجاج مجل غير ستار . . يقع شعاع النار على جوهره

فيصير المصباح والقنديل مصباحاً واحداً ، ويرد الضياء كل واحد منهما على صاحبه » .

فى الموقد النظيف يشعل الفلاح الشيح من المسرجة ويغذى النار الوجلة بالقضبان ثم يزكيها بالحطب ، ثم يزينها بالقرامى .

• • •

كل هذا يجول فى ذهن الرجال والأولاد والنساء فى مواسم القز ، باكورة خير السنة ، وعماد ثروة الفلاح ، وعربون الكساء فى الصيف والشبع فى الشتاء .

وهذا ما يتمثله شاهين وقد قام من الفجر وسار وهو يتمتم « يا فتاح يا عليم ! يا رزاق يا كريم » على طريقه إلى توت الحرف .

شاهين يسير الآن فى سفح الجبل وقد أنارت الشمس قمة الجبل الشمالى . وابتسمت القرية وتأهبت بأناقة لاستقبال النهار الطالع ، وهى بين جبالها الثلاثة مترفقة فوق الربى ، منتشرة على السفوح ، متدللة فوق الأودية .

فوق الطريق المكسوة ببساط النبت والزهر يتدلى زهر الزنزريق والدردار والبلسان والبان ، وقد شعشع البطم وبرزت قلاحين الكرمة ، وتكورت أثمار خضراء زاهية فى أغصان البرقوق والمشمش ، وامتلأت الطبيعة ببشائر الخير والبركة .

وفى أطراف القرية ، فوق فوهة الوادى ، يدرك شاهين نقبة التوت المعلقة بين الصخور ، ويبدأ « بالمشق » كما يسمى الفلاحون قطع أغصان التوت ، مجازاً وتدليلا ، والفلاح يمشق التوت كما

تمشط الجارية شعر الحسناء . وشاهين يبدأ بالتوتة النابتة فى رجمة تفصل الغابة الهائجة عن النقبة المصونة . . والرجمة كوم عظيم من الحجارة التى يعزلها الناقب من الأرض الممهدة للنقب ، وهى ملك له إذ هو دائماً يفرد لها قطعة صخرية مجدبة فى زاوية من الأرض . ولكن القسمة التى أجراها الآباء قد أصبحت مطموسة المعالم عند الأبناء ، وشاهين وأبناء عمه مختلفون على ملكية التوتة . والشجرة أثارت نزاعاً طال أمده وقد تقاتل دونها أبناء العم حتى دعا القرويون « الدوارة » . تلك الأشبار القليلة من الأرض التى تحيط بالتوتة « حمى كليب » . وها الشيطان يلعب بعقل شاهين فيسطو الأخير على الحمى ويجلس الأول على ذنبه مترقباً الشر .

وحدث ما أراد الشيطان أن يحدث إذ شاهد أبناء العم الثلاثة ما فعل شاهين فهرولوا وهددوا وأدركوا الرجل . . ووسوس فى أذنه الشيطان مرة أخرى فانقض بالمنجل الحادة مهولا ، وقرب الشيطان أحد الهاجمين فجرحته المنجل ، وامتد العراك إلى حافة الهوة وقد فغرت فاها الرهيب فشاء القدر (بعد الشيطان) أن يدفع شاهين ابن عمه الأكبر بعنف فهوى الرجل إلى حيث تمزقه الصخور ويبتلعه جوف الأرض .

وبهت المتخاصمون ووجموا . . وكانت ضربة القدر قاضية فأنست الرجال خصامهم ، واجتمعت أصواتهم طالبة النجدة ، فأقبل أهل القرية على « طرح الصوت » . هذا يحمل حبلا وذاك « بلاسا » . وربط المنجدون أحد القرويين الأشداء بحبل وأنزلوه .

وأخرج ابن عم شاهين مهشماً بين ولولة النساء وحسرة الشيوخ .

والقروى اللبنانى يخجل من إظهار ألمه وأوجاعه وعواطفه . والرجل المهشم الذى نجا من الموت بأعجوبة ينظر الآن إلى منقذيه وإلى مواطنيه بهدوء ويقول :

— لابأس .. لابأس ..

ويرمق شاهين ضحيته بعين جامدة .. ثم يأخذ من أحد رجال الغابة «فراعة» ويتوجه صامتاً إلى «الحرف» ويتابعه الناظرون بأعينهم بينما ينحنى الشيخ المتهدم «نبهان» على المجروح ويداويه برش التراب فى فتحة كل جرح ، وتهرول النساء حاملة الماء لغسل الدماء ونثر نقط الماء فوق فوهة الهاوية . وهناك يعمد شاهين إلى شجرة التوت ، ويبدأ بقطعها فتردد الأودية وقع ضربة الفأس ويهرع ثلاثة من الكهول ويأخذون الفأس من المجرم .. المجرم الذى يقطع شجرة زرعها جده ورواها بعرق جبينه وبقطرات من دم قلبه . وينظر الجريح إلى هذا المشهد فيستنكره ويقول بحزم :

— دعوه يقطع الشجرة اللعينة !

ولكن الجمهور لايعير هذا الهذيان اهتماماً .. وتسلم التوتة المجروحة .

وقد أصبحت التوتة فيما بعد وقفاً على دير وما زال قسيس يصلى يوماً فى كل سنة على روح الواقفين وأجدادهم .

بقى الحق العام .. وهو مثل القطة التى قالت للمتخاصمين على قطعة الجبن : إن أنتما رضيتما فالعدل لايرضى .

نسيب وهيبة الخازن

القوة في يد الأسياد

« إننا نفتقر إلى من يتسلط ويأمر ويسن الشرائع »
« الأجيال » للمؤلف

كانت نائلة زوجة شاهين ملكة فى جمالها ، وقد زادها رونقاً ذاك الطرطور المذهب الذى يكلل رأسها فى الأعياد ، ويتطاول بجماله الجرىء متحدياً نظام الطبقات ، كما تحدت نائلة أخرى ، ملكة تدمر ، عظمة روما الجبارة . ولذا بات شاهين بعد غارته بغير ناصر ولا مجير .

بقى لشاهين أمل فى مخدومه رئيس الدير فهو وحده يستطيع أن يؤيده ، وشاهين مكارى الدير ، وبغال شاهين مخصصة لخدمة الدير وحده . . والبغلة المطهمة ركوبة الرئيس . . والرئيس قد شاهد مراحل القتال العنيف من مقعده الحجرى المشرف حيث تفرش السجادة ويجلس الرئيس على طراحة ويتكىء على مسند تحت السنديانة التاريخية ، والرئيس يعجب بالشجاعة ولو أنه يجتهد فى إخفاء هذا الإعجاب الدنيوى تحت وقار قلنسوته . والسلطة الدينية تستطيع أن تلين سلطة المشايخ ، ولكن شاهين لايدرى أن رجال الدين الذين نصحوه فى أمر بهرجة نائلة لن يردوا عنه ضربات الغضب .

تشجع شاهين واقترب بحمله من الدير لعله يظفر بابتسامة خفية من الرئيس وبتشجيع ضمنى . ولكن الرئيس الحريص قد

غادر مقعده وفتح كتاب صلواته وأخذ يزرع « الحوش » الخارجى ذهاباً وإياباً . ومتى اتخذ الكاهن هذا الموقف ، وتدثر بثوب مناجاة الرب ، فليس على المؤمن إلا أن ينحنى قليلا ويتمتم بتحية «المجد لله» وقد يضيف إليها عندما يكون ضليعاً باللغة السريانية أو متطفلا عليها « بارخ مور » ومعنى الكلمتين ليس مفهوماً عند الجمهور ، ولاعند شاهين مع قربهما من العربية « فبارخ » هى بارك و« مور » شقيقة « امرؤ » وهو الرجل أو السيد .

وإذا وجه المؤمن هذه التحية فليس على الكاهن سوى إحناء الرأس متى كان فى الصلاة . أما فى أوقات الفراغ فقد يجيب الكاهن بكلمة « دايمان » (دائماً) وذلك رداً على كلمتى المجد لله . أما الرد على كلمتى بارخ مور فهو « الله يبارك عليك » !

أرسل شاهين بالطبع تلك التحية البسيطة الوادعة « المجد لله » وأحنى الرئيس رأسه . واكتفى شاهين بهذا الرد الاصطلاحى ، وفهم أن الرئيس لايريد التدخل فى أمر الواقعة . . إذ المعروف أن لكل قسيس أن يضع « العلام » على الصفحة التى بلغها من كتاب صلواته وأن يتحدث بما يشاء . . وليس أسهل من غلق الكتاب على الجلد الواسع الذى يحمى الغلاف . . والأسهل من ذلك أن يدخل المصلى طرف « قيطانة » هذا الجلد المتدلاة بين صفحتين . .

الرئيس لايريد الخروج عن سياسته العليا . إذن فليبحث شاهين بين جمهور الرهبان عن نصير غير ذى مسؤولية . . ولكن الرهبان ليسوا — على ما يبدو للمكارى — أقل حرصاً من رئيسهم

فقد التزموا إزاء خادمهم الضارب المعتدى خطة الحياد المطلق . .

نفض بعضهم يده مؤثراً راحة البال وقال : يا شاهين نحن تركنا العالم لنستريح ! ولم يكتف بهذا آخرون بل أضافوا بلهجة النصح : « إن تصلبك وأنفتك قد حرماك أبناء عمك كما أفقداك من قبل كل صديق . قال آخرون : « إن من ينتهك حمى كليب لايفعل ذلك بغير عشرة من الأخوة » . وأعجب تلميذ منهم بشجاعة « جساس » الجديد ولكنه هلع للعواقب

وقام راهب مسن يبسط الموقف :

(أولا) الخلاف على « التوتة » خلاف متشعب الأطراف . لقد عجز المساحون والمقدرون عن حسمه لأن « حجج » القسمة مطموسة منذ « دلف » سقف بيت شاهين تحت وابل الأمطار وانكسرت فيه خشبة تحت ثقل الثلوج والجليد . . تلك كانت سنة سوداء اختار الله شتاءها قصاصاً . . وعندما ذاب الثلج انهارت المياه من « قوافع » كثيرة فى السقف وكاد البناء ينهار لولا « العوتة » التى فرضها كاهن الرعية والتى هب فيها لنجدة شاهين جميع شبان القرية كعادتهم عند طلب العون . انهارت المياه وسقطت على « المشاقيع » وكانت الحجة بين أطباق القز المشقوعة فغمرتها مياه السقف السوداء من دخان « الوصالى » وطمست حبر الحجة وهو مصنوع من المادة عينها . أى من الدخان المنعقد .

(ثانياً) كان من رأيى أن تقسم مع أبناء عمك غلة الشجرة فى كل سنة وأن « ينكشها » فى كل سنة أحدكم بالتناوب تحت إشراف رئيس الدير أو الناظر .

(ثالثاً) الضرب والطعن بين الرجال كاللعب بين الأولاد . هذا لايهم . أذن تضيع أو عين تنقص أو تزيد . هذا شيء يسير ما دامت الأملاك محفوظة والتوتة التى زرعها جدكم قائمة وغلتها رزقاً لكم .

(رابعاً) أما النكبة فمن النساء . . (وهنا استطال الكلام عن حواء وعن دليلة خاصة . دليلة التى أضاعت شمشون الجبار) ومن حواء ودليله تسلسل شر المرأة إلى أم طانيوس وقال الأب الوقور بجلال لايدع لاستئناف الحكم مجالا :

— « نائلة » زوجتك (ولم يقل أم طانيوس تحقيراً لها) نائلة رأس المعاصى . وأصل النكبة من طرطور نائلة . . .

— شاهين مرهف الإحساس فيما يتعلق بزوجته — شأن كل جبار — ولم يسعه هنا إلا أن يقاطع بحدة . . ثم تذكر ابتعاد الناس عنه ووحدته فى محنته فاعتذر بأن الطرطور هدية من والدة إبرهيم أرسلتها من دمياط وأن لاذنب له ولا لزوجته فى قبول الهدية . . وهل يعيدها إلى دمياط ؟

— ولكن الراهب العجوز استمر فى بسط الموقف : هذا عذر أقبح من ذنب ! إن الطرطور البلدى قد يغتفر ولكن الطرطور المصرى « المدميط »؟ ! . . يا شاهين ! . يا حيف عليك ! ألا تعلم أن المرأة أصل الغواية وأن تجملها يغضب الخالق ويثير النزوات والآثام .

ألا تعلم أن الله قد قسم الأرزاق ووضع كل إنسان فى منزلة ؟

أيليق بزوجتك أن تنفرد بين النساء بمظاهر التبرج والتبذير ؟ ألا ترى حولك وقار الأغنياء وحشمة الفقراء ؟

هناك رجال استقدمونا من بلاد الهجرة والذل إلى عز جبال كسروان ، وأقطعوا لنا الأملاك وأوقفوا الأموال الطائلة على المدارس والمعابد . وهم يقودوننا إلى الدفاع عن حياضنا . فهل يقوم للجسم قائمة بغير رأس ؟ إن يوماً نفقد فيه روح النظام والرياسة ونخلع قوادنا من مقدمة صفوفنا هو يوم نسام فيه الذل ونساق إلى المذابح من قوم أطاعوا رؤساءهم وأولى الأمر منهم .

لم يعر الراهب أن حياة الخلوة والسكينة قد قدرت له أن يتنبأ بما سيكون بعد ستين عاماً . . . .

ولم يعد الواعظ النازع إلى البلاغة موضوعه الاجتماعى السياسى أكثر من هذه اللفتة .

ذلك أن سجيته تنطلق وبيانه يتجلى دائماً فى باب آخر ، هو باب « المرأة » الذى تعود أن يطرقه فى جميع عظاته بلا استثناء ، وأن يلجه دائماً عندما يتلعثم فى عظة أو يتعسر عليه موضوع ، وأن ينهى به مواعظه ببراعة ولمعان . وهو يكلل حديثه بهذا إذ يقول :

— أنت تفهم هذا يا شاهين ولكن . . . ولكن النكبة من المرأة ، والمرأة دائماً أبداً نازعة إلى النهور وإلى الاستهتار .

ثم يستعين الخطيب بينبوع التوراة الغزير فيخرج الكتاب ويقرأ :

« الفصل الثالث من نبوءة أشعيا اصحاح ١٦ إلى ٣٦ :

« إذ قد اختالت بنات صهيون فيمشين متلعات الأعناق

غامزات بالعيون يمشين ويقاربن الخطو ويجلجلن بخلاخل أقدامهن فسيصلع السيد هاماتهن ويعرى سوءاتهن .. ويزيل الخلاخل والأهداب والأهلة والعصائب والتيجان .. ويكون لهن النتن بدل الطيب .. ويسقط الرجال بالسيف والأبطال فى القتال .. وتئن الأبواب نائحة وتضحى المدينة خاوية لاطئة بالأرض » .

وسمع شاهين الآيات الرهيبة فذعر وكره زوجته .. واستمر كرهه من باب الدير إلى عتبة البيت .

نسيب وهيبة الخازن

الهجرة

« إذا لم يكن غير الأسنة مركباً
فما حاجة المضطر إلا ركوبها »
مثل عربى

فكر شاهين ملياً ، وفهم أن الحياة فى بلدته أصبحت عبئاً ثقيلا ، وقد تنحى مخدوموه الرهبان عنه ، وبات من غير معين . . . وما أن بلغ عتبة داره حتى ابتدرته زوجته نائلة حاملة إليه نبأ الفجيعة : « إن ابن عمك فى ساعته الأخيرة » .

زادت حيرة شاهين وتفاقم اضترابه ، ولكنه ما لبث أن أصدر أمره : « سنرحل هذه الليلة . أنا أسبقكم إلى بيروت ، وأنتظركم فى منزل صديقنا الحاج محمد البطرونى . حملى البغلة ، والحقى بى مع الأولاد فى الليل . . . أتركى كل شىء ولا تحملى إلا ملابسك وملابس منيرة والحلى . . . ولا تتأخرى » .

حزم شاهين بعض الأمتعة الثمينة وحملها على ظهره وهبط بيروت فى تلك الليلة الظلماء مشياً على قدميه ، فكانت الحصى تتطاير من تحت « مداسه » المرصع بالمسامير كأنها شرر النار تحت مطرقة الحداد ، فتحدث ضجة يقلق رجعها سكينة الوادى ، ويعكر صفو تأملها المبطن بالأسرار .

استيقظت الزوجة قبل طلوع الفجر ، وسرت مع منيرة إلى

بيروت فوصلتا إلى نهر الكلب عند الساعة التاسعة صباحاً . كان التأثر والتعب قد أخذا مأخذهما من منيرة فجلستا تحت شجرة تبكيان حظهما العاثر ، وتقول منيرة : « متى نعود إلى الضيعة » ! فتطرق الأم وتهمل سؤالها ثم تشجعها على احتمال شدائد الحياة .

فى بيروت استقبل الحاج ضيوفه بالترحاب ، وخفف بكلماته العذبة عنهم الأحزان ، والتفت إليهم قائلا :

— « إنكم اليوم جميعاً فى أمان . غداً قبل أن يعرف أحد سركم تسافرون إلى دمياط » .

طوت منيرة ما بقى من النهار بعد الغداء فى النوم ، لأن السفر قد نهك قواها . أما الوالدة فقد استراحت قليلا ثم شرعت فى إعداد مستلزمات السفر بمساعدة شاهين الذى ذهب إلى السوق وباع البغلة وحلى الزوجة ، فوصلت ثروته إلى الثمانين ليرة ذهبية . وكان هذا القدر من المال فى ذاك الزمان ذا قيمة كبيرة .

كان لمنيرة من العمر ثلاثة عشر عاماً ، وكانت مثالا للأدب والحياء والذكاء ، تملك فوق ذلك جمالا بارعاً ، وصوتاً رخماً . وحساً مرهفاً . ولما استيقظت عند الصباح الباكر جلست على مقعد فى الشرفة مستغرقة فى الحزن والبكاء !

التفتت يمنة فلم تر غابة السنديان التى كانت أنيسها فى ساعات فراغها تسكب فيها ألحانها المنبعثة من أعذب الأغانى اللبنانية ، فيختلط رنين صوتها بزقزقة العصافير وأغاريد الشحارير !

وحولت نظرها يساراً فلم يقع على الوادى الرهيب الذى كان

ينبسط تحت قدميها كأنه أسرار البشرية الغالية فى صدور العصور !

وحدقت إلى الجهة الشرقية ، فاصطدم لحظها لأول وهلة بحوش من أحواش بيروت المظلمة ، إلا أنه واصل امتداده حتى اكتحل بجمال صنين الذى بان أمامها كأنه مارد راعب ينطح بقمة رأسه البيضاء زرقة السماء !

أما من الناحية الغربية فانها قد اقتربت من الأفيح الأزرق . وبعد أن كانت تراه من روابى بلدتها صفحة هادئة لاحول لها ولا قوة ، أصبحت اليوم تسمع فقش أمواجه ، وتستنشق هواءه البليل . غير أن ذلك لم يخفف عنها حزنها لأنها عشقت جمال الجبال ، وجلال الجبال ، وقوة الجبال منذ نعومة أظفارها بل زاد فى شجونها واكتئابها وغرقها فى لجة من الأحزان لا قرار لها .

صحا سكان البيت من نومهم ، وكل يجرى إلى عمل : شاهين يحزم المتاع ، وزوجته تجهز الزاد ، وأم أحمد تعد الإفطار ، وأولاد الحاج مسترسلون فى الهرج والمرج ، والحاج يتنقل من من شرفة إلى شرفة ويقول : « يا فتاح ياكريم ، يا رزاق يا عليم » إلى أن وصل إلى الشرفة حيث تجلس منيرة فأخذ يشجعها ، ويصف لها جمال مدينة دمياط ، ويصور لها كيف أنها ستعيش هناك بعيدة عن المشاكسات الحزبية ، والاختلافات الأهلية . فتنفست الفتاة الصعداء ، وتذكرت أن ابن عمها كان يرشقها بالحجارة إذا هى لم تطع له إشارة فى أثناء اللعب ، ففرحت لأنها ستكون بمنجى من مرمى حجارته .

حان موعد الإفطار ، فدعا الحاج ضيوفه إلى الطعام ، وجلس على طراحة حول مائدة خشبية مستديرة قصيرة القوائم ، وهكذا فعل كل واحد من ضيوفه ، فأكل الجميع بشهية إلا شاهين الذى كان يكرر سرد قصته ، ويتوقف عند كل مقطع ثم يقول : « بضربة واحدة خسرت كل شىء » وقد أصبحت الجملة لازمة عند صاحبنا . ونضيف : « وبكلمة واحدة خسرت الوطن » .

بعد الإفطار قال شاهين للحاج :

— يا عم محمد . كنت صديقاً حميما لوالدى ، وأنقذته من عدة مشاكل . فلى رجاء عندك وهو أن تكلف نفسك مشقة السفر إلى بلدتنا ، وأن تدفع فى جونية على طريقك هذه الذهبيات العشر إلى « المغربل » فقد نقلت من مخزنه هذه السنة عشرين طحنة لنا وللدير ، وموسم الدفع ، موسم القزان يكون لى . أما فى عشقوت فأرجو منك أن تقول لابن عمى أن الدم لايصير ماء ثم سلم إليهما أرزاقى تسليما شرعياً دية شقيقهما ، وبلغهما أننى سافرت إلى حلب مع أهل بيتى وأننى أطلب منهما الصفح والغفران .

أجابه الحاج « إنى لك يا شاهين بمنزلة الوالد . سر على بركة الله . وأنا منفذ رغبتك بإذن الله .

جاءت العربتان ، فحمل شاهين إليهما لفات الملابس وما هم بحاجة إليه فى السفر من مأكل ومشرب ، ووضع كل ذلك فى عربة ، ثم ودع مع أهل بيته الحاج محمد وأسرته ، وبكوا بكاء مراً وركبوا ، فرافقهما الحاج بأنظاره حتى توارت العربتان عنه .

الأب بولس مسعد

بين الماء والسماء

« الاتفاق يصير صغائر الأشياء عظيمة وزاهرة ،
أما التنازع فيدمر أبهاها وأجلها »
حكمة لاتينية

المركب جديد نظيف ، والبحر صافى الأديم يتماوج فى رقة ودلال كأنه أرجوحة الأثير بين أنامل جبابرة فى غيب غير معلوم ، والرئيس جبور شيخ العرب يفتل شاربيه ، ويشتم من رجاله من يبطىء فى إداء عمله . وفى الموعد المضروب أدار الرئيس الدفة فمخر المركب العباب بسرعة ، لأن الهواء كان ملائماً للسير .

كان المسافرون فى تلك الباخرة الصغيرة أشبه بفكرة تائهة بين العاطفة والخيال ، وكأن الشاعر قد عناهم بقوله :

ما الفرق فى نومى وفى يقظتى
وكل ما فى يقظـــــــاتى رؤى

فى تلك الأثناء استجمع شاهين أفكاره ، وحاول ضبط دموعه فلم يقدر فالتفت إلى زوجته وقال لها :

— ما رأيك يا امرأة ؟ أنعود يوماً إلى بلادنا ؟

— لاأمل لنا فى العودة ما لم يبتسم لك الحظ فتحرز مالاوافراً

وجنحت بصاحبنا مخيلته إلى ذلك الحادث المشؤوم فقال :

« لعن الله ساعة التجربة ! من يدرى ما يخبئه القدر لنا ؟ لا . . . هكذا قدر الله ! ... سأعود إلى الوطن أو يعود طانيوس بعدى ! ... »

هزت الزوجة رأسها وقالت بصوت خافت :

« ألهمك الله الحلم يا شاهين . . . لو كررت غضبك فى دمياط فالى أين نذهب ؟ » .

ثم ذرفت الدموع الحرى لدى تذكرها والدتها وأخوتها وشقيقاتها وأقاربها وموسم القز الذى كاد يشارف القطاف . وزاد نحيبها لما التفتت إليها منيرة قائلة لها : « من يعتنى اليوم فى القز يا أمى ؟ ولمن تكون أكلة الحلاوة ؟ » .

وجلست منيرة فى ناحية منفردة من المركب ، وأخذت تتمتم كلمات هى مزيج من عاطفتها وقطع من أغانى الجبال ، لو صاغها كاتب قدير بأسلوب فنى لخرجت من قلمه قطعة رائعة تضاهى تلك الروائع الفنية التى تركها الفنان الأيطالى ميكال انجلو :

أعرفتم الجمال النبيـــل ؟ إنه جمال جبـــالى
أرأيتم المشهد الجليـــل ؟ إنه مشهد جبـــالى
أشهدتم التنوع الجزيل ؟ إنه تنوع جبـــالى
أخبرتم المجـــد الأثيل ؟ إنه مجد جبـــالى

• • •

يا جبالى الشماء ، يا جبالى الجرداء ، يا جبالى الشجراء ، يا جبالى !

لكم ساجلتك فى الأحلام ، وكم ناديتك فى الأسقام ، وكم تثيرين فى الضرام ،

يا جبالى !

تتساندين فيما بينك كأذرعة متحابة ،
فكأنك حلقة فتانة من الكائنات ، أنت ،
وتتهادين ، دون حراك ، مرة فى صعود ، ومرة فى تحدر ،
لتكونى من ذواتك حلقة كريمة حول زعيمك صنين .

• • •

لا شىء فى تكوينك يبدو نافراً مزعجاً ،
خطوطك الطويلة متناسقة كظهور الحور ،
واستدارة قممك دروس تلقى على نشيد الأبراج ،
والشقوق الطويلة المتحدرة من أعاليك إلى أغوار الوادى ،
إنما تعرض مظهراً من قوة فعل العناصر !
مرة تبدين حلقة حول صنين ،
ومرة تخالين أيدياً يشير بها صنين شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً ،
ومرة تظهرين بمظهر الطائع المستعد لخدمة صنين ،
يحمل روائع حكمته إلى الأقاصى السحيقة ،

• • •

ومرة تبدين جامدة عاكفة على التأمل ،
حيال عجائب البحر ، وحيال أسرار الوادى ،
حيال مشهد الشمس عندما يسرح موكبها فى الأفق ،
وحيال معجزات الصحو والشتاء فى مختلف الفصول .

• • •

ألفت ملايين الأشكال وملايين الأصباغ فى الغيوم ،

منذ أن تعاليت فوق سطح البحر قبل ألوف الأعوام ،
أتدركين ما لك من جمال ؟ أو يدرك الجمال نفسه ؟
بل أنت تهزأين بكل ذلك، وتعتكفين على نشاط الفلاح وتتعطرين بعرقه .

• • •

ما ضرب الفلاح فيك معولا إلا نرنحت الحياة فى أعطافك ،
ولا ألقى فيك بذراً إلا ضممته إلى القوة المولدة فى أحشائك ،
ولا غرس فيك غرساً إلا هيأت له النمو بين أفضالك ،
ولا سعى فيك زرعاً إلا ضمنت له شهى الجنى ،
ولا طرح فى أنحائك صوتاً إلا لبى من كل ناحية الصدى !

• • •

النازح عن وطنه بملء حريته يبكى ويتألم ،
والمفلسخ عن أرض أبائه وجدوده بالعنف ماذا يفعل ؟
إنه لا يرى غير الظلام ،
فيعزى نفسه بألفاظ بلهاء ويردد بالدموع السخينة :
الوداع يا جبالى الشجراء !
الوداع يا جبالى الجرداء !
الوداع يا جبالى الشماء !
الوداع يا جبالى !
كانت منيرة مسترسلة فى هذه الأفكار الكئيبة ، ووالدتها غارقة فى شبه غيبوبة وذهول . أما شاهين فقد عادت به الذكرى

إلى كروم العنب ، وحديقة الفاكهة ، وغابة السنديان و « عودة » التوت ، وبيته العزيز على قلبه وقال فى نفسه :

« إننى فى ساعة سوداء خسرت كل ذلك ، وخسرت فوق ذلك سعادة امرأتى وفتاتى . فها منيرة شاحبة اللون ، كالذبت السقيم ينقل فى غير أوانه ، وزوجتى شاردة الفكر بعد أن خربت عشها ! رباه ما ذا أصنع ؟ رباه ما ذا أصنع ؟ » .

والرجل ينسى الضرب سواء صدر منه أو عليه ، وقد ينسى الإثم والجريمة ولكنه لا يغتفر الظلم الصامت والعداء المتربص .

حفزت هذه الذكريات نشاط شاهين فأراد أن يكون قوياً بماله . وشحذت هذه الرغبة ذاكرته فتمثل حياة ابن خاله ونزوحه منذ عشر سنوات إلى مدينة طنطا حيث تعاطى تجارة الدخان ، وجمع ثروة طائلة ، ورجع إلى مسقط رأسه موفور الكرامة ، فاشترى الأراضى ، وبنى لنفسه مجداً بين أقرانه .

وأثرت هذه الصورة فى نفس شاهين فقال فى نفسه : « لا . ليس ابن خالى أرجح منى عقلا ، ولا هو أقوى منى عزيمة ، ولا أصلب عوداً ، أرادت الأقدار أن أغادر وطنى مرغماً ، ولكننى سأفيد من هذه الفرصة ، وسأجمع مالا وافراً ، وأعود إلى بلادى بعد عشرين عاماً غنياً أطوى الباقى من سنى عمرى تحت سمائها الزرقاء أعمل على نشر الحرية . . . إننى لا أزال فى عز رجولتى فعلى أن أكافح وأجالد ، ولا شك بأن الفوز يكون أليفى ، والتوفيق حليفى » .

وفيما كانت هذه الأسرة على تلك الحالة المضعضعة ، كانت جبال لبنان تتوارى عن الأنظار شيئاً فشيئاً كأنها قمر اعتراه المحاق . فلم يبق أمام منيرة إلا البحر بأمواجه الهادئة ، ونسيمه العليل ، والسماء بقمرها المتلألىء ونجومها الزواهر . حاول الرئيس جبور شيخ العرب ورجاله بعد أن أكلوا وشربوا القهوة أن يدفعوا الهم والغم عن شاهين وأسرته بأحاديثهم المسلية ونكاتهم المستملحة فلم ينجحوا إلا بمقدار زهيد .

وباتت منيرة موثرة العزلة طول أيام سفرها حتى أثار تصرفها سائر نزلاء المركب ، فكانوا يلاطفونها ويحاولون إضحاكها ، ويقدمون لها أطيب المآكل ، ويقصون عليها النوادر ، ويمثل أمامها شيخ العرب وملاحو المركب دور جحا مع أولاده . إلا أن ذلك كله زاد فى ذهولها ووحشتها .

وقد كان لحضور هذه الأسرة إلى دمياط أثر عظيم فى حياة القس يوسف والشيخ مصطفى ، ولذا نرى الراهب قد كتب بتطويل قصتها ، وأنهى هذا الفصل بالعبارة الآتية : « المركب غادر بيروت فى عشرة يونيو ووصل إلى دمياط فى سبعة وعشرين » سبعة عشر يوماً كأنها حلم بين السماء والماء .

الاب بولس مسعد

البارجة

« ولو كان هما واحداً لاحتملته
ولـكنه هم وثان وثالث »
شاعر

بدأ فصل جديد من تأريخ أسرة شاهين فى مذكرات القسيس نقتطف منه ما يهم القارىء :

بدت مدينة دمياط كالبيت المهجور . سأل شيخ العرب عن السبب فقيل له : إن الطاعون يحصد الناس حصداً ، والأحياء منهم لايتركون منازلهم إلا للضرورة القصوى ، ولا يقدرون على العمل من الضعف والخوف ...

عندئذ عقد صاحب المركب العزيمة على الإقلاع من دمياط مسدياً النصح لشاهين وأسرته ليسافروا معه إلى الاسكندرية . فقال الرجل :

— الله أرسلنى إلى دمياط ، وأنا أريد إطاعته مهما كانت النتائج .

— إن كنت لاتشفق على نفسك ، فارأف على الأقل بزوجك وابنتك إنهما أجمل من فلقة الصبح .

— قلبى يقول لى : انزل هنا . مهما برهنت لى لن أغير عزمى . ولست ظالماً نفسى إذا شاطرت الأب يوسف والشيخ

مصطفى ما هما به . وإنني أدعوك إلى زيارتنا عندما تعود من سفرك .

قبل أن يغادر شاهين المركب قص عليه الرئيس ما كان يعرفه مما تلى عليه من رسائل الأب يوسف والشيخ مصطفى . قال المركبي :

« إنني منذ عشرين عاماً أعرج على هذه المدينة مرتين أو ثلاثاً في السنة ، وأنقل إليها الزيتون والزيت وقمر الدين واللوز والدبس وسائر أنواع الغلال الشامية . وقد تعرفت في هذه المدينة إلى أعيان الجالية ، وإلى التجار الكبار منهم ، وتحققت أن عددهم لا يزيد على ألف نسمة ، إنما هم مشهورون بالصدق والاستقامة وحب المغامرة ، وقد اكتسب كثيرون منهم ثروات طائلة . وبما أن الحكام لم يسمحوا لهم ببناء كنيسة فإنهم قد استأجروا منزلا يسمى « البارجة » وأقاموا فيه معبداً » .

— هذا ما أعرفه ولكن أنحن بعيدون عن البارجة ؟ .

— إنها لا تبعد أكثر من ثلاثمئة ذراع . أنظر هذا الشارع المحاذي النيل ، سر فيه إلى نهايته ثم انعطف إلى الشمال ، وامش مئة ذراع تصل إلى البارجة . . . لا تنس السلام على الأب يوسف اللطيف ، واذكر للشيخ مصطفى أنني سأوافيه تباعاً بأخبار ابنه ، فكتابة رئيس الدير وحدها لا تشفي غليلا .

ودع شاهين وأسرته شيخ العرب ورجاله وركاب المركب ، وساروا على الطريق المؤدي إلى البارجة .

كانت تلم الشمس تبرها المتناثر لتدخره للغد . وكان الناس

و اقفين فى نوافذ منازلهم ، وعلى شرفات بيوتهم يتأملون مصائرهم ويفكرون فيما يخبئه المستقبل لهم .

وكان شاهين وأهل بيته يسيرون على الطريق غير مبالين بالوباء وأهواله ، فاندهش الناس وقالوا :

« أفى الدنيا من له هذه الشجاعة ؟ حقاً إن هؤلاء المارة ليسوا من مدينتنا ! ألم يسمعوا بأخبار الطاعون الفتاك ؟ »

كان الرجل حاملا على ظهره كيساً كبيراً ، وجاداً فى مشيه لايلتفت يمنة أو يسرة . وكانت الزوجة رافعة على كتفها اليمنى بقجة ثقيلة أورثتها اللهاث المضنى ، ومنيرة تتأبط لفة . والجميع مسرعون باطمئنان وجد .

وصل شاهين على رأس أسرته إلى مدخل البارجة ، فأنزل الكيس عن كتفه ورماه على الأرض ، بينما كانت زوجته تضع حملها برفق على مقربة منها ، ومنيرة تجلس على الصرة .

كانت البارجة سلسلة من المبانى العربية المستديرة الشكل ، مستقلة بأبوابها ، وملتصقة بجدرانها . وفى الوسط ساحة فسيحة يقوم فى نصفها منزل مؤلف من طابقين ، وفى المنزل عدة غرف وسيعة .

وكان هذا البناء مقسوماً بين الأب يوسف ورفيقه والكنيسة ، من جهة والشيخ مصطفى وأهل بيته من جهة أخرى . وكان كل قسم منفصلا عن الآخر بأبوابه ، ونوافذه ، ومدخله الرسمى ،

أما تلك الغرف المزروعة حول بناء البارجة الرئيسى فكان أبونا يوسف يقدمها للفقراء واللاجئين إليه فى الملمات .

أمام ذاك البناء الضخم وقف شاهين مع أسرته بجانب الأمتعة لايعرف أى باب يطرقه . وإذ كان حائراً فى أمره فكر فى أن يقرع الرتاج الكبير متذكراً أن الأديار فى لبنان لها أمثال ذلك . ولا شك أن الكاهن اللبنانى فى دمياط يسير على غرار الكهنة فى لبنان .

عندئذ دنا شاهين من الرتاج ، وقرعه بشدة مدة تزيد على عشر دقائق إلى أن سمع الخادم بنايوتى القرع ، فهرع إلى الباب يفتحه ظناً منه أن أحد المرضى يريد كاهناً يوليه الأسرار الأخيرة . فدهش لما شاهد شاهين وأهل بيته حيارى وسألهم :

— من تريدون ؟

— نريد مقابلة الأب يوسف .

زالت دهشة الخادم لما سمع الرجل يتلفظ باسم سيده ، وأدخله فناء البارجة مع أسرته ، وأجلسهم على مقاعد خشبية مسمرة فى الجدار يجلس عليها المصلون بعد خروجهم من الكنيسة ثم عاد أدراجه يدعو الكاهن لمقابلة ضيوفه .

وافاهم الكاهن بشيبته ، فقبلوا يده ، وبادلهم التحيات ببشاشة ولطف ، ثم أظهر لهم تهورهم فى شخوصهم إلى دمياط فى أثناء ذاك الوباء الفظيع وقال لهم :

— لماذا تركتم البلاد بهذه السرعة وماحل بكم ؟ وكيف أحوال إبراهيم وأين هو ؟

قص شاهين عليه قصته المحزنة ، فهز رأسه بحسرة وتفهم ثم عزى شاهين وشجعه على الصبر . وأوصاه بالاتكال على الله تعالى وقال له :

— إنني أقدم لكم مسكناً مريحاً ونظيفاً لتعيشوا فيه حتى يمن الله علينا بالفرج ، ويرد عنا هذا الغضب الذى استأهلناه بخطايانا . وإنني مستعد أن أساعدكم فى كل ما تحتاجون إليه .

وماكاد الراهب يتم حديثه حتى نادى بنايوتى ليعد لهم مسكنهم الجديد .

الأب بولس مسعد

عدل التاريخ

« التاريخ معلم الحياة »
مثل لاتينى

إنها لحرب حامية الوطيس بين التاريخ والزمان منذ أن انبثق الدهر من جوف الأزل ؛ تتدافع الأحداث على مسرح الوجود كأنها أمواج زاخرة ثم تتوارى فى طى النسيان إلى أن ينبرى من يحطم أبواب المعقل ، معقل التاريخ ، ويفرج عن أسيراته السنوات بعد أن ينفخ فيها روح الحياة ، فاذا بالأحداث تبعث من جديد ساعية بين الأحياء لتناصب الزمان العداء ، وتصليه حرباً شعواء !

على الأرض ديان واحد عادل للزمان والبشر هو التاريخ الصحيح . وبقدر ما تذيق الأحداث البشر من أهوال العذاب وألوان الحرمان ، تتفاقم نقمة الإنسان على الزمان . فتارة يلعنه ، وطوراً يتملقه ، وحيناً يعيش غير مبال به . . . إلا أن التحرر من الزمان محال ، لأننا فيه نولد ونعيش ونموت ، والتاريخ يسرد وقائع مولدنا وحياتنا وموتنا ، فالهرب من محكمته محال .

بعد القفلة عرف شاهين الشيخ مصطفى وأهل بيته ، ووجد كل فى صاحبه رجولة وشهامة وخلقاً متيناً . وكانت أحاديثهما تتناول فيما تتناول شؤون الزراعة التى تجمع وتؤلف بين الناس قاطبة منذ خلق الإنسان . وشاهين دائم الاندفاع كما عهدناه . أما فى الزراعة فمجال اندفاعه واحد محصور فى زراعة شجر التوت .

فهو لايؤمن إلا بمحصوله ، ولا يرى الأرض وظيفة إلا فى إنباته ، وأخلاق شاهين فى ذلك أخلاق كل مبتكر . وهى التى قادته إلى السبق فى إنتاج الحرير فى الأقطار المصرية قبل أن يأتى محمدعلى الكبير برجال من بلدة الزوق اللبنانية لنشر هذه الزراعة فى وادى النيل ، ولتوسيع صناعة الحرير .

أشرف شهر يوليو على النهاية ، فخفت وطأة الوباء تدريجياً ، وأخذ الناس يتنفسون الصعداء . ثم مضت بضعة أيام من أغسطس ، ولم تحدث أية إصابة بين السكان ففرحوا وشكروا الله على لطفه بعباده ، وعادوا إلى مزاولة أعمالهم بعد ركود طويل كما عاد الأطفال إلى ألعابهم ومرحهم بعد أسر أليم .

منيرة لاتخرج من ساحة البارجة ، ولا تلعب إلا مع أولاد الشيخ . وقد أعجبت حرمه بحياء الفتاة وذكائها ودماثة طباعها . وراحت مثل كل أم تبنى القصور الشاهقة حول زواج ابنها إبرهيم بمنيرة . وهم الكنة على كل والدة أكبر الهموم . فكل أم تبتهج وتهلل لزواج بكرها ، ولكنها تخشى مزاحمة زوجته على قلب الإبن وعلى إدارة البيت . وقد تسرعت أم إبرهيم فى اختيار منيرة شأن الأمهات تجاه مثل هذه الفتاة الوادعة .

وفى يوم بلغ صبر أم إبرهيم أقصاه ، وباتت لاتطيق السكوت والانتظار ففاتحت زوجها بالأمر ، ولكن الشيخ الوقور هز برأسه وأرسل ضحكة بمثل : « يا أم إبرهيم أراك أحضرت اللجام قبل الجواد » .

كان شيخ البلد أى حاكم مصر إبرهيم بك وأمير اللواء مراد بك . وكانا من الجهل والاستبداد والتعسف فى المكان الأعلى . وقد ظلما الرعية ظلماً فادحاً حتى كان عهدهما من أدكن العهود التى مرت بوادى النيل . وزادا الطين بلة فى إنزالهما السخرة بالناس ، وفرضهما الضرائب الباهظة على المكلفين ، وتفرقتهما بين أبناء الوطن الواحد باثارتهما النعرات الدينية ، والفواصل المذهبية وقد اضطهدوا المسلمين بحجة الإخلاص للباب العالى كما ظلما المسيحيين باسم الدين الإسلامى . والدين برىء من آثامهما .

إلا أن إكليل أعمالها هذه الشنعاء هو تلك الجريمة التى استمطرت عليهما اللعنات من المسلمين قبل المسيحيين ، وكانت نذيراً لنهاية حكمهما الظالم . فصحت فيهما حكمة الشاعر العربى القائل : « وما ظالم إلا سيبلى بأظلم » .

وهاك ما قصه الأب يوسف من هذه المحنة الأولى :

« كان القسيس فى الخامس عشر عن أغسطس يتلو القداس الحافل فى معبد البارجة إكراماً لعيد انتقال العذراء . وكانت الكنيسة مكتظة بجمهور المصلين . وكان الشمامسة قد انتهوا من ترتيل مزمور باركوا الرب كل حين . والكاهن شرع فى صلاة ختام القداس . وإذا بحسن آغا البواب على رأس قوة حكومية يدخل حوش البارجة فيدب الذعر فى قلوب النساء والأطفال ، ويستولى الذهول على عقول الرجال . أما القسيس فظل يتمم صلاته كأنه لم يحدث أى شىء يستحق الالتفات . واتخذ قوم من الرعاع هذه الفرصة وهاجموا

البارجة من كل ناحية ، وأعملوا فيها يد النهب والسلب والتكسير والتخريب ، فعلا الصراخ وساد الهرج والمرج بين المصلين .

خرج القسيس من الكنيسة فدنا حسن آغا منه وأوثقه بالحبال ، وقبض الجند على عشرة من وجهاء الملة وعلى الكهنة الآخرين ، وقادوهم فى الشوارع مهانين إلى ظلمات السجون .

ثم فرض على نصارى دمياط عموماً ضرائب عجزوا عن دفعها ، وحظر عليهم إقامة شعائرهم الدينية حتى لم يبق من يجرؤ على التظاهر بمعتقده ، فصاروا يجتمعون بطريقة سرية فى بيوت مجهولة لإتمام فروضهم الدينية .

وبينما كان الجند يعملون العصى فى المصلين ركضت منيرة منتحبة إلى منزل الشيخ ، ونادته من تحت مولولة ، فأطل من النافذة ، فاذا به يشاهد ذاك المنظر المحزن فيبتئس ويهرول إلى حسن آغا وهو يردد : « لاحول ولا قوة إلا بالله » .

ولما صار قاب قوسين من الآغا ناداه فلم يلتفت إليه ، فوجه قوله إلى الناس : « إنكم ترتكبون المحرمات . يقول الله تعالى فى كتابه الكريم : « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك إن منهم قسيسين ورهباناً وهم لايستكبرون » .

« اسمع يا حضرة الآغا . إن الله سبحانه وتعالى سيسمع صلاة هؤلاء الرهبان الذين لايستكبرون . وينزل بك وبأعوانك ضربات السماء . . . »

إلا أن أقوال الشيخ ذهبت صرخة فى واد ، لأن الحماسة

دبت فى نفوس الطغام ، فأعمت ما عندهم من بصيرة ، ودفعتهم إلى الانصياع لأهوائهم . فتأثر الشيخ من هذا العمل الزرى ، وأقسم برب العزة أنه سيبذل كنانة جهده ليخلص صديقه الأب يوسف ومن معه من هذه المحنة .

وسار تواً إلى قاضى دمياط ، وأمين الجمرك ، وسردار المدينة لعلهم يستطيعون تهدئة الحالة وإنصاف المظلومين ، فأفهم صراحة أن الأمر بهذه النكبة قد صدر من مراد بك نفسه ، وأن الإفراج عن المقبوض عليهم لن يكون إلا بفدية قدرها مئة وستون كيساً .

إن هذا الإجراء التعسفى أثار ثائرة الشيخ ودفعه إلى أن يقول للقاضى : « ما دخل الدين يا مولاى ، ، فى هذه النكبة ؟ إن مراد بك لم يصدر أمره بالقبض عليهم حباً للدين بل طمعاً بالمئة والستين كيساً . إنه ظالم مسف ! » .

« أنا مسلم أعتز بإسلامى ، وأعلم الناس فروضهم الدينية ، وأعظ فى المسجد . وعلى الرغم من ذلك كله سأبيع كل ما أمتلك من عقارات لأنقذ هؤلاء الكهنة الفضلاء الذين يخدمون جميع الناس من غير استثناء » .

— أراك متحمساً يا حضرة الشيخ ، ولم أر فيك هذه الحماسة لما أريقت دماء المسلمين فى مدينتنا هذه للسبب نفسه . ألا تتذكر كيف عومل التجار وأرباب الحرف إذ تأخروا فى تأدية المال المضروب عليهم ؟ ثم ألا تعلم أن بعض المسيحيين يدس للبعض الآخر ويظلمه باسم الدين أيضاً ؟

— أتحمس لهم لا لأنهم مظلومون مثلنا فقط بل لأنهم باتوا من غير زعيم ، ولم يبق لهم لسان غير لسانى . ولأن انقسامهم لايستحق سوى الشفقة .

— إذهب وقل لهم أن يجمعوا الدراهم ، وأنا بصفتى قاضياً لثغر دمياط سأسهل لهم فتح البارجة ، وأساعدهم إكراماً لك يا شيخ مصطفى ، وتنفيذاً لعهد الذمة .

— شكراً يا صاحب الفضيلة ، لكن أفهم الظالم أن يتقى الله فى إسلامه .

قال هذا وخرج حانقاً . وقاده المسير إلى السجن حيث قابل الأب يوسف وعانقه عناقاً حاراً وبكيا بكاء مراً ثم شجع الشيخ صديقه وقال له : إن الضربة من مراد بك نفسه ، وهو يريد منكم ومن تجاركم مئة وستين كيساً ، وعندئذ يفرج عنكم . وقد قابلت قاضى المدينة ، ووعدنى أنه بعد دفع المبلغ المطلوب يسهل لكم فتح المعبد . ثق يا صديقى أننى لو كنت أملك هذا المال لدفعته عنكم بسرعة ، وأسدلت الستار على هذه المأساة . وإذا طال بكم الانتظار ولم تنفرج الأزمة عاجلا ، اتسع أمامى الوقت لبيع عزبتى ...

— لاشك عندى فى عاطفتك النبيلة . أسأل الله أن يجازيك عنى خيراً . إن المبلغ المطلوب منا باهظ لكننى سأجمع رفاقى ونتدبر ، والرد غداً إن شاء الله .

ترك الشيخ صديقه ومن معه فى السجن ، وذهب إلى بيته حزينا كئيباً لايعرف ماذا يصنع . وازداد حزنه وألمه لما قابلته منيرة

وقالت له : « نحن بحماك يا شيخ ويصيبنا ما أصابنا ؟ » فلم ينبس ببنت شـــفة بل ربت كتفها بتؤدة ، ومشى إلى مسكنه ، ودخل حجرته يضرب أخماساً لأسداس .

حان موعد الصلاة فقام بها ثم جلس على طراحة فوق المصطبة يتأمل ما سمعه ، وما شاهده ويقارنه بما يعرفه عن الدين وأتباعه الأولين ، فيحكم على أعمال مراد بك وأعوانه أنها لاتختلف بشيء عن الكفر السافر ، ويطرق فى الأرض ثم يقول : « متى ينفك البشر عن التنافر والتكالب على المادة والتنابذ باسم الدين ؟ ما دخل المئة والستين كيساً التى فرضها مراد بك على إخواننا فى فروض الدين الإسلامى ونصائحه ؟ لكنه ماكر يعرف من أين تؤكل الكتف ، فلو لم يهاجمهم فى الكنيسة لما استطاع إثارة الطغام عليهم ، ولقامت عليه قيامة الناس ، وأشاعوا عنه أنه يضطهد الرعية لابتزاز أموالها ظلما وعدواناً . أما الآن فانه يستطيع أن يقول للعامة : « إننى أحارب هذه الملة وأتباعها لأنهم من الكفار الملاعين الذين تجب إبادتهم عن وجه الأرض » فيصدقونه وينقادون له ويكبرون عمله ، وبئس ما يفعلون » .

إن نفس الشيخ الشماء قد أبت هذا الظلم ، لأنها خلقت صريحة وحرة وتريد الحرية للجميع . ولقد تمثل للرجل ما انطوت عليه دخيلة الحاكم من الخبائث ، وراح يساعد هؤلاء المساكين على النهوض من هذه الكبوة .

فى اليوم التالى ذهب إلى السجن حيث قابل الأب يوسف

ورفاقه ، وقدم لهم المآكل وأصناف الفاكهة وواساهم فى شدتهم . فكانت كلماته العذبة بلسما لجروحهم ومقوياً لنفوسهم .

قال القسيس : لا أجرؤ يا صديقى على شكرك لأن تواضعك يأبى ذلك . فأسألك أن تغض الطرف عن تقصيرنا . . . لقد اجتمعنا وفرضنا على كل واحد منا ما يحتمله ، فجمعنا مئة وخمسين كيساً ، وعجزنا عن تدبير الأكياس العشرة الباقية . فرجونا من حسن آغا أن يفرج عنا حتى نجمع له المال كاملا فلم يرض بذلك بل أمر بجلد كل واحد منا عشر جلدات .

— يا للفظاعة ! تطلبون رحمة فيمطركم نقمة . . . لاتحزنوا . إننى ذاهب إلى العزبة ولن أعود إلا حاملا الأكياس المطلوبة . إن الله لايترك المتوكلين عليه .

كانت كلمات الشيخ بالنسبة للكاهن ورفاقه كذاك الشعاع الوهاج الذى يبدد ظلمات اليأس من رأس السجين المحكوم عليه بالموت . . من يدرينا ؟ لعل ظلم مراد باك يدفعه إلى قتل هؤلاء المسجونين جميعهم أو لقتل أحدهم إذا لم يدبروا المال فى الموعد المضروب !

بعد خمسة أيام رجع الشيخ إلى الأب يوسف وصحبه ، وقدم لهم الأكياس العشرة فضموها إلى المبالغ المجموعة ، وافتدوا بها نفوسهم وكرامتهم .

لم يصف لنا الأب يوسف فى كتاباته ابتهاجه ورفاقه فى خروجهم من السجن ، ولم يدهشنا ذلك لأن الرجل قد عودنا سرد الوقائع

باقتصاد ، وأهمل فى ما دونه ذكر ما يختص بعاطفة له أو ميل أو تأثر شأنه فى ذلك شأن الرواقيين . وقد قصر الراوى قصته فى هذا الباب على ما يلى :

« خرجنا بقوة الله من السجن . وامتعض حسن آغا لأننا بادرنا إلى تقبيل رجل العدل الشيخ مصطفى » .

وقال الشيخ :

— لاتأخذوا فكرة خاطئة عن الدين الإسلامى . إن ما صنعه حسن آغا لايمت إلى ديننا بصلة . إنه الكفر بالذات . . . إنه من وحى الشيطان الرجيم . . . إن المتدين الحقيقى هو من يعامل الناس كما عاملتكم . . . ما عند البشر ينفد وما عند الله باق .

— أنت تعرفنى يا شيخ مصطفى كما أعرف نفسى ، إن رثاء حسن آغا ومن يلف لفه لايمكنه أن يؤثر فى . . . إننى من خلال فضائلك السامية ، وشهامتك النادرة عرفت الدين الإسلامى ، فلا يستطيع هذا النذل وأمثاله أن يغيروا رأيى فى دينكم وأتباعه الأمناء . كن مطمئناً من هذا القبيل . إنما الذى يحز فى نفسى حزاً هو أن المسيحيين يعتقدون غداً أن التعصب هو الذى قفل المعبد المسيحى السورى فى دمياط . وصب على كهنتهم وأعيانهم صنوف العذاب . . . نعم أيها الصديق إننى كما تعرف أدون فى سجل الكنيسة كل مجريات خدمتى . ولكن ما قيمة سجل يحمل بين سطوره نفقات المطبخ وصلوات راهب خامل . . . آه لو كنت أستطيع محو هذه الجريرة بدم قلبى !

أجاب الشيخ :

— إن أقوالك ، أيها الأب الفاضل ، هى الحقائق التى تجيش فى صدرى . . . أنسأل الله كى يرسل إلى شعبنا المظلوم من يقيله من عثرته هذه .

— حقق الله الآمال والأمانى أيها الصديق الكريم .

جرى هذا الحديث بين الشيخ والمظلومين وهم فى طريقهم إلى البارجة . ولما وصلوا إليها قال لهم الشيخ :

— أرى من الموافق ألا تفتحوا البارجة إلا بأمر من صاحب الفضيلة قاضى دمياط لئلا تكون الضلالة الأخيرة شراً من الأولى . فتفضلوا إلى منزلى تأكلوا مما عندى ، وتستريحوا من عنائكم فترة من الزمان إلى أن ننتهى من الإجراءات الرسمية .

ظل الشيخ يعاون الأب يوسف وأعيان الجالية ويدلهم على أسهل السبل حتى توصلوا إلى الحصول على فرمان من الصدر الأعظم إلى حكام دمياط يأمرهم فيه برفع الظلم عن النصارى . ورد فيه كما نقله الراهب :

« من بعد اليوم جميع التكاليف التى ترد على البندر توزع وتقسم على المسلمين والرعايا بالسوية كل واحد حصته بحسب حاله وتحمله وتتحصل منهم على هذا المنوال . وأيضاً من قبل البارجة المعدة للرعايا لم أحد يعارضهم ولا يؤذيهم بشىء مغاير للشرع الشريف والقانون بوجه من الوجوه لكونهم استرحموا واستعطفوا ، فأمرنا بمراجعة القيود عن أهالى البلد والرعايا بمعرفة الشرع الشريف وقاعدة البلد . »

وتنفيذاً لهذا الفرمان كتب مراد بك إلى قاضى قضاة الإسلام فى ثغر دمياط يأمره بأن يسلم مفتاح البارجة إلى الكهنة « الشوام » يقيموا فيها شعائرهم الدينية بحسب عاداتهم القديمة . ففعل القاضى ، وأعطى النصارى حكماً من محكمة الثغر متوجاً باسم « إبراهيم الجويلى المولى خلافة بثغر دمياط » . جاء فيه ما يلى :

« بعد أن حضر الفرمان الشريف السلطانى المطاع الواجب القبول والاتباع ، المطبوع بالطراء والعلامة الوارد من ديوان حضرة الصدر الأعظم بمصر المحمية المؤرخ فى اليوم الخامس والعشرين من شهر جماد أول سنة تاريخه قرأ بالمجلس الشرعى بحضرة الحاضرين ودل مضمونه على أن طائفة النصارى الذميين القاطنين بثغر دمياط يكونون فى أمان على أنفسهم ويكونو لهم الوصية والشفقة والرأفة عليهم ولا أحد يتعرض لهم ولا يؤذيهم بحال من الأحوال وتكون النصارى مع المسلمين حال واحد ، ولم أحد يتعرض لمحلهم المعروف بالبارجة الكائنة بداخل وكالة خفاجى ، ولا يقارشهم فيه ، فقوبل بمزيد الامتثال ، وقيد بالسجل المصان المخلد بهذه المحكمة . فعند ذلك عرف مولانا الحاكم المشار إليه ، طائفة النصارى الذميين المذكورين بأنهم يكونوا فى أمان لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، وأن يكونوا هم والمسلمين حالة واحدة فى كل الأمور من الأخذ والعطاء وفيما سيحدث من الأمور اللازمة ، ولم أحد يتعرض لهم من المسلمين وغيرهم فى محلهم المعروف بالبارجة المذكورة أعلاه حسب الأمر الشريف السلطانى الوارد فى شأن ذلك . . . »

إن الجهاد الذى بذله الشيخ مصطفى كانت الأقدار تعد فى الخفاء قريناً له فى ملحمة من صنف أعظم تهتز لها أركان الشرق والغرب . ويقوم الأب يوسف فى أثنائها بدوره المتواضع فينقذ صديقه الشيخ وخدمان معاً قضية البلاد .

وضعت العناية بين أيدينا سجل هذا الراهب ، فرأينا فى سيرته قدوة ، وفى أقواله عبرة ، ولم نقدم على نشر ما طوته الأيام إلا ابتغاء الإنصاف الذى أثبته هذا الرجل العادل بقلمه الضعيف فى سجل خدمته . وما أبلغ ما كتبه فى تعليل هذا الحادث إذ قال : « كان هذا الانقلاب بسبب عدم اتفاق النصارى ! » .

الأب بولس مسعد

قصة منصور الجبل

« تحت الزعرورة »
أغنية لبنانية قديمة

أقفرت القرية فى عينى الشاب . باتت جبالها جدراناً لسجن خانق ، وزادت آلام غربته بعد هجرة الأسرة التى أحبها وأحبته .

وعاد الربيع يباهجه ، ولكن زهوره الآن شبيهة برينة القبور.. وإبرهيم يلجأ إلى ذويه فيكتب الرسائل الطويلة إلى والده ولكن أكثرها يبقى فى مكتبه إذ لا رسول يوصلها ولا هى فى صيغة يتفهمها الشيخ المثقف بأساليب العصور الوسطى .

وجدت فى سجلات الرهبان كتابين ، هما إلى المذكرات الشخصية أقرب ، ويلوح لى أن الوالد سلمهما إلى صديقه الراهب لاتصال مواضيعهما بحوادث القرية اللبنانية .

فى الأول يستعرض إبرهيم أحوال القرية فى الفصول الأربعة من خلال قصة منصور الجبل . والثانى مؤرخ فى شهر تموز سنة ١٨٩٨ وهو الشهر الذى تدور فيه واقعة امبابة . والجبرتى يدون حوادث مصر ويصف نظم الفرنسيين وعلومهم كأنه يتحدث عن مخلوقات أتت من كوكب غير الأرض . بينما إبراهيم يكتب :

١ — الشتاء

يقولون عن عشقوت إن اسمها سريانى وإن معناه « الصعبة » .

ولكن الشاب منصور لايجد صعوبة فى النزول من أعلى الجبل الشمالى حيث تذوب الثلوج تحت أشعة الشمس ، ولا فى اجتياز أوحال السهل ، ولا فى الصعود إلى سفوح الجبل الجنوبى «القرقوف» حيث الثلج أكثف والهواء الشمالى أبرد .

وها هو يدخل فتحة بين صخرين تسدها حملة شوك بعدأن يزيل السكوم الشائك بحذائه الذى يغطى ساقه إلى الركبة ويطرق باب «الخورى» خادم الرعية وهو ينادى :

— المجد لله !

— ويرد الخورى السلام من أعماق القرنة قرب الموقدة :

دايمان . . أدخل !

ويدخل منصور ، ويخبط حذائية على بلاط «المدورة» ولا تبدو عليه نيةنزع الحذائين الضخمين والجلوس أمام «الموقدة»، بين الخورى خادم الرعية الجالس فى الركن «القرنة» وشقيقته المواجهة له . بل هو يتلعثم قليلا ، ثم يردد جملة محفوظة :

— يا أبونا ، الاختيارة (أمه العجوز) ماتت وبيتى بلا امرأة وما فى الجبل دومرى .

الخورى تعلم فى روما ، ولغته العربية ضعيفة ، وهو بالطبع لايدقق فى «دومرى» هذه التى وردت فى معجم البلدان لياقوت الحموى منذ خمسمائة سنة حيث قال عن «الرستن» المشرفة على نهر العاصى إنها أصبحت فى عصره خراباً ليس بها ذو مرى . والخورى فوق ذلك عملى واقعى لاتهمه اللغة ، وهو يريد أن ينهى أمراً يسيراً فيقول فى الحال :

— البنات كتار يا منصور . ! من تحب أطلب لك ؟

ويجيب منصور على الفور كأنه يردد كلمة محفوظة ، وبقوة تبدو فى إطراق رأسه الأشعث ، كما تظهر أيضاً فى تسكين اللام والميم واللام الأخرى :

— المعلمى ! (المعلمة)

— هيك (هكذا) ! فرد مرة ! (مرة واحدة)

ويتلجلج منصور لأنه يعلم أن طلبه عزيز غريب .. فهو فلاح من أعلى الجبل لاتراه القرية إلا فى عيد الميلاد والعيد الكبير ، وهو كالدب المنعزل . . ولو أنه سيد بقعة كبيرة ورثها من أبيه « موسى إبراهيم الجبل » وهى ما زالت تتسع بما يضيفه إليها من نقب . . ولم يتمكن الشاب من الإفصاح أكثر من ترديد كلمة الخورى بكل ما فى النطق من العناد ، وما فى اللفظ القاطع من التصلب بفتح الهاء وتسكين الياء والكاف معاً :

— هيك !

وانصرف مشيعاً بنداءات وصياح :

— يا عيب الشوم ! منصور ! خد . . تعال . . إنت جاى (آت) من طرف الدنى (الدنيا) ولا تقعد ، ولا . .

منصور ! منصور يا حيف عليك !. .

٢ — الربيع

رد الخورى لم يكن مشجعاً بل كان فى الواقع أقرب إلى اللوم وإلى التهكم . وقد استاء منصور ، وقاطع الكنيسة يوم عيد الميلاد ،

وذهب يصلى فى دير مختبىء فى أقصى حدود الجبل ، وعزم على إقامة كنيسة خاصة به ، وعلى تعيين قسيس خاص من رهبان الدير يقيم الصلاة مرتين فى السنة له وحده !

وفى كل يوم يسمع أهل القرية دوى البارود فى محجر الجبل وقد انتشر خبر قطع الأحجار استعداداً لبناء الكنيسة المستقلة .

أما الخورى فقد ذكر للمعلمة خبر زيارة منصور فلاحظ أن الفتاة اضطربت أكثر مما هزأت .. وتركها الخورى وهو يهز كتفيه ويقول : سبحان من أنقذنى من بنات حواء .

... بل هى فى يوم لم الزهور السابق لعيد الفصح ، عيد الربيع ، توجهت مع تلميذاتها إلى أعالى الجبل حيث يبكر الزرع بمواجهة الشمس الشارقة ومختبىء زهر « الجورى » الأنيق فى أدغال الهضبة العليا .

صعد سرب الفتيات « العقبة » الملتوية فى « عرضية الشميس » وهو سفح الجبل ، ولم يتجه نحو أقصى الشميس الشرقى ، حيث منطقة الحريق ، أو المشارع ، وهى مساقط مياه الثلج الذائب ، بل تابع العقبة فى صعود مضن ، حتى أشرف على الهضبة العليا .

وهناك انبسطت تحت قمة الصخور الشاهقة بقعة نضرة من البطم والأزردخت والكرمة والتوت والكمثرى . وقد التفت عرائس الكروم على أغصان السنديان ، ولعب فوق أفنانها السنجاب وغردت آلاف العصافير .. وملأ جوها طنين كأنه أنفاس الطبيعة الدافئة .

وفى بهجة المنظر الخلاب اندفعت الفتيات يغنين ويبحثن عن الجورى فى أفواه الكهوف الرطبة . وفجأة ازداد الطنين الذى يملأ الجو ، وظهر للفتيات مصدره : عشرات من خلايا النحل ، وقد

وقف منصور أمام عناقيد من الذباب الذهبي المهاجر ، وربوات منه تعج وتبحث عن خلية ، والرجل يهيىء لها الخلايا الفارغة .

والتفت الرجل مبهوتاً إذ باغته الجمع المبتهج وإذ رأى على رأس الوفد عروس أحلامه . . لا كالملاك الهادىء كما تبدو فى شعرها المجدول ورأسها المحتجب فى الكنيسة ، بل كزهرة برية طليقة ، وحورية تلعب الأنوار بشعرها المسترسل ، وتداعب الظلال نور وجهها المتألق بماء الحياة والشباب .

ولم ينطق الرجل ! بل هو انصرف عن عمله إلى خلية وأولع عرق شجر ثم أطفأه ليحتمى بدخانه ، وفتح الخلية من الخلف ، وقطف الأقراص غير مبال بوخز النحل . ثم حمل الشهد إلى البنات وقدمه للمعلمة وقد اصطبغ وجهها باللون الأحمر القانى ، وهو يقول دون أن ينظر إليها :

— هذا ليس موسم القطاف . . والعسل الآن جاف ولكن هذا القفير مهجور . . ونحله لم يأكل العسل . .

والشاب يتكلم ويمناه تنزع من عنقه ومن ذراعيه النحل المهاجم بابره الحارقة وهو لايشعر بوخز .

٣ — الصيف

مر شهر ايار وانتهى موسم القز ، وقد بيع الحرير بأثمان جيدة ، ودخلت القطع الذهبية خزانة الحورى : مائة عثمانية للوقف وثمانون إنجليزية له من ميراث أبيه . وبهذا التفريق فى الصنف اطمأن الرجل وضمن عدم اختلاط مال الوقف بماله الخاص ، لا لأنه يؤمن

بالخرافة القائلة إن الغبار الذى يلصق بجناح عصفور يتمرغ فى أرض الوقف يخرب الأرض الغريبة التى يسقط فيها العصفور ويرمى من جناحيه تراباً فوق ترابها . . وإن أكل مال الوقف يقطع الذرية وينحل الأبدان ، لا لهذا كله بل لأن الخورى حرص على كرامته ولا يطيق أن يكون شخصه موضوعاً لاتهام الرعية .

إن الخورى السابق كان يعد حبات العنب فى كروم الوقف . .

قد يكون الخورى أول من يقدر الشاب منصور حق قدره . ومنصور يشعر بذلك وهو قد راجع ضميره وتذكر أن الخورى يهزأ بشبان « الجمعية » بطبلهم ورايتهم ، وهو يهزأ أيضاً بشبان تعلموا وهجروا الحقل فلم ينتفعوا ولم ينفعوا ،وهو قد شاهد بغير حماسة تلك المواقع التى دارت بين جيلين من المرتلين جيل قديم من ذوى الأسلوب التقليدى والصنوج والنواقيس الصغيرة التى ترقص بين الألحان . . ثم جيل جديد أدخل الألحان الحلبية واتبع أساليب جديدة فى الحفلات الدينية .

الخورى ينظر إلى الدين نظرة اجتماعية وطنية وعنده أن حقول الوقف وكرومه أولى بالعناية من زينة الهيكل والتفنن الموسيقى . ومنصور فى نظر الخورى شاب كامل . والبنات لايشغلن ذهن الخورى إلا عندما يتزوجن وينجبن . والأولاد عبيد من الرقيق إلى أن يكبروا ويصبحوا رجالا . والجنسان فى الصغر يفتقران إلى الضرب الكثير . . وحكمة داود النبى ماثلة أبداً أمام الخورى : إن أحببت ابنك هيىء له القضبان حزماً .

الخورى ، وقد تعلم فى روما ، يشعر بالمفارقة فى إقدام منصور

الجبل على التزوج من المعلمة . . ولا يفهم كيف سمحت الفتاة الأنيقة لهذا الدب بالتقرب إليها . وهو يهز كتفيه إذ يسجل إيراد الكنيسة ونفقاتها

ويسمع الخورى وقع أقدام بطيئة ومسامير تقدح حجارة الطريق

— المجد لله يا بونا . . وبارخمور .

— الله يبارك عليك يا منصور .

وأسرعت شقيقة الخورى هذه المرة لكى تحيى الضيف وتقدم الشربات والقهوة والنقل قبل أن ينصرف (كما فعل فى الشتاء) .

وجلس منصور هذه المرة على صندوق جهاز أم الخورى حيث يلتقى أسدان بسيفين مسلولين ، فوق بيت من الشعر لم يقرأه أحد .

ودار الحديث بهدوء من جانب الشاب وباضطراب من جهة الخورى :

— يا أبونا أرجوك أن تخطب لى المعلمة .

— يا ابنى هل أنا خاطبة . . نساء عائلتك كثيرات .

ولم يعر الشاب جواب الخورى اهتماماً بل هو فك حزامه (الكمر) وهوى بفتحته إلى أسفل فتساقطت قطع الذهب فى حجره وبينها خاتم . وجمع الشاب هذا السيل فى يديه وصاح الخورى :

— وعملت خاتم ! متى نزلت إلى بيروت ؟

— هذا خاتم أمى

وسلم منصور للخورى قبضتين من الذهب ثم الخاتم واضطرب الكاهن وهو يقول :

- طيب نعد الدهبات

- ما فى لزوم . . مائة عثمانية . والبنت راضية . . زارتنى يوم لم الزهور وحملتها هى والبنات قناطير . . الزواج فى كنيستى عن يدك يا أبونا . والفرح عندك لأن البنت يتيمة .

٤ الخريف

شبان القرية يتهيأون ، والقرية فى الخريف فى أفراح مستمرة ، تتنقل بين قطف العنب والتين والمعاصر فى الجو العابق بالخمور . . . وفى ليلة ١٤ أيلول (سبتمبر) توقد النيران على جميع القمم ، وتدق الأجراس لذكرى انتصار هيرقل على الفرس وإنقاذه بيت المقدس . والعامة قد احتفظت بالعيد لأنه عيد الكروم الخضراء ولآلىء العناقيد . وزواج منصور والمعلمة يوم ١٥ فقد نودى ذلك فى كل يوم أحد وعرفه الجميع ولكن منصور قد اتخذ قراراً آخر وهو ينادى الحورى من قمة الجبل منذ ربع ساعة :

- يـــا بونـــا

والحورى قد سمع أخيراً ، بل قد نقل الصوت إليه جار بعد جار ، من قمة الجبل ، إلى الشميس فى السفح ، إلى الجوار فى السهل الأوسط ، وإلى القرقوف أخيراً وهو يكلف أخته بالرد :

- ا يـــه ؟

- الإكليل بكنيسة الضيعـــــــــة مش بكنيستى . .

الإكليل بكنيسة الضيعـــــــــة مش بكنيستى !

- إيه مليـــــــــح ! إيه مليح .

وفى اليوم التالى ، يوم ١٥ ايلول يتم الإكليل ويتوجه أهل القرية إلى بيت الخورى . ويجلس الشبان تحت الزعرورة التى شهدت فرح جد الخورى من مائة عام .

زعرورة أفرخت مئات أجيال الطيور فى أفنانها ، واحتمت الآلاف من الدجاج فى فجوة جزعها ، وخرقت قشورها مئات من الزيزان القارضة .

وفى منتصف الليل تقف بغال على متونها السجاد ، ويركب العريس ، وتركب العروس ، ويركب المشيعون ، وتدق الأجراس المعلقة بأعناق الركائب ، وتشعل المصابيح ، وتتجه القافلة إلى الجبل المواجه ، يواكبها طلق البارود والتراويد والحدو الحربى لزعيم اليوم . . منصور !

و يذكر أحد الشيوخ للخورى تاريخ أسرة العريس بكلمات :

— تحركت القوافل ثلاث مرات إلى الجبل . وكانت فى كل مرة تشيع عروساً لا أهل لها . . فتودعها فى الجبل إلى غير عودة . وقد سمعت بفرح إبراهيم الجبل وشهدت فرح موسى الجبل . وها أنا أشاهد فرح منصور موسى إبراهيم الجبل . أحياك الله أيها الأب لتكلل بالزواج ابن ابنه !

— والقايل (والقائل) يا عم نبهان !

بعد ٢٧ عاماً سيرسل محمد على الكبير شبان مصر المثقفين إلى أوربا ، وسيقول أحدهم ، رفاعه بك بدوى رافع الطهطاوى :

« فى هذه البلاد يستغربون جلوس الإنسان على نحو سجادة . . مدوا السفرة للفطور ثم جاءوا بطبليات عالية ، ثم رصوها من

الصحون البيضاء الشبيهة بالعجمية . . وأنت لاتدرى هل تأكل الصحن أم تأكل ما فيه . . ولا يأكل الإنسان بيده ولا بشوكة غيره . . ويزعمون أن هذا أنظف وأسلم عاقبة » .

أما عن الأخلاق فأحكامه سديدة حكيمة سابقة لعصره إذ يقول :

« إن وقوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء لايأتى من كشفهن أو سترهن بل منشأ ذلك من التربية الجيدة والحسيسة والتعود على محبة واحد دون غيره » .

أما إبرهيم الذى تلقن الدروس الفرنسية فى لبنان قبل رفاعه بك فانك تقرأ فى مذكراته ما تظنه مكتوباً بيد أحد أدباء الغرب فى عصره ، بل تخاله مكتوباً اليوم بروحه الرومانتية وأسلوبه الرمزى . النفس العربية أوجدت أدباً مكتمل النمو منذ نشأته ، ومنذ أرسل الشنفرى ملحمته المشهورة « بلامية العرب » بينما تطورت النفس الفرنسية ببطء من فأفأة الطفولة فى « أغانى رولان » إلى روائع العصور الحديثة .

نسيب وهيبة الخازن

أم آدم

« أمنا الأرض »
أمية ابن أبى الصلت

فى الكتاب الثانى يروى إبرهيم قصة رمزية على لسان زميل له من التلاميذ ، ويقول وجلا فى نهاية رسالته : « ذكرتنى هذه القصة بسروح بنت عمى شاهين فأرجوك يا والدى أن تبلغهما سلامى . . . » وها هو نص الكتاب :

سيدى الوالد :

ما زلت فى عشقوت ، القرية التى أصبحت موطنى الثانى . . أين سهول مصر المنبسطة إلى مدى النظر من هذه البقعة التى لايتصورها إنسان إلا من خلال القصص .

جبلان يتوسطهما سهل وربوة ثم واد عميق لاينتهى إلا فى زرقة البحر البعيد . والجبلان كأنهما كتاب مفتوح قد سطرت على صفحتيه الدهور آيات تفوق فى القدم والحكمة آثار فراعنة مصر وتراث فلسفة اليونان . . . هنا كتاب الله الملهم الذى لايقل روعة عن كتبه المنزلة .

والآن هذه قصة أم آدم التى حام طيفها فى الجبل الشرقى كما رواها لى زميل من التلاميذ . قال :

مزت أم آدم فى الهجير اللافح وأم آدم لاتعرف الراحة ولا القيلولة وهى تحمل بنشاط سبعين عاماً وتسوق عشرة من الأنعام .

والسروح جميل دائماً منذ عهد راحيل ويعقوب وقطعان لابان ومنذ عهد أجداد أهل عشقوت الأقدمين الذين سرحوا فى جبال اليمن ، ومنذ ورد فى القرآن « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون » . أما السروح مع أم آدم فدرس وفن وجمال وحب للرياضة والخيال .

شعرت بكل هذا ، وبشىء غامض يهيج مخيلتى فيه أثر لحكايات الشتاء ، وفيه روح المغامرة التى تبدأ منذ الطفولة وحب المجهول . والححت وتوسلت وسمح لى فى النهاية أن أرافق العجوز إلى الجويقات .

أوصانى المعلم ألا أعتلى تلك الصخور المقرنة « القرانى » ولم ير أن يوصى أم آدم لأن العجوز الحيزبون لاتعرف الحنان ، ولأنها لم تتعب فى دق ريحانى ، ذاك النبت الشبيه بالحنبلاس الذى توصى الأم مكارى القرية أن يحمل لها منه حزمة عند مروره على ساحل البحر فتجففه وتدقه حتى يمر بادق المناخل ثم تضمه فى كيس صغير لتجفف به ما بين فخذى الطفل .

إن مجرد التوصية بالريحان بشرى ترقص لها قلوب كثيرة فى القرية ، ودق الريحان فرصة لاجتماع الجارات والأهل وللتمنيات الحلوة . . وأم آدم لم تدق ريحاناً لأحد على ما يذكر أهل القرية لأن آدم مات طفلا منذ خمسين عاماً وأجداد القرية يرفضون أن يجيبوا على سؤال سخيف ومسألة تافهة لاتعنيهم ، وهم وحدهم يستطيعون أن ينفوا التهمة .

قلب أم آدم فى تحجر وثدياها فى جدب ، والصخور عالية حادة خطرة . والعجوز لاتتعب لأحد ولا تعاشر أحداً ، رفيقها مغزلها وزميلاتها عنزاتها ، وها هى قد سبقتها إلى عزلة الجبال ، وها سربها وعلى رأسه العنيرة قد اقترب من الأدغال الرطبة وأم ادم تتبعها ببطء .

الكنوز المرصودة :

أم آدم شقراء بدينة عظيمة الجثة ، وهى تبطىء فى سيرها لامن العياء ولا من الثمانين ولا لأنها تحادث أحداً أو تلقى على أحد تحية الجبل الجميلة فهى تجهل كلمتى مساء الخير وصباح الخير ... بل هى تبطىء لأن يديها تفتلان الصوف وتبرمان المغزل ولأن عينيها موزعتان بين هذا وبين قطيعها وأخاديد الطريق .

ولكن أم آدم قد اجتازت القرقوف وهى الآن فى سفح من سفوح الجويقات يدعى « العرضية » وهى بعد ذلك تصعد فى عروض الجبل . وأنا أتعثر فى الرجام والحجارة .

— وهمدرت العجوز وقرقع صوتها . ياحيف عليك ... شبيت وأم آدم تسبقك !

وأهب كلام العجوز ساقى وبعد قليل كنت فوق الربى وأم آدم قد افترشت حبشاً من البطم والبان والشيح والصعتر ، وجلست فى ظلال رطب بين صخرين لم تتخلل أشعة الشمس فرجتهما منذ بدء الخليقة .

نزعت أم آدم الآزار الأبيض عن رأسها وتدلت شعورها وقد

شاب شقرتها البياض على وجه أحمر سمين ، وهى تواصل الغزل ولكنها تقف من حين لآخر وتنظر إلى الغار المظلم . . . وفجأة تناديني .

— تعال يا عيونى

صدرت كلمة المحبة برنين خائن مخيف فى فم عجوز قست على نفسها وعلى الناس . كيف قالت أم آدم « يا عيونى » لغير العترة ؟ وخنت ، فأصلحت أم آدم نداءها .

— تعال . . . صرت من الشباب وتخاف ؟ تعال تفرج !

واقتربت ونظرت إلى مدخل الغار الأسود كأنه فم جهنم أو باب قصر مسحور .

— إذا حضر الرصد وظهر الكنز الذى لايفتح إلا فى وجه الغشيم لاتخف ولا تتلجلج . . جمد قلبك . . . وسنصبح أغنى من قارون ، ونبنى القصور ونشك العود فى عين سيدنا فى قصره والرهبان فى ديرهم . . . سنشرب فى كؤوس من الذهب أجمل من كؤوس المعبد .

جمد الدم فى عروقى . وتحولت مناظر الطبيعة الساحرة فى عينى إلى مشاهد الغضب واللعنة ، وعطور الشجر والنبات الفائحة فى جو عشقوت الجاف باتت لعينة كالقرابين التى قدمها قدماء سكان هذه الجبال إلى شياطينهم .

ودق الجرس صلاة الغروب فبطل السحر وجفلت العترة ومأمأت طويلا . . . أتراها من سلالة العتيرات التى يذبحها الجاهليون لآلهتهم فى رجب ؟... وزمجرت أم آدم :

— اللعنة على الأجراس ... إنها ترعب الجن وتبعد الرصد ...

الأجراس تقرع للسيد كلما ظهر بارجوانه وزمردته فى قرية ...

انطلقت مذعوراً إلى أعلى الصخور ونظرت إلى السماء أستغفرها وإلى جرس المعبد أسترضيه وإلى غابات العفص والسنديان وأودية الصنوبر أحق نفسى الملوثة فى أرجائها الطاهرة ... وإلى البحر هناك وقد احمر فى أفقه حيث شيع الشمس وبقيت زرقة صحيفته الشاسعة هادئة صافية كأنها نسيج مغسول وضمير مطمئن ...

أسطورة المهد

قامت أم آدم ونادت العنزة وقفلت راجعة تتبعها عنزاتها من بعيد ، والعنزة لاتدع رابية إلا وتمر عليها مودعة ، تقف فوقها هنيهة ثم تنحدر مهرولة إلى تل آخر ، تحب أن تضل عن رفيقاتها وأن تحارب الذئب إذا ظهر (ولها مع الذئب ملحمة سنرويها) ثم تذكر العجوز السائرة هناك تحت الجويقات فى منحنيات القرقوف وتذكر الصبرة الآمنة والمراح الهادىء وجرن الماء على حافة البئر فتقبل على رفيقاتها وتقودها ملأى البطون حافلة الضروع متهادية المشية .

لا ماء فى عشقوت وهى مع ذلك مرتع لمن يحب العيش على الفطرة فى غابات سوداء ، وأدغال ظليلة وصخور جيرية بيضاء ، تنكشف عن كروم حمراء بركانية التربة سوداء الصخور ، وفاكهة تستمد عذوبتها العديمة المثيل من حنين الأرض وروحها لامن جداول

الماء وفى كل قرقوف أنواع لانهاية لها من النبت الزكى العابق بعصارة من قلب الأرض وجوهر الحياة .

جلست أم آدم لاتودع المشاهد التى أطلتنا عليها فوق عرضية « آبى زريق » بل لتراقب العتيرة وتروى قصص أجدادها :

« العتيرة حديدية الأصل وأمها عنيزية الأرومة . . . من هاتين القبيلتين انحدر كراع العتيرة . . .

« إسمع ما فعلت جدة لها من ألوف السنين . . . (وقصت أم آدم إذ ذاك تلك الأسطورة التى سمعها كل طفل لبنانى) :

« قبل أن يخضع ابن آدم الحيوانات كانت جدة من جدات العتيرة فى غار ولها ثلاث بنات . وكانت تذهب إلى السروح فى جبل مثل جبل عشقوت . جبل غير ذى زرع ولا ماء . وعندما تعود فى المساء ترقص فوق الغار وتنادى بناتها :

افتحوا لى يا بنياتى
الموى بقريناتى
والحشيش عضهيراتى
والحليب بزيزاتى . . .

وعندئذ تدحرج البنات الصخر من باب الغار . . . وفى يوم أتى الذئب وقلد صوت الأم ، ودحرجت الصغيرات الصخر فانقض عليهن وابتلعهن .

وعادت الأم ورأت المصاب فهرولت إلى بيت الذئب ، و « دبكت » فوقه وصرخت وولولت ولم تدع للذئب راحة . .

وصاح الذئب وقد مل :

— من ؟

— وأجابت الأم :

عنزه من عنوزيه
وقرونها حديدية
والى أكل جدياتها
يلاقيها عالبرية

وطال الشجار والتحدى ولم يسع الذئب إلا الانطلاق إلى البرية ، وما أن وقف العدوان وقفة التحفز حتى انقضت الأم على الذئب وبقرت بطنه بنطحة من « قرنها الحديدى » ونزلت بناتها بأمان . .

أمنا الأرض

الذئب يا أم آدم لم يمت بنطحة عنز ... ولا الأم غلبت أحداث الزمان ولا ردت فواجع الحياة عن بنيها . .

أما أمنا نحـــن ، أمنا الأرض فهى ما زالت أقسى علينا من الذئاب ، بنات العنكبوت يأكلن أمهن أما أمنا ، أمنا الأرض ، فهى ما زالت معنا فى نضال دائم وحرب تنتهى بأن تبتلعنا ، والنضال قائم أبداً بين الناس ، والنضال الأعظم قائم أبداً بينهم وبين أمهم الأرض ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ...

* * *

هذه قصة أم آدم التى رواها إبرهيم وعلق عليها كما رأيت .

وفى القرن عينه ، القرن الثامن عشر ، عمد الفلاسفة إلى التجربة Philosophie expérimentale وكان الانسيكلوبيديون . . وروسو وفولتير . . وجمع الإخوان جريم قصص الأطفال الألمانية والسكاندیناقية والروسية والإنجليزية والإيطالية وقصص القبائل البدائية .

وقال ماكس موار إن هذه القصص إنما هى صدى الأساطير التى بقيت بعد زوال المعتقدات الأولى . وقال غيره إن هذه المعتقدات قد رافقت عصور الإنسانية الأولى قبل أن تتفرق جماعات البشر ولذا تجد أثرها فى الفيدا Veda الهندية . . ومن هذه الآثار الرمز إلى الشمس بالذئب « فريكا » وهو الذئب الذى بقى رمزاً للشمس وللإله ابولون عند اليونان والرومان ، وهو الذئب الذى افترس ذات القبعة الحمراء Le petit chaperon rouge كما تفترس الشمس جمال السحر . وإذا اختلت قصة الفتاة ذات القبعة الحمراء عند الفرنسيين بأن أكلها الذئب وانتهى أمرها ، فان القصة عند الألمان وعند الإنجليز Red Riding Hood تنتهى بعودة الفتاة إلى الحياة بعد أن يقتل الذئب صائد من أشراف الصيادين . . كما يعود الفجر الساحر ، الإله الهندى المحبوب الذى ينتصر فى كل يوم على الشمس

ولكن نساء لبنان يردددن قصة العنزة ويجهان هذا ، وقد نزحن من صحارى العرب وأصبحت الشمس فى جبالهن رمز الحياة ، وانقلب الرمز ، ولكن قصص الأطفال كأغانى المهد قديمة بقدم البشرية ، وهى فوق اعتبارات الأمكنة والأزمنة .

نسيب وهبة الخازن

من عشقوت . .

. . إلى دمياط

« قبل أن تتحدث عن الحب دعه
يعش فى قلبك ! »
(جوتيه)

هذا ما دونه إبرهيم عن موطن منيرة ، وهذا ما جرت به يده كما تجرى اليد حين تؤرجح الطفل الباكى ، ولكن نفسه لم تجد العزاء .

والنفوس إذ تذبل تذبل معها الأجسام ، وها هو يمرض مرضاً عضالا ، فيضطرب مدير المدرسة ، ورئيس الدير ويرسلان إلى بيروت رسولا يخبر الريس جبور « شيخ العرب » بما حل بإبرهيم . فيغادر الرسول عشقوت عند طلوع نجم الصبح ، ويقطع الجبال والأودية جرياً ،كأن خطراً يقف له بالمرصاد .

وفى بيروت يبحث الرسول عن الريس جبور شيخ العرب فيجده لحسن الحظ فى الميناء ومركبه قد شحن بقمر الدين والزيت والجلود ، وبدا الرجل ملتهباً بنار العمل . ويشك الرسول : هل لدى هذا الملاح المضطرم مجال للتحدث عن فتى ملقى فى الجبال . ولكنه قد أتى لهذا الحديث وما عليه إلا أن يبلغ الرسالة ، وها هو يتقدم بوجل . . والريس لايكاد يسمع ذكر إبرهيم ومرضه حتى يترك كل شىء ويصيح صيحة تفزع محدثه :

— إبرهيم مريض ؟ قتلتموه ؟.

والجبلى فى ذاك العصر وحش فى نظر البيروتى مفترس ، والجبال مجال الوحشية . . ولكن الرسول بادى الطيبة ، وجبور الآن يعتذر :

— هذا ابنى ووالده فى دمياط أخ لى لاأقيم إلا فى بيته !

جبور شيخ العرب مرهف الأعصاب متهور كسائر أهل بيروت . . فى الربيع والصيف الخانقين . وهو فوق ذلك يرى فى كل رحلة إلى دمياط صديقه الشيخ مصطفى وقد اكتهل وتاق لرؤية بكره ويعرف أنه يكتم ذلك ويغالب رغبته ، وشيخ العرب لايفهم هذه الحالات السيكولوجية ، ولذا فهو يقرر الآن بداهة وبعنف الرجل الساذج أن يعيد الشاب إلى أبيه فى الحال ، فيصعد مع الرسول إلى الجبال ويوهم رئيس الدير أنه منتدب من الشيخ مصطفى لإعادة الشاب إلى أهله ، وأن مرض إبرهيم اتفق صدفة مع قيامه بمأموريته .

نزل إبراهيم مع الريس جبور قبل الفجر .

الفجر الذى يشهد صعود نجم الصبح لامعاً فى حجب الظلام المتلاشى بينما تنمحى النجوم كما تجف الدموع أو تهوى إلى البحر فى الغرب هابطة كاللآلىء .

على حدود عشقوت امتد البحر إلى اللانهاية ، وبات هذا المنظر ينتشر ويتقلص ويبرز فى عظمة مروعة أو يتوارى خلف الهضاب والتلال حتى وصل إبرهيم ورفيقه إلى « البويب » باب

اللانهاية ، وهناك بدا البحر على رمية حجر من الرجلين ، البحر هنا تحت أقدامهم ، وزبد أمواجه تحيط الشواطىء من بلاد جبيل شمالا إلى بيروت جنوباً بنطاق أبيض ، وبين المدينتين مجال شاسع يضم آلاف السنين من أمجاد فينيقا . . . والمياه تمتد فى الغرب إلى الأفق .

شهق الشاب لهذا المنظر ، وهو على علو شاهق من الأمواج ، والجبل ينحدر تحته كالهوة السحيقة من « البويب » إلى سهول الشاطىء ، والسهول تنبسط رقعاً خضراء ترتبت كمربعات الشاطرنج .

وسار الريس ورفيقه ساعتين قبل أن يدركا الشاطىء .

ومن ميناء جونيه امتطيا جوادين وبلغا بيروت عند الغروب .

بعد أيام كانت السفينة فاردة أجنحتها البيضاء تحت شمس بهية وسماء صافية ، حاملة إبرهيم إلى موطنه . ومرت أيام وليال وانقضى أسبوعان بين الماء والسماء .

وعلى مقربة من دمياط التقى المسافرون بما لا عهد لهم به من السفن الحربية العظيمة ، فقد كانت عشر منها تجوب البحر ، توالها خمس عشرة أخرى . وكانت هذه القطع من الأسطول البريطانى تبحث فى أرجاء البحر عن عمارة فرنسية قامت من طولون فى ١٩ من مايو سنة ١٧٩٨ قوامها أربعمئة مركب وخمس وخمسون سفينة حربية ، وقام نلسون يفتش ويبحث عن هذه الحملة ، وقائدها الجنرال بونابرت .

كانت هذه البوادر نذيراً لما وصفه الجبرتى من « الملاحم

العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، والوقائع النازلة ، والنوازل الهائلة . . . وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

كان وصول إبرهيم مفاجأة كاد ينوء بها قلب الشيخ مصطفى وصديقه الأب يوسف ، وقد غطى الحادث أنباء الحملة الفرنسية ، وملأ بيت الشيخ وبيت شاهين بهجة وحبوراً . أما منيرة فقد احست للمرة الأولى بخفقان واضطراب عنيفين هزا جسمها وحيرا عقلها . . . فسترت عاطفتها كما تستر العذراء عثرتها وتخفى عارها . . ولكن دم الحياء سرى فى عروقها فاحمرت وجنتاها خجلا وأطرقت لاتنطق بكلمة ، ولا تجسر على مصافحة القادم . . ولم يك إبرهيم أكثر منها إقداماً فقد عقد منظر الفتاة لسانه ، فوقف أمامها مضطرباً مبهوتاً . وتحايلت منيرة بجيل النساء على الموقف ، فانصرفت تعد الشراب والقهوة .

كانت أحلام إبرهيم فوق الجبال حرة طليقة ، ولكنه فى دمياط قد أخذ يشعر بما بين أهل المدن من التكلف ، وما بين الطوائف من التقاليد المبعدة والحواجز المانعة .

ومرت الأيام وإبرهيم تائه بين قومه ، فلا الرجوع إلى الوطن يملأ قلبه ، ولا أخبار الحرب تلهيه ، ولا مسارح ألعاب طفولته تعزى روحه وتهز قلبه .

منيرة هنا محتجبة عنه ولم يمض على ألعابهما البريئة الأخوية سوى سنتين . وهى تتعمد ذلك . . . فقد حاول مراراً أن يصافحها ومر أمام مدرستها ، ووقف فى رحبة الكنيسة يوم الأحد ، ودخل

المعبد وراءها ولكنها كانت تأتى محجبة وتجلس فى القسم المخصص للنساء وراء « الشعرية » التى تحجز أنوار الهيكل عن ظلام قسم المصليات . أليست النساء « رجساً من أعمال الشيطان ؟ »

أما فى المدرسة فقد كانت منيرة تدير وجهها فينصرف إبراهيم خجلا !

رأى الشيخ مصطفى فى ابنه هذا الشذوذ الغريب وهو لذلك لم يعارضه لما طلب منه أن يقيم فى العزبة بعض الوقت .

وفى العزبة عادت إلى الشاب المثقف ذكريات الطفولة الساذجة وأيامها المرحة . ولكن نشاط إبرهيم غلب خياله فهدأت أفكاره فى خدمة الأرض ، وفى جو العمل والإنتاج . . . وكان يسهر مع عمه شاهين على شجيرات التوت ويردان البشر والحيوانات عنها . . .

التوت هنا أيضاً . . لقد نقل شاهين من لبنان معبوده ، والأنصاب هنا نامية لدنة كأجسام العذارى المبكرات ، ولم تبلغ السنتين بينما تبقى النصبة فى الطفولة هناك إلى ما بعد الثلاث من السنين . . لقد ترك إبرهيم جبال لبنان ، وبنات القرية من صويحبات منيرة لم يتجاوزن الحداثة ، ولكن منيرة هنا نمت وترعرعت ، وهى بادية الأنوثة ، وهو أيضاً يشعر أنها على حق فى احتجابها . لقد أنضجها صيفان مصريان .

وكل شىء هنا نام فى سرعة ، ناضج قبل أوانه ، والنبت هنا ملىء بغذاءسمين وماء غزير .. أين صعتر لبنان ذو الساق

الجاف كالخشب اليابس واوراقه الصغيرة الدقيقة؟ أين هذا النبت السقيم فى مادته القوى فى روحه ؟ أين كل تلك النباتات التى تمكث ستة شهور بغير رى وهى تنتظر بللا من أطراف أيلول ، (سبتمبر) الذى ينتهى بظهور الندى قبل أن تغمر الأرض أمطار تشرين الأول (أكتوبر)؟ أين الأنبتة الفواحةفى أرجاءالموت، وهى فى سبيل النضال للحياة ، والأمل فى الحياة . تحمل فيما بقى منها حياً روح الطبيعة وعبير التربة وعزم الصخر ؟

وفى غرة سبتمبر يعود موسم الفيضان . . لقد نسى إبرهيم فى لبنان طوفان النيل ، ولكنه منذ أيام يشاهد مرة أخرى بعد أعوام الغياب تلك اللوحات الرائعة من عهد طفولته ، تلك المناظر التى شاهدتها آلاف الأجيال من المصريين .

عدد لا يحصى من الحشرات تقفز على رمال الشاطىء ، والغربان تحوم فوقها وتنقض على وجه الماء وتلتقطها ثم تعود فترتفع وتعود فتحوم. والحشرات تهرب من طغيان المياه ، والمياه ألسنة ثم إحساء ثم جداول . . وأكوام الرمال ثم الأرض الخصبة السوداء ، ثم سيقان الذرة ، كل هذا يهبط رويداً رويداً مستسلماً للنيل ، للملك القادر المطمئن ، الذى تحول إلى حوت ، الملك الذى وهب ثم ابتلع ما وهب !

نسيم الغروب يداعب تيجان النخل ، وإذا النخل يتحول إلى غابات لبنانية يبعد إبراهيم شبحها بعنف . . .

وحل الغسق وإبراهيم ينظر إلى الحقول ثم إلى صحيفة ماء النيل وقد وصل الخفير يحمل مصباحاً والهوام تطير حول النور وتضربه بأجنحتها ، والبوم والطيور الليلية ترسل فى الفضاء

أصواتاً عميقة وصيحات مشؤومة ، وتبدو له دمياط بعيدة بل فى عالم آخر وأن بيته المجاور لبيت منيرة جنة ابتعد عنها .

ثم يذكر إبرهيم مناظر الشتاء فى لبنان ، ويحاول عبثاً أن يصرف ذهنه عنها ، ويمر أمامه الخريف اللبنانى ويرى الأشجار وهى تتجرد من أوراقها ، أوراق صفراء تطير فى مهب العواصف . . . والأغصان تبقى كأنها ملايين الأذرع ترتفع للدعاء والتوسل ، وقد اختفت الفاكهة من الحقول . . . وجمعت الموقدة القائمة فى وسط المصطبة شمل عائلة شاهين وابنها إبرهيم ، وتوردت وجنتا منيرة كالجمر . . . ويقول فى نفسه :

آه ما كان أحلى تلك الأيام ، وتعود إليه أبيات من الشعر العربى :

تعلقت ليلى وهى ذات تمائم
ولم يبد للأتراب من ثديها حجم
صغيرين نرعى البهم ياليت أننا
إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم

لا ، الأيام لن تعود ، ولكل سن شاغل ، والمجال أمام الشاب واسع ، ومنيرة ما زالت بكراً ، والرجل يبنى ولا ينتحب ، وهى سليلة أجداد كدوا وعملوا وشقوا الجبال ، واقتحموا البحور والصحارى ، وتاقوا للمجد ، وسيعمل مثل أجدادها وينتصر .

وبعد أسبوعين كان إبرهيم على طريق العودة مزوداً من وحدته بنشاط عظيم وبأطماع لاحد لها .

نصيب وهيبه الخازن

بنات وتوت

« من علمنى حرفاً صرت له عبداً »
مثل عربى

كان أبونا يوسف فى مدينة دمياط ككل كاهن فى قرى لبنان يعلم الأولاد قراءة اللغتين العربية والسريانية ، ومبادىء علم الحساب ، وقواعد الدين . إنما كان هناك فرق بين مدارس لبنان ومدرسة الأب يوسف : هذه فى غرفة فسيحة ونظيفة ، وتلك تحت أشجار السنديان فى الهواء الطلق . هذه تعطى تلامذتها العطلة السنوية فى فصل الصيف ، وتلك تبطل فى فصل الشتاء . وكما تجمع مدارس لبنان البنين والبنات على مقاعد واحدة ليأخذوا العلم عن معلم واحد هكذا حاول الأب يوسف أن يصنع .

كان طلاب مدرسة دمياط خليطاً من البنين والبنات . وكانوا يجلسون على مقاعد خشبية قصيرة القوائم ، ويرددون بصوت جهورى : « طوبى للرجل الذى يتقى الرب » . وأبونا يوسف يتمشى بينهم ذهابا وإيابا ياوح لهم بالعصا حتى إذا بحت حلوقهم من كثرة الصياح ، وحاولوا أن يستريحوا قليلا من التلاوة انتهرهم بعنف ليجددوا نشاطهم فى حفظ الدرس ويكرروا الصياح بقوة جديدة .

وكان الكاهن فى بعض الأحايين يتعب من السير بين الأولاد والتلويح لهم بالعصا ، فيجلس القرفصاء وراء منضدته

ثم ترتخى أعصابه فى نصف النهار فيغط فى نوم عميق . عندئذ ينصرف الأولاد إلى معاكسة البنات ، وكثيراً ماكان يستيقظ القسيس على أصوات صراخهن فيهاجم الأولاد بالعصا ويشبعهم ضرباً وتأنيباً .

وقد استغلت بنات حواء طيبة الكاهن ، وأخذنه ملجأ أميناً دائماً ، وتعودن الصراخ بطريقة آلية بحيث أصبح نعاس الكاهن مفتاحاً لصمامة الخطر . وانقطع الصبيان عن معاكسة البنات ، ولم يكففن عن العويل . فباتت راحة المعلم العزيزة على قلبه ضرباً من المحال .

وبعد فتح الكنيسة فى دمياط عاد الأب يوسف إلى مدرسته ، إلا أنه فى هذه المرة أراح نفسه من تعليم البنات ، فعهد إلى منيرة أمر تعليمهن القراءة والكتابة واللعب كما يعهد الحداد صقل الحديد إلى المبرد ، واحتفظ الكاهن لنفسه بمهمة تدريسهن التعليم الدينى .

إن هذا القرار الحكيم أفاد « أبونا » كما أنه أفاد البنات ومنيرة ، فنجحت مدرستها وكانت الأولى من نوعها فى مصر .

كانت منيرة فتاة زكية الفؤاد ، مرهفة الشعور ، ذات صوت رخيم ، فاستعان الكاهن بموهبتها على تعليم البنات التراتيل الدينية .

وكانت الميزة البارزة فى منيرة قوة شخصيتها التى تسيطر على السامع من حيث لايدرى ، وتقوده إلى الموافقة على آرائها ، وقد برعت فى مهمتها الجديدة ، وأحبتها تلميذاتها ، واحترمها الكاهن نفسه ، وكان يثنى عليها ويشجعها داعياً لها بالنجاح والتوفيق .

وكانت منيرة فوق ذلك ذات ذوق سليم وحب للتجديد فلم تكتف بتلقين تلميذاتها الدروس التى فرضها الكاهن بل راحت فى أوقات الفراغ تعلمهن الأغانى اللبنانية القديمة . ورقصة الدبكة ، وتقص عليهن أخبار البطولة وحوادث شهامة سكان الجبل الأشم ...

كم من مرة كان أبونا يوسف يقف من بعيد وراء النافذة أو خلف الباب يرى عشرين فتاة يرقصن الدبكة على إيقاع بديع ، ومنيرة تغنى لهن بصوتها الشجى على « بوالزلف » و « اليادى » وهن يرددن اللازمة بنظام عجيب !

وهكذا توصلت هذه الفتاة بقوة عقلها الطبيعى إلى حل مشكلة من أهم مشاكل التعليم .

ضمت مدرسة البارجة بفرعيها أبناء أعيان المدينة وشيوخها لأن الأب يوسف كان يلقن التلاميذ اللغة الإيطالية علاوة على العربية . وقد تخرج منها صفوة من مسلمى المدينة ومسلماتها مثلوا فى عهد النور ، عهد محمد على ، دوراً ثقافياً شعبياً .

أما والد منيرة فقد استأجر عزبة الشيخ مصطفى وتسلمها خربة فإذا بها بعد أشهر قليلة قد استقامت أمورها ، وترتبت مياهها من رى وصرف ، وصار الفلاحون يحترمون شاهين ويتقيدون بارشاده . إلا أن هذا الكفاح كلفه ثمناً باهظاً دفعه من أعصابه فرحاً لأنه يحب الأرض . وقد دنا حبه هذا من العبادة لما نجحت تلك القطعة التى خصصها لزراعة التوت .

كان غيط التوت هذا مثار فضول دائم عند سائر الفلاحين ،

فقد رأوا يوماً العم شاهين ينقل حزم الأنصاب التى تشبه العيدان اليابسة من مركب جبور شيخ العرب ووجهه مشرق لامع بالعرق المتصبب فوقه وهو يأبى الراحة أو الاستعانة بأحد . وزادت دهشة الفلاحين لما حاول أحدهم أن يمس حزمة من تلك الحزم إذ شاهدوا العم شاهين يقفز كالملسوع ، ويندفع فى تيار من شتائم عربية المبنى همجية النطق تميزوا منها استعداده لقتل من يتجرأ على مس عيدانه . وكأن صاحبنا قد عاد إلى عنفه اللبنانى تحت سماء مصر الهادئة !

وفى أحد الأيام كان شاهين يسهر فى العربة على فلاحة القطعة المحرمة المعدة للتوت ، وكان بعض العمال يكسرون التلاع ، فالتفت شاهين إلى أحدهم وكان كسولا بطيئاً فى عمله وقاله له :

— كسر ياجدع . لاتخف على عرق الجبين فهو وحده غذاء التوت .

— حاضر يا عم .

وظل العامل ثابتاً على خطته دون أن يحيد عنها . فأوغر تصرفه صدر شاهين ، وأعاد عليه الكرة قائلا :

— إنك تكون سارقاً إذا لم تشتغل بعزم .

— أنا أعرف بضميرى وأنت لست مسؤولا عن دينى

— أنا مسؤول عن مالى وشغلى والتوت دين الجميع

ووقعت كلمة دين فى أذن العامل كالشوك ، وأثارته على شاهين عابد الأرض ، فأبدى فى عمله من التوانى والعنت ما أفقد اللبنانى صبره فهجم عليه يريد ضربه ، ونار الغضب تتطاير من

عينيه . ولما رآه ذلك العامل على تلك الحالة الضارية خاف وتراجع مدحوراً ، فلحق به وضربه ضرباً مؤلماً ولم يستطع عشرة رجال إبعاده عنه . وكان يقول لهم : « إن هذا الرجل يدعى القوة فيجب أن أفهمه قدر نفسه » .

فى أثناء الضرب هدأ شاهين وصفا قلبه وتذكر نصيحة زوجته. وندم على فعلته الشنعاء ، وأخذ يلاطف العامل المضروب من جديد كأنه لم يفعل شيئاً .

الأب بولس مسعد

نابليون في مصر

« قيصر أكمل إنسان فى التاريخ لأن عبقريته المثلثة
قد جمعت السياسة والأدب والحرب »
شاتوبريان

مهما تضاربت آراء المؤرخين فى نابليون وحروبه فإنهم يسلمون من غير جدل بأنه كان رجلا بنى مجده مؤثلا ، ووثب إلى الذروة ، وكتب اسمه فى سجل التاريخ بأحرف من دم ونار .

كان الشرق ، ولا يزال سحراً لمخيلات الغربيين وتصوراتهم ، فحلم نابليون ، بعد انتصاره فى معركة إيطاليا ، أن يضفر لهامته إكليل مجد بفتح الشرق ، وأن يؤسس أمبراطورية عظيمة تدك أركان الأمبراطورية البريطانية فى الهند ، وتعيض فرنسا من الخسائر التى منيت بها على أيدى انجلترا فى كندا والهند فى أثناء حرب السنين السبع (من سنة ١٧٥٦ إلى ١٧٦٣) .

كان القائد العظيم على علم من مركز مصر الجغرافى ، وقد عجز من الهجوم المباشر على الجزر البريطانية ، فقرر توجيه الضربة القاصمة لإنجلترا فى مستعمراتها الشاسعة بالاستيلاء على وادى النيل . وأعد لذلك جيشاً مؤلفاً من ستة وثلاثين ألف مقاتل ، وعلى رأسه عصبة من أبسل القواد ، ترافقه مطبعة ، وكوكبة من العلماء والتراجمة تنيف على المئة عدداً .

أبحر بونابرت من ثغر طولون فى ١٩ من مايو (إيار) سنة ١٧٩٨ على أسطول بحرى عظيم ، وكانت بريطانيا عالمة بنواياه ، عاجزة عن معرفة هدفه فأرسلت أسطولا يبحث عنه ويتابعه ، واختارت للقتال أقوى قوادها : الأميرال نلسن . وعلم نابليون بما يضمره له الأسطول المعادى فأخذ حذره منه . وبلغ جزيرة مالطة فاستولى عليها عنوة ثم واصل سيره إلى الإسكندرية . وفى الثانى من يوليو (تموز) دخل المدينة . وقابل واليها محمد الكريم بلطف وإعزاز . وأفهمه أن الفرنسيين لم يأتوا لاحتلال وادى النيل ، بل لإعادة هيبة الباب العالى وسلطانه ، ولتحرير البلاد من ظلم المماليك وتعسفهم . ثم وزع على السكان منشوراً باللغة العربية طبعه فى مطبعة الحملة جاء فيه ما يلى :

بسم الله الرحمن الرحيم

لا إله إلا الله ولا ولد له ولا شريك له فى ملكه .

من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية ، السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرت يعرف أهالى مصر جميعهم ، ان من زمان مديد ، الصناجق الذين يتسلطون فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنساوية ، ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدى ، فحضر الآن ساعة عقوبتهم ، وأخرنا من مدة عصور طويلة تأديب هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الابازة والجراكسة يفسدون فى الإقليم الحسن الأحسن الذى لايوجد مثله فى كرة الأرض كلها . فاما

رب العالمين القادر على كل شيء فانه قد حكم على انقضاء دولتهم .

« يا أيها المصريون قد قيل لكم إنى ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم ، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه . وقولوا للمفترين إنى ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين ، وانى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى ، وأحترم نبيه والقرآن العظيم . وقولوا أيضاً لهم إن جميع الناس متساوون ، وإن الشيء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط . وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب . فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ، ويختصوا بكل شيء أحسن فيها من الجوارى الحسان ، والخيل العتاق ، والمساكن المفرحة . فان كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم . ولكن رب العالمين رؤوف عادل وحليم ...

« أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجربجية وأعيان البلد قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون . وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا فى رومية الكبرى ، وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائماً يحث النصارى على محاربة الإسلام . ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكواللرية الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين . ومع ذلك الفرنساوية فى كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى ، وأعداء لأعدائه أدام الله ملكه . ومع ذلك ان المماليك امتنعوا من طاعة السلطان غير ممتثلين لأمره فما أطاعوا أصلا إلا لطمع أنفسهم .

طوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلى مراتبهم . طوبى أيضاً للذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين ، فاذا عرفونا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب . لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقاً إلى الخلاص ولا يبقى منهم أثر . . .

« الواجب على المشايخ والعلماء والقضاء والأيمة أن يلازموا وظائفهم . وعلى كل أحد من الأهالى أن يبقى فى مسكنه مطمئناً . وكذلك تكون الصلاة قائمة فى الجوامع حسب العادة . والمصريون بأجمعهم ينبغى أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عال أدام الله إجلال السلطان العثمانى . أدام الله إجلال العسكر الفرنساوى . لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية » .

فى كل عصر يلبس المحتل أعماله العدوانية ثياب البر والتقوى ونابليون الذى يدعى تحرير العقل وتقديس الفضائل الانسانية لم يشذ فى أعماله وأقواله عن قواعد المحتلين كما سترى فى هذا الكتاب .

الاب بولس مسعد

نبيل الذبيانى

« المال يغير أخلاق الرجال »
مثل قديم

سرت أنباء احتلال الجيش النابليونى فى مدينة الإسكندرية كالنار فى الهشيم ، وراح السكان يتسقطون الأخبار الصحيحة ، ويجتمعون حول من يعرف القراءة كما تجتمع الزنابير حول شهد العسل.

كل متعلم يحلم بالتقدم والمعالى فى العهد الجديد ، وجلهم يعتقد أن الجيوش الفرنسية ستحطم الأغلال ، ناسين أو متناسين أن إصلاح الأمة لايأتى من الخارج بل من الداخل .

ترك نبيل منزله فى الإسكندرية ، فشاهد المدينة فى حركة غريبة ، والناس متجمهرون فى الأسواق والساحات . وما كاد يصل إلى محل عمله حتى وجد نشرة الجيش الفاتح ملصوقة على بابه ، فأخذ يطالعها بتمهل ، وأحاط به الناس ، فشرع يتلوها عليهم بصوت جهورى ، ويشرحها لهم ، ويتوثب لقنص الثروة .

أما نبيل هذا فهو ابن عبد الله الذبيانى ، الذى غادر بلدته الجميلة « كفرذبيان » وأراضيه الفتانة ، وقصد الإسكندرية ليجمع من التجارة ثروة تضاهى ثروة أولاد عمه ثم يعود إلى مسقط رأسه فيشترى الأملاك والبيوت ، ويجدد نفوذ أسرته ، ويبرهن للملأ أنه هو السيد العبقرى الذى لايشق له غبار .

غادر عبد الله الذبيانى موطنه الفاتن ، تلك الهضبة القائمة فوق ثلاثة من الأودية تتصل بجبل صنين من الشرق ، وتمتد إلى قرب البحر من الغرب . ترك بلدته الجميلة التى أوحى جمالها إلى أجداده اسما عربياً نقلوه منذ قرون بعيدة من مواطنهم الأولى . وقد أثبت القس يوسف سيرة هذا الرجل وسيرة ابنه نبيل لأن موضوع خطبة نبيل بمنيرة أقام نصارى دمياط وأقعدهم ، وقسم جماعتهم قسمين متنابذين ، ظاهر أحدهما القسيس ، وعاداه الآخر ، فجاء هذا الخلاف بين النصارى الشرقيين تحزباً جديداً كانوا بغنى عنه .

وهاك ملخص ماكتبه الأب يوسف :

بعد مشقات لاتحصى وصل عبد الله « الكفر ذبيانى » إلى مدينة الإسكندرية فى صيف سنة ١٧٧٨ ، فاستأجر دكاناً صغيراً ، وتعرف إلى تجار الدخان فيها . فوجد أن أغلبهم من مواطنيه ، فطابت نفسه ، ونزل إلى معترك الحياة يعمل بحماسة . إلا أن الحظ لم يواكبه ، فطوى عشر سنوات لم يكتسب فيها إلا المال القليل . وكانت زوجه إذ تتناول رسائله تبتئس ، وترفع أكف الضراعة إلى الرحمان ليحفظ لها زوجها المغترب وولدها الوحيد . وكانت فى جميع ردودها على زوجها تقول له : « القناعة كنز لايفنى . عد إلى القرية لتربى ابنك »

وجرت الأقدار فى أعنتها ، وعبد الله مواظب على عمله من غير ما جدوى إلى أن أدركه مرض عضال سمره فى فراش الأوجاع وإذ رأى نفسه مستريحاً فى أحد الأيام كتب إلى زوجته الرسالة الآتية :

« . . . فى المدة الإخيرة قد حصل زيادة وداد ما بيننا وحضرة ابن عمنا فى طنطا حتى بقى لنا عنده دالة زائدة وحب صادق . ففاتحناه فى الأمر ، وقدمنا له جملة براهين ليساعدنا فنكون له شاكرين طول العمر . فالمذكور أظهر لنا تمام خاطره وقصد مساعدتنا . ولكن ماكاد يسافر إلى طنطا ليرسل إلينا بالبضاعة حتى سقطنا فى المرض . »

« أكتب اليك ياابنة عمى هذه الكلمة بيد مرتجفة . . ربما لانقوم من هذه « الوقعة » . خذى بالك من نبيل ، ووصيتى لك وله إن مت أن تأتى به إلى مصر ليتسلم أشغالى ويتمم ما بدأت به لأننى شققت له الطريق . . . لاتبكى على بل إعملى لى جنازاً حافلا فى القرية . . . » .

نفذت الزوجة الوفية وصية زوجها ، وجاءت إلى الإسكندرية صحبة ابنها فوصلا إليها قبيل الحملة الفرنسية . وكان أول عمل قاما به زيارة ضريح عزيزهما حيث ذرفا الدموع السخينة ، وعاهدت الزوجة رفيق حياتها الراحل على القيام بما أوصاها به .

إن هذه الزيارة المحزنة فجرت فى أعماق نبيل عدة ينابيع من الأحاسيس المكبوتة . فتذكر والده وكيف كان يحرث الكرم ويشذبه كما تمثله مكباً على تجارته

لم يكن نبيل من أصحاب المبادىء السامية بل من عاشقى المال يشمر للحاق بالقرش فى أوعر السبل ، ويغوص عليه فى الحمآت . لايبالى بكرامته إذا كسب ، وكل شىء جائز فى شرعه ما زال فيه

الربح . لو لعنته ، وأنبت عنك قرشاً ، ولو من قروش أيامنا ، فى الاعتذار إليه ، لابتسم لك كأنه لم يحدث شىء بينكما .

هبطت عليه الثروة كتلك الهابطة من السماك الأرفع على الشيخ الرئيس فضاع عقله ، وخيل إليه أنه قد بلغ ذروة المجد والسؤدد ، وأن الحياة بمتعها ومباهجها قد خرت ساجدة لاسمه . نسى أهله وأقاربه وأصدقاءه ، وتنكر لجيرانه وللمحسنين إليه . كان وديعاً حليما فانقلب فظاً غليظ القلب لايتورع عن إهانة من يرد فى وجهه الجواب . إذا ركب عربته انتفخت أوداجه ، وهز منشته بين يديه بحركة عصبية كأنه الحاكم بأمره . وعندما يقول للسائق سق نجبه : « حاضر يا سعادة البك » . فيحكم قعدته ، ويرفع رجليه إلى الأمام ، ويخاطب نفسه منتفخاً : « هنيئاً لك يا سيدى . لقد صرت من أصحاب السعادة . بعد أن كنت تشتهى العضة بالرغيف صار الذهب الوهاج مكدساً فى خزانتك » . لقد صحت فى صاحبنا حكمة القائل : « المال يغير أخلاق الرجال » .

إن هذه الحالة أهابت بالحاج على جار نبيل ، وصديقه المخلص أن يذهب إليه فى أحد الأيام ، ويسدى إليه النصح والإرشاد مبيناً له أن الإنسان بخلقه لا بماله . فسخر منه وقال له : « أنت يا صاح لاتفهم الحياة على حقيقتها . إن المال هو العز والعمار » . قنط الحاج من إصلاحه وعاد أدراجه كئيباً ، وهو يقول : « ليته لم يثر وبقى إنساناً ! » .

ولت حياة الجهاد وأدبرت ، وحلت مكانها حياة الترف

والإسراف فى كل شىء . فضعفت صحة الشاب ، وصار الهواء الطلق يؤذيه ، والعرق يزكمه ويلزمه السرير عدة أيام ، فكأنه هو الذى عناه الشاعر العربى بقوله :

خطرات النسيم تجرح خديه ولمس الحرير يدمى بنانه

التفت نبيل حوله فاذا هو لم يبق على صديق واحد ، وإذا هو لايعير ذلك أدنى اهتمام ، لأنه ثمل بخمر المجد . وزادت والدته الطين بلة ، فنزعت فى الحياة منزع ابنها وقدسته فى السر والعلانية ، ورددت أمام الجميع هذا القول : « زوجى مات ونحن نأكل الخبز الحاف ، وفى وقت قصير قبر ابنى الفقر » .

لقد أصبح البيت القديم غير لائق بحضرة صاحب السعادة ، فاشترى منزلا فخما فيه مربط للخيول العربية ، وخان للعربات تحيط به حديقة غناء . . . انتقلت إليه والدته باحتفال رائع واستخدمت الإماء والخدم ، فوقفوا ينفذون أوامر صاحبة العصمة ، ويقدمون لها الاحترام . وإظهاراً لمجدها ومجد ابنها أخذت الأم تدعو ربات البيوتات العريقة إلى قصرها ، وتقيم لهن المآدب ، وتطوى معهن الأوقات فى الأحاديث السخيفة ، وتتظاهر أنها لاتقل عنهن شرفاً ومحتداً ناسية الخبز القفار ، والجرة التى أكلت من كتفها فى جبال لبنان !

قالت لها فى ذات يوم من أيام المآدب سيدة معروفة بذوقها وحنكتها :

— لايكمل دين الإنسان إلا بالزواج . إن ابنك فى شرخ شبابه ، فيجب عليك أن تشجعيه على الزواج .

— يا ليته يقبر أمه . إنه لم يبلغ العشرين من عمره ، وقد رزق ثروة ضخمة ، فحرام على أن أربطه برباط الزواج من اليوم

— إذا لم تزوجيه فسدت أخلاقه ، وتمرد عليك

أخاف هذا القول الوالدة المسكينة ، لكنها لم ترد إظهار خوفها أمام المتحدثة فردت عليها :

— لا إن ابنى من خير الأبناء تهذيباً ، وأسلسهم قياداً . . . إننى واثقة من أخلاقه .

— ليست المسألة كما تتصورين . إن الزواج الباكر ينعى البيوت . ألا تتذكرين ما قلته لنا مراراً أن زوجك قد تزوجك وله من العمر ثمانية عشر ربيعاً ، وأنت فى الرابعة عشرة ؟

— الحق معك . سأرى .

— إننى أعرف فتاة بارعة الجمال ، وهى مثالكم شامية . أظن أنها تصلح زوجة لابنك .

— أليست مارى كوسا ؟

— نعم هى بعينها .

— لكنها لاتلائم ذوق ابنى ، لأنه يحب الجمال الخارق ، وأنا أريد أن يقترن بأجمل فتاة فى مصر .

كظمت المحدثة غيظها لأنها كانت تحب مارى وقالت للوالدة :

— لك ما تريدين .

راحت الأم بعد خروج الزائرات تفكر فى ابتكار خطة لم ينهجها أحد الأثرياء من قبلها فى تزويج ابنه أو ابنته . هم ورثوا

الغنى وابنها اكتسب الثروة بكده ومهارته ، فهو خير منهم وله أن يتفنن فى امتلاك متع الحياة .

ثم جلست على مقعدها الوثير ، ووضعت يدها على خدها تشحذ فكرها وأخذت تخاطب نفسها :

« نكتب إلى جميع الكهنة الشاميين فى القاهرة ، وطنطا ، ودمياط ، والمنصورة ، ونخبرهم بأن الله من علينا بثروة طائلة ، وجاه وسيع . وأن نبيلا يريد الزوج بأجمل فتاة من أصل شامى فى مصر . وكل كاهن يقوم بهذه المهمة تكون له المكافأة الجزيلة » .

ثم طحرت وزحرت فى تغيير جلستها وواصلت حديثها مع نفسها : « حفظاً لكرامتى سأوعز إلى ابنى فى أن يشترط على الكهنة بأن يقوم بنفسه بجميع نفقات العرس ، و يجود على العروس وأهلها بجواهر وحلى وهدايا . . . حبيبى نبيل إنه لايخالف لى رغبة . . . سأطلب منه أن يكتب فى كل رسالة حاشية باسمى إلى القسيس لكى يفهم العروس أن والدة العريس تقدم لها شخصياً التقادم الثمينة ، وتتنازل لها عن إدارة المنزل »

راجعت الوالدة هذا التصميم مراراً فراقها .

وما كاد الليل يرخى سدوله حتى عاد نبيل إلى منزله بعربته الفخمة تجرها الجياد المطهمة ، فقابلته والدته بحرارة لم يلمسها فيها إلا فى الأوقات التى تريد منه طلباً خطيراً .

كانت الوالدة «هانم» تتبختر فى الدار ، وتصدر الأوامر إلى الخدم فى إحضار العشاء لوحيدها ثم جلست على مقربة من ابنها

تحادثة وتشرح له بفطنة ما درسته ووسعته من وقت وجيز . فكان يلتهم الأكل بشراهة تخجل الثيران ، ويكتفى بالرد على والدته بهذه العبارة التقليدية : « إننى طوع بنانك » .

كان نبيل نفسه قد فكر جدياً فى الزواج إنما خوفه من عدم اتفاق والدته مع زوجته جعله ينكمش . أما وقد رغبت الوالدة إليه ، ورجت منه أن يتزوج فلا بأس من أن يطاوعها مظهراً لها أنها هى صاحبة الفكرة ، وهو ولد مطيع .

فى اليوم التالى كتب الفتى إلى الكهنة الشاميين فى مصر يستفسر عن أجمل فتاة فى رعيتهم وأرسل بناء على نصيحة الوالدة «بنتو» إلى كل منهم حسنة قداس . (والذهبية الفرنسية فى تلك الأيام تفك حبال المشانق) قالت الوالدة : برهن لهم أنك ستكون عوناً فى الشدائد ، فاذا نزل بهم ظلم ، أو أقفلت كنائسهم أو أرهقتهم الضرائب فإنك ستهب إلى مساعدتهم .

— أقوال نافعة لنجاح الموضوع ، لكن إذا حصل شىء من ذلك ، فكيف يكون الخروج من هذا المأزق ؟

— لاتخف . الأمور مرهونة بأوقاتها .

كانت مشكلة المشاكل عند صاحبنا الخطوط الرئيسية التى يطلبها فى الزوجة العتيدة . أيكتب إلى الكهنة أنه يحبها شقراء أم سمراء أم بيضاء أم قمحية اللون ؟ طويلة أم قصيرة ؟ بدينة أم نحيلة ؟ إنه هو نفسه لايعرف ما يحب .

عثرت على نسخة كاملة من رسالة نبيل إلى الكهنة الشاميين ، فاذا أفكار صاحبها الساذجة تضحك الثكلى ، ولا غضاضة على القارىء فى مطالعتها ، والتعرف إلى عقلية منشئها :

« حضرة الأب الجزيل الاحترام أدام الله تعالى بره وبقاءه

غب لثم يدكم النقية والتماس خير أدعيتكم الطاهرة المستجابة على الدوام المعروض على أبوتكم أنى بعونه تعالى وبركة صلاتكم قد كسبت فى هذه المدات فلوساً كثيرة ، ووالدتى محتمة على الزواج بفتاة تناسبنى فى العمر والشكل . وبما أنى فى الإسكندرية لم أجد مرغوبى ، وبلغنى أنه يوجد فى رعيتكم بنات أبكار جميلات ، فانى أريد منكم أن تختاروا لى ابنة أفخر الموجود ، وأن يكون والدها مولوداً فى بر الشام ، ولو كان فقير الحال .

واصل إليكم مع حامله ليرة حسنة قداس واحد إن شاء الله يكون مقبولا . ونحن مستعدون أن نساعدكم فى كلى وجزئى ، وخصوصاً فى أوقات الشدائد نجانا الله وإياكم منها . لايازم أن نحث همتكم وغيرتكم أكثر من ذلك ، ونؤمل عدم بعدنا من دائرة دعائكم على الدوام » .

لو عرف القسيس أخلاق نبيل لما استقبل رسوله ، غير أن المثل القائل : « أطعم الفم تستح العين » قد عمل عمله فى نفس الأب يوسف ، فاتخذ أقوال الرسول عن أخلاق نبيل العالية وتهذيبه الكامل وتدينه الراسخ قضية إيمانية لاتقبل الأخذ والرد . . .

إن تصديقنا السريع للغير يكون فى أغلب الأحايين نكبة علينا !

الاب بولس مسعد

المؤامرة

« ما الحب إلا للحبيب الأول »
شاعر عربي

من المحال أن ينسى القسيس ما تجشمه من متاعب وما احتمله من مشقات فى خلال مراحل خدمته الدينية فى مدينة دمياط . ومن المحال أن ينسى أن المال لازم له لإصلاح المعبد وتنظيمه وتحسين معيشته وللإنفاق على الفقراء واللاجئين .

جلس الراهب يوماً جلسته التقليدية فى منزل الشيخ يشرب معه القهوة العربية اللذيذة ، ويدخنان « الشبق » ويتجاذبان أطراف الحديث .

قال القسيس : « ورد إلى كتاب من رجل مقيم فى الإسكندرية يدعى نبيل الذبيانى قد بسم له الحظ واكتسب مالا وافراً ويريد عروساً . هاك الكتاب » .

قرأه الشيخ هازاً برأسه علامة الاستغراب والتفت إلى محدثه قائلا : « ما شاء الله . أعرف والده . كان الرجل يشتهى العضة بالرغيف . غريب كيف أثرى ابنه بمدة وجيزة ؟ الله المعطى » .

— ما رأيك يا شيخ مصطفى فى ابنة بطرس الحصرى ؟ ألا تليق أن تكون زوجة لنبيل ؟

— والله إن بناتكم كلهن مهذبات طاهرات الذيل . ومريم

الحصرى تصلح من جهة أخلاقها ، واتزان عقلها أن تكون زوجة أمير . غير أنها ليست بارعة الجمال .

— أتعرف ابنة ملحم جرجس ؟ أظن أنها طبق المرغوب ! »

— أعلم عن هذه الفتاة من ابنتى فاطمة أنها تحب ابن عمها ، ولن ترضى عن الزواج به بديلا .

فرك الكاهن جبهته وشحذ ذاكرته مطرقاً فى الأرض ثم قال :

— ما رأيك فى منيرة ابنة شاهين ؟ .

— هذا ماكنت أريد أن ألفت نظرك إليه . إنها بارعة الجمال ومفرطة الذكاء ومهذبة وتجيد القراءة والكتابة وذات صوت رخيم . . . إنها كاملة .

— « إنما يا خسارة ! من يعلم بعدها البنات ويرتب أثاث المعبد ، وينظف البدلات وأغطية المذابح ؟

— لايجوز أن تقف حجر عثرة فى وجه الفتاة .

— الحق معك يا شيخ .

على الأثر نادى الشيخ شاهين وقال له : « إجلس إن الأب يوسف يريد أن يعطيك « حلوان » التوت .

ضحك الثلاثة وقال الكاهن :

— إسمع يا شاهين . انابنتك منيرة مطلوبة للزواج برجل تاجر عمدة فى الإسكندرية فهل توافق على ذلك ؟

— منيرة مازالت صغيرة ووالدتها تعبة من الهموم والنكبات وتحتاج لمساعدتها فى إدارة البيت . . .

— قم أدع أمها

رعد صوت شاهين فى البارجة فهز أركانها ولم تمض ثوان حتى دخلت الوالدة بأدب وسلمت على الأب والشيخ وجلست تستمع إلى الحديث . قال الكاهن : وجدنا عريساً عظيما لمنيرة . أنا والشيخ موافقان على هذة القسمة .

— ربنا لايحرمنا عطفكما . لكن أين هو العريس ؟

— إنه فى الإسكندرية .

— هذا غير ممكن . لأن قلبى لايطيق فرقة منيرة . إنها ملاك البيت الصداح .

— إذا وافقتما الآن على الزواج مبدئياً ، فهذا ليس معناه أن كل شىء قد تم . حرام عليكما أن تضيعا نصيب الفتاة .... الله فى يوم الدين يعاقب الأنانية . أنتما تعرفان محبتنا لكما ولمصلحة منيرة . . . إن حظها يخزى العين .

قال الوالد : أنا متأكد من محبتك ومحبة شيخنا الجليل لنا ، ولن ننسى أفضالكما علينا . فاذا كنتما تجدان فى هذا الزواج سعادة ابنتى فأنا موافق عليه . . . أنا وبيتى تحت أمركما .

— إننى بلسانى وبلسان الشيخ أقول لك : إن هذا النصيب حلم لم تحلم به فتاة . . . إنه فوق كل وصف .

— إننى طوع لكما .

— الله يرضى عليك يا ابنى .

كرر الشيخ العبارة نفسها وزاد قائلا : لاتترك هذا النصيب يفلت من يد ابنتك يا شاهين .

احتدمت الوالدة غيظاً ، فنهضت من مكانها حانقة وقالت :

— أنتم أصحاب فضل علينا ، ولا يمكننا أن نمشى ضد خاطركم لكن من المستحيل أن أرضى بابعاد ابنتى عنى . لا . . ان زيارتها ولو مرة واحدة فى السنة هى سفر شاق . . . أرجو أيها الأب أن تعدلوا عن هذا المشروع . . . نحن بفضلكما بألف خير ، واسنا بمحتاجين أن ندهور البنت .

أثار هذا العناد طبع شاهين فانتفض ورد على زوجته قائلا : « إن الأب يوسف والشيخ مصطفى أفهم منى ومنك » .

قال الكاهن : يقول الكثيرون إن نبيلا هو رجل يخاف الله وله والدة قديسة وهو مستعد كما كتب إلى أن يبذل جهده لإسعاد زوجته وأهلها .

ثم التفت إلى الوالدة وقال لها : إنك يا ابنتى ترفضين نعمة الله . ففكرى جيداً ووافقى على رأيى لأنه سيكون لخيركم جميعاً .

قال شاهين : يا أمرأة أبونا يوسف يحبنا ، والشيخ يحافظ علينا كأولاده فلم العناد ؟ اتكلى عليهما وعلى الله والعاقبة خير إن أراد المولى .

أنهى شاهين حديثه وسار مع زوجته إلى المنزل يحاول إقناعها بما يصوره لها من أسباب السعادة التى تنتظر فتاتهما وتنتظرهما أيضاً . وسر الكاهن من نجاحه ولم يدر أن منيرة كانت عند بنات الشيخ وقد سمعت الحديث كله بمجرد و قوفها وراء الباب الذى يفصل غرفة الأولاد عن غرفة الجلوس . ولما حاول الوالد فى الليل إقناع

فتاته تظاهرت بالنعاس لتبعد الشبهة عنها . إلا أن كل كلمة من كلمات والدها كانت تقع فى أذنيها كأنها الشوك والجمر .

— قال الوالد : يا منيرة . أنا يهمنى مستقبلك وأريد أن تعيشى سعيدة . . . لقد صرت عروساً فيجب أن نفكر فى زواجك حتى أموت قرير العين .

— بعيد الشر عن قلبك يا أبى ... على كل حال لاتحمل همى لأننى أحب الصلاة والعبادة . فاذا ضاقت الدنيا فى وجهى دخلت الدير .

— قالت الوالدة : تقبرى أمك يا منيرة . . . من كانت مثلك جميلة ولطيفة لايجوز أن تدفن شبابها فى الدير . . . ليس عندنا عشرين منيرة . أنا ووالدك نريد أن نفرح بك قبلما نموت .

اغرورقت عينا الفتاة بالدموع ، وجاست واجمة ، فدنت منها والدتها تلاطفها وتداعبها . وغادر الوالد الغرفة تاركاً الأم مهمة الإقناع .

وفى الغد كتب الأب يوسف إلى نبيل يخبره بما جرى وأنه أقنع الوالدين مبدئياً بالزواج ، وأن منيرة ابنة شاهين العشقوتى ليست أجمل فتاة فى مصر بل فى الشرق كله .

وصل الكتاب إلى نبيل ففرح به فرحاً عظيما وأشرك والدته فى فرحه كما أنه أثنى ثناء عاطراً على همة القسيس وكتب يقول له :

« عن قريب سأرسل الخطبة إلى صديق والدى القديم يوسف مرعى . وإن شاء الله يتم كل شىء على خير بعون المولى وبركة صلاتكم »

الأب بولس مسعد

راهب مترجم

« ما المدح سوى نقد زائف لايروجه إلا غرورنا »
روشفوكو

بينما كان نبيل يحلم بالعروس الجميلة ، ويعد الخطط التى تحقق حلمه ، ويكدس القطع الذهبية فى خزانته المتينة ، كانت فرقة من جيوش نابليون تسير حثيثاً إلى فتح ثغر دمياط ومدينة المنصورة التى اندحر فيها القديس لويس ملك فرنسا وانهزم شر هزيمة ، وربط فى سجن مظلم هناك لايزال معروفاً باسمه حتى أيامنا هذه .

وغنى عن البيان أن القواد الفرنسيين وجنودهم لايفهمون العربية فكانوا يصحبون معهم فى حملاتهم كتيبة من التراجمة لتكون هيئة اتصال بين الشعب والقيادة العسكرية تترجم الأوامر والمحاكمات وتنقل رغبات الشعب إلى القائد العام .

كان رئيس المترجمين الذين رافقوا حملة دمياط والمنصورة شاباً لبنانياً يدعى أنطون مشحره طويل النجاد ، متوقد الذكاء ، جميل الهيأة ، حلو الحديث ، أخلاقه أسلس من الماء وألين من من أعطاف النسيم ، لايستفزه نزق ولا يستخفه غضب ، يكاد يمازج الأرواح لرقته ، وتشربه النفوس لعذوبته . فلا يجوز أن نمر به دون أن نكشف النقاب عن سيرة حياته نظراً للدور الخفى العظيم الأثر الذى مثله .

نشأ أنطون فى أعطاف أسرة لبنانية فقيرة ، وتربى تربية قاسية ، وتعلم فى مدرسة السنديانة القراءة والكتابة والخط ومبادىء اللغة السريانية ثم خرج من المدرسة يرعى أبقار والده ، ويجمع لها العلف فى أيام العمل . ولما تفتح ذكاؤه تأمل حالته وهاله أمر نفسه من أن يعيش طوال حياته على وتيرة واحدة فابتئس .

فى أحد الأيام سمع ضجة فى منزل عمه فهرع يتسقط الأخبار فرأى الوالدة تبكى ، والوالد يسير فى عرصة الدار ذهاباً وإياباً ويمطر زوجته بالشتائم واللعنات لأنها أصل المصيبة ، والأولاد الصغار وعددهم ستة فى وجوم لايعرفون ماذا يصنعون . عاد أنطون إلى بيته مذعوراً وأيقظ والده من نومه وسارا معاً إلى مكان الموقعة يوقفان الشر عند حده . فاستقبل الرجل أخاه قائلا بغضب :

— استيقظنا صباحاً فلم نجد موسى فى فراشه . فتشت البيت كله فلم أعثر له على أثر . سألت الجيران فأنكروا معرفة أى شىء . كل ذلك وزوجتى هادئة لايلسعها برغوث . أخيراً سألتها عن الصبى فقالت بكل برود : « بما أنك مانعت فى أمر دخوله الرهبنة ، وطردت الكاهن مرشده ، فانه هرب من المنزل وقبلى قبل ذهابه وقال لى : لاتشغلى بالك على أماه إننى غاد إلى الدير . . . » أنظر ما هذه البلادة ! إن نسوان اليوم أصبحن وقراً ثقيلا لايطاق . يدبرن كل شىء ويتفقن مع الأولاد على غير علم الرجل فكأنه آلة فى البيت لحمل التموين إليه . . . لاأستطيع الاستغناء عن ابنى . من يساعدنى فى فلاحة الكروم والقلع والغرس؟ اخوته لايزالون صغاراً .

عندئذ دنا منه شقيقه وقال له : إنك على حق ، فلا النسوان ولا الأولاد يسمعون كلامنا . كأنهم هم أرباب المنزل ، ولايعرفوننا إلاوقت الأكل وطلب الدراهم . ما تشكو منه الآن كاد يصيبنى لولا قوة عضلاتى . لقد أظهر لى هذه الفكرة ابنى أنطون ، فهجمت عليه بالمساس وضربته ضرباً شديداً وقلت له : إن ذهبت إلى الدير فالويل لك . سأنتف إذن والله لحية الرئيس وأذبحك على باب الدير . إنك ولد كسلان تريد أن تعيش من تعب غيرك . . . لو صنعت بابنك ما صنعته لما تجرأ على الهرب .

— لو عرفت مقره للحقت به . لكن الأديار حولنا اكثر من الهم على القلب . . . سأتركه وشأنه ولكن لعنتى ستر افقه إلى القبر ولن يعرف التوفيق فى حياته .

رجع أنطون إلى البيت يفكر فيما صنعه ابن عمه ، ويثنى فى قرارة نفسه على شجاعته وإقدامه . وعزم على الاقتداء به مهما كلفه ذلك من ثمن . . .

لم يمض شهر على هذا الحادث ، حتى لحق أنطون بابن عمه فسر به وأكرم مثواه ، وشهد به شهادة حسنة أمام الرئيس فقبله فى مصاف المبتدئين . كان الثوب البالى يزعجه وكان فى كل يوم يرتقه لابخيوط بل بقضبان اللزان اللينة . وكان زنار الشعر الأسود يؤلمه ويسلخ وسطه من حين لآخر . أما القبعة الشنيعة التى تغطى عيونه فان تعذيبها له لايقع تحت حصر . غير أنه كان يشجع نفسه قائلا :

« إن أيام الابتداء قاسية لكنها لاتستمر سوى سنتين ثم أنقل إلى المدرسة فأتم دروسى ، وأصير واعظاً شهيراً كالأب نتنائيل يقدم لى الناس الاحترام ولعل الحظ يبتسم لى فأرسم مطراناً فأحكم الأبرشية كما أحب وأريد ، وبسجد لى الشعب ، بل السادة ، وتقرع لى الأجراس . . . »

غذت هذه الأفكار عقلية صاحبنا فى مدة التجربة . إلا أنه فى أحد الأيام كاد يقنط من الوصول إلى لبس الاسكيم الرهبانى . الرئيس يقسو عليه بنوع خاص ، لأنه خائف من حيويته الدفاقة ، وطموحه الذى لاحد له ، وذكائه المفرط ويقول فى نفسه : « إن هذا المبتدىء قد ينتزع منى بعد عدد من السنين رياسة الدير ويسبقنى إلى المدبرية ، وقد ينتخب رئيساً عاماً أجثو أمامه وأقبل يده وأخضع لإشارة منه . . فيجب أن أنزل به العقاب الشديد لأتفه الأسباب فيقنط ويعود إلى العالم » .

حدث مرة أن قطع أنطون أغصان سنديانة الدير ليقدمها طعاماً سائغاً لبقراته وكان الثلج قد سد الأبواب ، والبقرات قد أضربت عن أكل التبن والجزة ، فأشفق صاحبنا على البهائم وأتاها بالسنديان الأخضر فالتهمته وكان إقبالها عليه خير جزاء له . ذاب الثلج وأدار الرئيس طرفه حول الدير فرأى السنديانة قرعاء وسأل عن الفاعل فقيل له : الأخ أنطون فضمر له الشر وجاءه مزمجراً وقال له : « لماذا قطعت أغصان الشجرة » وإذ خاف الشاب فأنكر فعلته ، سنحت للرئيس فرصة للانتقام ، فأمر المبتدىء بالركوع

تحت الأمطار فى ساحة الدير ، ثم أدخله غرفة العقاب وأتاه أحد الأخوة بجمرة وختم عليه ثمها ففعل وتورمت شفتاه .

إن هذا القصاص البربرى كاد يدفع الأخ أنطون إلى ترك الرهبنة . إلا أن شراسة والده حفظته فى الدير فعض جرحه ونام على الضيم .

مرت الأيام سراعاً وأيام البؤس تمر كأيام الرخاء ، وانتهت مدة التجربة فألبس الأخ أنطون الإسكيم الرهبانى ، وعاد إلى حظيرة الإنسانية . وصار المبتدئون يركعون أمامه ويقبلون يده ويغسلون أقدامه وينشفونها ثم يبوسونها .

إن هذه المظاهر الفارغة شددت عزمه فأخذ يشكر ربه الذى خلصه من فلاحة الأرض والجرى وراء الأبقار فى الحقول وحمل الحطب على ظهره .

كان الأخ أنطون فى مدرسته الأول فى صفه فتوسم فيه الرؤساء الخير ، وأجزلوا له العطاء ، وشجعوه على الدرس والتحصيل ليكون فى مستقبل الأيام عالم الرهبنة وعلمها الخفاق فضاعف الكد والاجتهاد ، وأتقن فى وقت وجيز قواعد العربية ، وتعلم مبادىء اللغتين اللاتينية والإيطالية . وإذ جاء الرئيس العام يزور دير المدرسة أثنى على الأخ أنطون الثناء العاطر ، لأن المعلمين قد نقلوا إلى قدسه أخبار اجتهاد هذا التلميذ النابغ وصدر نطق الرئيس :

« بما أنك كنت ناجحاً فى دروسك فانى أعطيك عطلة شهر لتطويه بين أهلك وأصحابك ثم تذهب إلى روما لتتقن العلوم

الفلسفية واللاهوتية ، وترجع إلينا كاهناً جليلا تتسنم أعلى المراتب» ثم نفحه بليرة ذهبية فانحنى بخشوع على يد الرئيس العام وقبلها شاكراً .

كانت تلك الذهبية بالنسبة إلى همة الأخ أنطون حجر شحذ سنت نشاطه ، وزادت طموحه ، وألهمته ثقة لاحد لها !

سافر صاحبنا إلى روما أم المدائن مزوداً ببركة رؤسائه إلا أن نزوات نفسه كانت أقوى من تلك البركة. أكب على الدرس مدة ثلاث سنوات ، فأتقن اللغات اللاتينية والإيطالية والفرنسية وكاد يحصل على شهادة الدكتوراه فى الفلسفة لولا نشوب الحرب النبوليونية فى إيطاليا ، ودخول القائد روما ظافراً .

لم يحترم نابليون دور العلم ، ولا رجال الدين بل دك المدارس الدينية من أساسها ، وشرد تلامذتها ، فلم يبق منهم على دعوته إلا متين العقيدة ، وسام البابا ألوان الهوان ، ونقل تحف الفاتيكان إلى فرنسا . وانضم أنطون تحت العلم النابوليونى وترك الدير ، ونسى أحلامه ، ووجد المجال فسيحاً لطموحه فأرخى العنان له .

وفى الحق أن أنطون مشحرة كان من الرجال الذين أحبوا مصر ، وعشقوها وعملوا على رفعة شأنها وعلو منارها كما سنرى .

الاب بولس مسعد

عصابة دمياط

« أيتها الحرية كم من الجرائم ترتكب باسمك »
رولات

لم تجد الفرقة الفرنسية فى طريقها أية مقاومة منظمة ، ففتحت دمياط والمنصورة ، وركزت عليهما علم فرنسا ، وأعادت تاريخ لويس ملك فرنسا وجنوده ، إنما بالنصر لا بالأسر .

يقول الأب يوسف عن نفسه وعن الشيخ مصطفى :

« شاهدنا الجنود يهتكون الأعراض ، ويصادرون البغال والحمير وما ينفعهم من المواشى والحاجيات ، وعقدنا العزيمة على محاربتهم حرب العصابات ، فجمعنا رجالنا الأشداء المخلصين ، وأفهمناهم ما نريد من وراء هذا العصيان ، وأن مصلحة الرعية تفرض عليهم إراقة دمائهم فى سبيل أنقاذ عيالهم ، وحقوقهم المهضومة ، وحريتهم المساوبة ، وأعراضهم المهتوكة » .

كان أول ما فكر فيه رجال هذه العصابة هو السطو على مؤنة الجيش ، وإنزال الخسائر الفادحة بناقلى العتاد ، فضج القائد من هذه النكبات الصامتة ، وأرعد وأزبد ، وصمم على الانتقام من الفاعلين انتقاماً يروع أسد الغاب ، وحيتان البحر .

وحدث فى أحد الأيام أن وصلت إلى ميناء دمياط قافلة من المراكب المثقلة بالعتاد والمؤن ، فتربص لها رجال العصابة ،

وارتدى شاهين وإبرهيم ابن الشيخ مصطفى ثياب الجنود الفرنسيين ، واقتربا من المراكب فى جنح الظلام ، وفى غفلة من الحراس أضرما النار فيها ثم هربا دون أن ينكشف أمرهما لأحد .

أما إبرهيم فقد سبق زميله شاهين ، وخشى تطفل الجيران ، فابتعد عن البارجة ، ولحق بالثوار المرابطين خارج المدينة ينتظر الحوادث ويتأهب لها . وأما شاهين فقد جاء إلى البارجة بثياب الجندية ، فلفت إليه الأنظار . وكان الجيران فى سمر فأخذوا يتقولون الأقاويل ، وخصوصاً أن شاهين خلع ثيابه على أثر وصوله إلى البيت ، وأشعل بها النيران ، وارتدى لباسه العادى ، فشعر أحد الجيران باللعبة ، وسعى بصاحبنا لدى القيادة المحلية ، فلم ينطو يوم واحد حتى هاجم الجند البارجة . وألقوا القبض على شاهين والشيخ مصطفى ، واقتادوهما إلى غيابات السجون .

دب الرعب فى قلب منيرة وأمها فغادرتا المنزل مشعثتين ، عند منتصف الليل وقت القبض على بطلى المقاومة ، وسارتا إلى مسكن الكاهن ، فأجفل من سريره .

نهض مسرعاً يسمع صراخهما وأقوالها ، فاذا بأولاد الشيخ وزوجه يهرعون إلى الكاهن أيضاً ، فيمتزج بكاء الأسرتين كما امتزجت أفراحهما من قبل . فيطيب القسيس خاطرهم ويقول لهم :

— لاتخافوا إن الله معنا . ألقوا عليه همكم وهو يعولكم ... الله معنا فلا يقدر أحد علينا .

كان الأب يوسف يعرف أن القبض على أى إنسان فى الليل

معناه فى لغة الاحتلال البغيض الموت المحقق ، لكنه أظهر الصبر والتجلد أمام أفراد الأسرتين ، وشدد عزائمهم ، ووعدهم بأنه سيبذل ماله ونفوذه ، وإذا اقتضى الأمر ، حياته فى سبيل إنقاذ صديقيه .

وانصرف المستغيثون من منزل الكاهن ، فعاد إلى غرفته تكاد تنشق روحه من الحزن . وأخذ يصلى قائلا : « اللهم علمنى كيف أخلص عبديك مصطفى وشاهين » ثم شردت أفكاره فى فيافى التصورات الكئيبة ، فتمثل صديقيه فى ظلمات السجن بين القتلة وقطاع الطرق ، فذرف دمعة حرى عليهما ثم انتبه لنفسه ، وأنه واقف للصلاة فقال : « لاتدخلنا فى التجارب يارب » إلا أنه رأى التجربة محدقة به من كل ناحية ، فاستتلى قائلا : « أية تجربة أعظم من هذه المحنة ؟ صديقى ومنقذى قد زج به فى السجن بين اللصوص ! إنه لم يرتكب ذنباً . أأصبح الدفاع عن حياض الوطن جريمة ؟ لا يارب ، إنك أنت الحق بالذات ، والرشوة مرذولة لديك . عدلك شامل وأفكار البشر لاتؤثر فيه » .

ظل الكاهن على هذه الحالة القلقة حتى الساعة الرابعة صباحاً ، فذهب إلى الكنيسة يستعد لتلاوة القداس الألهى وسط اضطراب فكرى لايحدث الإنسان إلا فى أبان الساعات العاصفة من حياته ثم قدس بحرارة عظيمة . وأكل كسرة من الخبز الناشف ، وهرع إلى مسكن القائد . ولم تمض عليه خمس دقائق حتى كان واقفاً فى الباب ، عبثاً حاول الدخول لأن الحراس الشاكى السلاح أفهموه

أن القائد لايقابل أحداً قبل الساعة الثامنة ، وأنه اليوم كثير المشاغل لأن المحكمة العسكرية ستشرع فى عقد جلساتها عند التاسعة صباحاً . عندئذ طلب القسيس مقابلة ضابط الاتصال فقيل له إنه يقطن فى منزل مستقل ، فاستدل عليه ، وهرول إليه مستجيراً . لكن شد ماكانت دهشته لما رأى نفسه بحضرة الأخ أنطون الذى كان يعطف عليه يوم كان مبتدئاً . غير أنه كذب ذاته قائلا : « لا إن الأخ أنطون كان رصيناً ، بعيد النظر ، راجح العقل ، لايترك ثوب الرهبنة بعد أن أبرز النذور الاحتفالية المؤبدة . . . إن البشر لمتشابهون فى أشكالهم وهيئاتهم » .

وإذ كان الكاهن حائراً فى أمر هذا الضابط قال له : « ماذا تريد أيها الأب المحترم ؟ »

ازداد إيماناً بعد سماع صوته أنه هو الأخ أنطون مشحرة ، لكنه خنق أفكاره فى مهدها وأجابه :

— حاولت مقابلة القائد ولم أفلح ، فأريد منك أن توصلنى إليه .

— هذا مطلب صعب التحقيق لأن أشغال القائد اليوم كثيرة ومتشعبة .

— هذا ما عرفته من الحراس ، لكننى أرغب فى مقابلته ، مهما كلفنى ذلك من ثمن .

احتار الضابط فى هذا الكاهن ولجاجته ، ولاحظ عليه اضطراب الفكر وقلق البال كما أنه تذكر شخصيته ، وتثبت من هويته ، وحاول مرتين أن يكب على يده لاثماً ، إلا أنه تمالك أعصابه ،

وضبط انفعالاته ، وأراد أن يصل فى التنكر إلى أبعد مدى ، وإذ كان يستعد لإلقاء سؤال آخر على الأب دنا منه أحد معاونيه ، وطلبه إلى الغرفة المجاورة لردهة الاستقبال ، فأستأذن من جليسه بأدب وخرج ثم عاد إليه قائلا :

— قل لى حاجتك لعلى أستطيع تقديم أى خدمة لك .

— إن حاجاتى عديدة ومنها توبيخ القائد على ظلمه . . .

قهقه الشاب قهقهة الاستغراب وشد يد الكاهن وقال :

— أنصحك يا حضرة الأب أن تقلع عن هذه اللهجة الخشنة ، لأنها لن تنفعك لدى القائد .

— القائد ظلم رجلين بريئين هما الشيخ مصطفى وشاهين العشقوتى . إنه أمر بالقاء القبض عليهما فهاجم الجنود منزلهما ، واقتادوهما عند منتصف الليل إلى أعماق السجون .

— لو لم تقع عليهما الشبهة لما أصدر القائد أمره بالقبض عليهما .

— إن هذين الرجلين لايستحقان إلا كل إكرام لأنهما يحبان الحق والعدل . ولذلك جئت أطلب من حضرة القائد العفو عنهما .

— أقول لك بصراحة إن القائد نفسه لن يمكنه إصدار العفو عمن ألقى القبض عليه إلا بعد المحاكمة . فاذا كنت متأكداً من براءتهما فتول الدفاع عنهما ، وأنا ألتمس لك الإذن بذلك من القائد .

— على كل حال أشكر فضلك . لكن ألا يمكن الإفراج عنهما قبل المحاكمة ؟

— المحاكمة بعد ساعتين فقط ، ولن تستغرق وقتاً طويلا ،

فاذا ظهرت براءة الرجلين للقاضى أخلى سبيلهما ، وإذا ثبتت إدانتهما شنقا فوراً .

— هذه محاكمة غير عادلة . . . لأن القاضى مثل باقى الناس يتأثر بما يتأثرون به .

— أنت معلم إسرائيل وتجهل هذه . . . ألا تعلم أن سلامة الجنود وسلامة طرق التموين هى فى نظر القائد فوق كل اعتبار آخر .

— إذن لافائدة من مقابلة القائد قبل الجلسة ؟

— بالتأكيد إنما سأستصدر لك الأمر بحضور الجلسة فانتظرنى قليلا .

مضت ساعة من الزمان خالها الأب يوسف أطول من يوم الجوع كما يقول . جلس على مقعد خشبى فى تلك الغرفة يضرب أخماساً لأسداس ويردد فى سره : ساعدنى يا رب لأخلصهما من براثن الموت ... إن إدانتهما وبراءتهما بين شفتى القائد . اللهم يا من لينت قلوب الخطأة والعشارين فرجعوا إليك لين قلب هذا القائد ليعف عن هذين الرجلين البارين .

عاد الضابط وبيده التصريح للكاهن بدخول قاعة المحاكمات والدفاع عن صديقيه فتسلمه شاكراً ، داعياً له بالتوفيق ، مظهراً الاستعداد لخدمته فى كل ما يهمه . عندئذ التفت الضابط إليه وقال : « يا حضرة الأب كن صبوراً ومتزناً فى دفاعك . لاتلق الكلام بقساوة لبنانية . إننى لبنانى مثلك وأعرف حدة طباع سكان الجبل »

ثم دخل الغرفة المجاورة دون أن يستمع إلى رد الكاهن معتذراً بكثرة الأشغال وبدنو ميعاد الجلسة .

كانت المحكمة على رمية حجر من منزل الضابط ، فسار إليها الأب يوسف ينتظر الفرج من السماء . دخل قاعة المحاكمات فكانت فارغة إلا من بعض أقارب المدعى عليهم ، وكلهم فى وجوم كئيب ثم حان وقت افتتاح الجلسة ، فجاء الجند بالمتهمين . وقدموهم إلى القضاء لا بأرقام متسلسلة بل تبعاً لأهمية الجرائم التى نسب إليهم ارتكابها . وكان الشيخ مصطفى وشاهين العشقوتى فى طليعة المتهمين لأن ما عزى إليهما من الجرائم يستوجب القتل .

لما شاهد الكاهن صديقه داخلا المحكمة ، ومكبلا بالأصفاد أسرع إليه على الرغم من ممانعة الجند ، وطوقه بذراعيه وقبله بشوق وشجعه فى محنته ثم انثنى إلى شاهين فعانقه . وقال لهما :

— الرب عوننا فلا نخافا . الرب شمس ومجن يؤتى النصر من يشاء . من كان الله قوته فلا يجبن أمام جند الأرض قاطبة

قال الشيخ : لاحرمنى الله صداقتك إن صداقتك لى لأثمن من الحياة نفسها .

وقال شاهين : كثر الله من أمثالك يا أبانا ورزقنا بركة صلاتك .

دخل القائد قاعة الجلسة فوقف الجميع إجلالا له ، وحياه الجنود الحراس على طريقتهم ثم جلس على منبر العدل بوقار بين المدعى العام وكاتب الجلسة وعلى مقربة منه الضابط المترجم ، ثم

ألقى على المتهمين الماثلين فى القفص نظرة فاحصة أرعبتهم وجعلتهم « كالمسمار فى الخشب » . وأوعز إلى المدعى العام بتلاوة الاتهام فقرأه فى الفرنسية فقرة فقرة ، وكان الضابط المترجم ينقله إلى السامعين حرفياً . وأهم ما جاء فيه بخصوص الشيخ مصطفى وشاهين « إن الأول يدير حركة ثورية خفية بغية إلحاق الخسائر بالجيش المحتل ، وإن بيته وكر للمخربين ، وبؤرة للاجتماعات السرية ، وقد آوى فى منزله المدعو شاهين المتهم بحرق مهمات حربية وبارتداء الثوب العسكرى المحرم على الناس لبسه بموجب المرسوم العاشر الصادر من القيادة العليا . والدليل على ذلك شهادة الشهود العدول جيران المتهم . بناء عليه أطلب من المحكمة أن تجعلهما عبرة للآخرين وتحكم عليهما بالموت شنقاً فى ساحة المدينة العامة احقاقاً للحق ووضعاً للأمن فى نصابه » .

التفت القائد إلى الرجلين وقال : بم تردان على المدعى العام ؟

ارتعدت فرائصهما فرقاً ، وانعقد لسانهما من فرط الخوف ، ولم يستطيعا الإجابة عن شىء . فأشار الضابط المترجم إلى الكاهن وقال له : « تكلم » فأحنى رأسه وقال :

— « يا حضرة الرئيس . أنا لست محامياً لكنى رجل دين أدافع عن المظلومين وأساعدهم فى الرجوع إلى حظيرة الإنسانية . إن الماثلين أمامكم الشيخ مصطفى وشاهين العشقوتى بريئان مما نسب إليهما . والدليل أن المدعى العام نفسه لم يقدم برهاناً واحداً يصلح أن يكون حجة قضائية . وما يثبت من غير برهان يدحض من غير

برهان ، لأن الذنب لايفترض افتراضاً بل يثبت إثباتاً . والإثبات فى الجرائم يجب أن يكون كاملا بشهود عدول لايرقى إلى شهاداتهم الشك . فأين هم شهود الإثبات ؟

— قال القاضى : أقوال رجال ليوليس الحربى وهى مدونة فى ملف الدعوى .

— قال الكاهن : أرجو من المحكمة أن تأمر بتلاوة محضر رجال البوليس .

أمر الرئيس كاتب الجلسة فتلا المحضر فاذا ملخصه « إن ثلاثة رجال من البوليس الحربى قد شاهدوا رجلا عند الساعة الخامسة من مساء يوم الإثنين يرتدى الثوب العسكرى ويقتل جندياً ثملا فى أحد شوارع المدينة ويركن إلى الفرار . ويوم الأربعاء فى الساعة الخامسة مساء شاهد خمسة من جيران الشيخ مصطفى المدعو شاهين مرتدياً الثوب العسكرى وداخلا البارجة إلى منزل الشيخ حيث مكث وقتاً غير قصير . . . »

— قال الكاهن : « على فرض صحة هذه الأقوال فانها لاتصلح أن تكون حجة قضائية . علاوة على أن الحقيقة السافرة التى لاتقبل التجريح ولدى ألف شاهد على إثباتها تقرر تقريراً لارجوع فيه أن الرجل كان فى يوم الإثنين فى عزبة الشيخ مصطفى التى تبعد عن هذه المدينة بضعة أميال . وسكان العزبة كلهم وعددهم يزيد على المئتى شخص يشهدون بذلك .

« إنه لاغرابة مطلقاً فى دخول شاهين منزل الشيخ يوم الأربعاء

عند الساعة الخامسة مساء ، لأنه كان عائداً من العزبة وأراد أن يطلع المالك على أحوالها . أما مسألة لبس المذكور الثوب العسكرى فليس لدى ما ينفيها أو يثبتها . وعلى فرض صحتها فانه لايستحق الموت شنقاً بسبب هذا الذنب الضئيل ».

— قال الرئيس : « يوجب هذا الذنب بموجب المرسوم الذى أشار إليه المدعى العام الحبس أربعة أيام وعشرين جلدة » .

— قال الكاهن : ومتى سقطت التهمة عن شاهين سقطت عن حضرة الشيخ مصطفى .

يا حضرة القاضى :

إننى كاهن مسيحى أقول الحق ولو كان على رأسى . لو وجدت فى الشيخ وناظر عزبته أى ذنب لتركتهما وشأنهما لكننى حقاً لم أر رجلا صادقاً وشريفاً ومخلصاً ومتديناً مثل الشيخ مصطفى . فهو شهم أبى النفس لايرتكب الدنايا ولو قطعت رقبته . إنه مثل الكهنة الأفاضل يقيم الصلوات ، ويحسن إلى الفقراء ، ويساعد الضعفاء ويكره التعصب والمتعصبين ، وينادى بالحب والسلام بين جميع السكان على السواء . أما شاهين فهو ناظر زراعة الشيخ وشريكه ، نشيط فى عمله ومخلص فى تأدية واجبه لم يسمع عنه قط أنه بادر أى مخلوق بالعداوة . يحب الحق ويتفانى فى الدفاع عنه . إذن لايحل لك أيها القاضى أن تسخر ضميرك ، وتحكم على هذين الرجلين البريئين بالإدانة .

إنكم أيها الفرنسيون مشهورون بعشق العدل والحرية ، فأخلوا

سبيل هذين المظلومين ، وقدموا لهذا الشعب مثالا لعدالتكم » .

بعد هذا الدفاع الوجيز المقنع اختلت المحكمة ، وسمعت رأى الضابط المترجم فقال : « أعرف هذا القسيس منذ عشرات السنين . إنه رجل طاهر الذيل لايدنس ضميره ولو تداعت أركان السموات . إنه مرهوب الجانب فى هذه المدينة ، ومحبوب عند المسلمين والمسيحيين ، فاذا حكمتم باخلاء سبيل هذين الرجلين اكتسبتم صداقة الأهالى » .

لمست المحكمة فى رأى الضابط النزاهة وبعد النظر فقررت الاكتفاء بدفاع الكاهن لأنه رجل مشهور بالورع ، وإخلاء سبيل الشيخ مصطفى ، وجلد شاهين عشرين جلدة فقط لارتدائه الثوب العسكرى .

شكر الراهب المحكمة ، وصافح القائد ، وسار مع صديقه الشيخ مصطفى ، ولم يخالج ضمير القسيس الندم على ما قرر مما يخالف الواقع لأنه رأى أن حياة رجلين ومنها الرجل النادر المثال الشيخ مصطفى لاتقاس بما حرقه شاهين من المهمات المادية . أجل لايجوز أن نصنع السيئات لتأتى الحسنات . إنما هذا ما قصه علينا صاحب المذكرات .

أما شاهين فقد عهد بجلده إلى جندى فرنسى رقيق القلب تحت مراقبة الضابط المترجم ، فعفا عنه وأخذه إلى بيته فى المساء مكرماً .

الأب بولس مسعد

حب عقيم

« ربوا لنا مؤمنات لا متفلسفات »
نابليون

جاء المساء فأدخل الضابط شاهين إلى بيته باحترام بدلا من أن يسهر على جلده عشرين جلدة ، واحتفت به الزوجه وابنتها لأنه كرم رب البيت ، وأعاده إلى عشه سعيداً . غير أن الضابط لم يسمع الشكر بل ذهل عما حوله إذ كان يحدق إلى منيرة كأنه رآها قبل ذلك اليوم ، أو كأنها شغلت خياله قبل أن يعرفها . أو أن المثال الأعلى الذى كان يتصوره قد تجسد فجأة أمام عينيه وانتصب بشراً سوياً . . . ثم انتبه الضابط كأنه يفيق من حلم ، وصافح الفتاة فشعر بعواطف عنيفة فى حنايا صدره . ولم تكن منيرة تعرف من أمور الحب شيئاً قبل أن رأت إبرهيم ، لأنها نشأت نشأة دينية قاسية ، لكن الغريزة المتمردة كانت قد أشعرتها بهذا الدافع الغامض وخضدت شوكة كبريائها ، وأكسبتها خبرة ودهاء ، فاستطاعت أن تفهم القادم كأنها قرأت ما فى قلبه .

إن الحياة مجموعة أحداث متصلة كلها برقاب بعض . وكثيراً ما يكل الرجل عن تفسير الحياة ، لأن مغزى حادثة واحدة سابقة أغلق عليه فهمه ، فيضرب عندئذ فى فدافد الحدث والتخمين ويقول : « هذا سر من أسرار الحياة » ولو عقل لقال : « هذا من أسرار جهلنا الحياة » . أما المرأة فغريزتها الحادة تنفذ بسرعة

إلى الجوهر أو هى تقودها على نور الأنوثة الموروثة إلى خير الحلول العملية ، ومنيرة فوق أنوثتها فتاة عاشت على السليقة ، وقد قادتها الطبيعة إلى الحب ، وهو فى نظرها حب عميق لاثمرة له ، ولكنها لم تتحرر منه تماماً بل عاشت تحت ظلاله ، وجعلت قلبها قبراً له تزينه كل يوم بالرياحين .

وفوق كل هذا فإن منيرة شاعرة كونتها الجبال الملهمة ، وأرتها فى الحب الخائب والحب الأفلاطونى جمالا أروع من جمال الغرام المادى . ومع ذلك فقد ارتبكت الفتاة أمام الموقف الجديد ، ولم تستطع حصر أحاسيسها المشتتة ، ولكنها شعرت بوضوح أنها كانتِ قبل ذلك فى مأزق ، وأنها كانت تساق بالقوة إلى وجهة واحدة وأن طريقها الآن قد تشعب ، وأن فى التشعب والتفرع بعض الراحة . ولذا فقد رحبت بإعجاب الضابط .

إن القادم لم يحدث منيرة حديثاً يذكر كما أن منيرة لم تجالسه سوى نصف ساعة ، إلا أن العيون والأسارير تحدثت أحاديث لم يفهمها سواهما . فكان الضابط يراقبها عندما تمشى ، وعندما تجلس ، وعندما تتكلم . فيشعر أن وقع خطواتها ، وهينمة حركاتها ، ورنات صوتها تقع من قلبه موقع الموسيقى الرخيمة

أما هى فكانت تختلس النظرات إلى الضابط اختلاساً . ولما قدمت له فنجان القهوة رمقته بنظرة عابرة وشاكرة فى وقت واحد ثم تحولت عيناها بحياء عذرى إلى الأرض ، وتخضب خداها بالحمرة .

وحدث أن أورد الضابط نكتة طريفة عن الوالد لما قدمه للجندى ليجلده ، فضحك أهل البيت فرحاً . أما منيرة فكانت ضحكتها تختلف عن ضحكات الآخرين .

كان لضحك الفتاة معان حائرة متشعبة : هل هى تحب إبرهيم أم الضابط ، أم استظرفت الأخير لأنه أنقذ والدها من الموت ، أم وجدت فيه ألهية لأبيها عن الشاب الإسكندرى ، أم أرادت أن تضحك لأنها تعبت من البكاء ؟

إن الحوادث التى دونها القسيس ببساطة فى مذكراته ، وعلى هوامش سجلاته ، ستعطينا جواباً واضحاً عن هذه الأسئلة !

الأب بولس مسعد

التمثال الحى

« بحقكم لاتوقظونى »
ميكال أنجلو

حفر ميكال أنجلو تمثالا رمزياً لليل على هيأة نائم ، ولما رآه شاعر إيطالى كتب تحته أبياتاً من الشعر معناها :

« إن الليل الذى تشاهده مستغرقاً فى نومه بلذة لاتوصف ، قد نقشه ميكال أنجلو على هذا المرمر . إنه بدقة صناعته حى ، فأيقظه تجد صحة ما أقول » .

واطلع الفنان على هذه الأبيات ، فأنطق تمثاله بما معناه :

« النوم حلو لدى ، وأحلى منه لأننى من المرمر . الشرور منتشرة فى العالم ، فالعمى ونضوب الشعور سعادة لى . بحقكم لاتوقظونى . تكلموا أمامى بهدوء وبصوت منخفض » .

كانت منيرة راقدة فى سريرها رقدة « لاتوقظونى » لأن الحياة أصبحت فى نظرها باهتة . كانت ثقتها عمياء بالأب يوسف فلما وجدته غريباً عن حقيقة نفسها تحولت عنه قانطة . وكانت تحب الشيخ مصطفى وتحترمه ، فلما سمعته يوبخها على قلة خبرتها بالحياة ابتأست ، وبكت أمام والدتها بالدموع المرة من غير ماجدوى .

فى أحد الأيام تركتها والدتها فى السرير ، وذهبت إلى زيارة جارة لها . وعند الساعة التاسعة دق الباب بشدة فنهضت مشعثة

لتفتح ، فاذا بها تواجه الضابط ، فيتورد خداها حمرة ، ويغرقها عرق الخجل ، فيبادرها قائلا : « أين والدك » .

— الجميع خارج المنزل . . . أتريد خدمة ؟

— نعم أريد من والدك أن يوقع هذا التعهد .

— تفضل .

أجلسته فى غرفة الاستقبال ، ودخلت غرفتها تلبس ثيابها الجديدة ثم عادت إليه بالقهوة وقالت :

— ما مضمون التعهد ؟

— تبليغ قائد الاحتلال عن كل حركة تضر بالجيش .

— والدى فى العزبة لن يعود إلى المنزل قبل أسبوع . ألا يجوز أن أوقع بالنيابة عنه ؟

— هذه مسألة شكلية . ودفع إليها التعهد ، فوقعته وأعادته إليه . فقال :

— إننى سعيد جداً برؤيتك .

— وأنا أيضاً .

— إننا أولاد وطن واحد فى غربة .

— صحيح أننا أولاد وطن واحد ولكننا لسنا فى غربة بل نحن بين أهلنا ومواطنينا .

— لعلنى أنا الغريب وحدى .

— أنت غريب لأنك قرنت مصيرك بمصير جيش غريب . فلو عرفت نفسك ، واستمعت إلى إيحاء قوميتك لعدت إلى حظيرة الوطنية .

اندهش الضابط من بلاغة الفتاة وتأدبها وطلاقة لسانها وقال لها :

— إنى منذ شاهدتك قدرتك . أما اليوم فقد زدت مقاماً فى عينى .

— هذا من طيب عنصرك .

— هذه هى الحقيقة . . . لم أجد فى أوربا فتاة بذكائك وأدبك .

— الإنسان لايمدح إلا لغاية . أمن غاية فى نفسك ؟ أتريد منى أن أكون جاسوسة لهذا الجيش الأجنبى ؟

— لا أقصد إلا قول الحق ثم سعادتك .

— إنى سعيدة بالتعرف إليك .

— عندما تسنح لى الفرص سأزوركم ، ونتحدث بتبسط ... وقتى قصير اليوم ، إنما أطلب منك ألا تنسى حديثنا هذا .

أطرقت الفتاة وصمتت ثم صافحت الضابط بحياء ، وفتحت له الباب فخرج شاكراً لها .

قبل هذه الزيارة كانت منيرة تفضل النوم الذى لانهاية له على اليقظة ، ولا ترغب فى الأعمال البيتية ، فاذا بها بعد مغادرة الضابط قد استعادت نشاطها ، وشرعت فى تنظيف البيت مازجة العمل بالغناء ، وهى لاتدرى لماذا تفتح الأفق أمامها ، ولا كيف زال الكابوس عن صدرها .

ولما عادت الوالدة إلى المنزل ، ورأت منيرة على تلك الحالة المرحة اندهشت وقالت : « لعله حدث فى بيتى ما حدث فى بيت عنيا فى عهد السيد المسيح » .

أجل إن حادثاً جرى فى بيتها ، ولكن الوالدة تفسره بأن ابنتها قد اقتنعت بوجهة نظرها ، ووافقت على الزوج بنبيل . أما منيرة فهى تدرك الآفاق الجديدة التى انفتحت فى وجهها ، وإنها كانت تسخر مما دبره المدبرون .

شاهدت الوالدة ابنتها فرحة ، فأقبلت تشبعها تقبيلا ومداعبة وتقول لها : « لاتزعلى يا بنيتى . انى لن أتركك وحدك . سنعيش معك فى الإسكندرية »

— دعى هذا الموضوع يا أماه . إننى لاأريد الزواج . .

— يا ابنتى إنك لاتدركين الحياة كما ندركها أنا ووالدك . لو لم نجد فى هذا الزواج سعادتك لما وافقنا عليه . .

وضمت الأم ابنتها بين ذراعيها ، وداعبت شعرها الكستنائى الجميل قائلة : « يا روح أمك أنا فى جانبك . . . وسأكون دائماً معك منفذة لرغباتك .

افتر ثغر الفتاة عندئذ وقالت لوالدتها : « أماه ، إننى خائفة من هذا الزواج ، واسم الإسكندرية كابوس يثقل صدرى » .

— لاتخافى يا ابنتى . . . إننى معك

عادت منيرة إلى مرحها والأم إلى شغلها ثم أرخى الليل سدوله فكان مسرحاً لأحلام الفتاة إذ جلست على فراشها تدرس تعاريج موقفها ، وتحاول الاهتداء إلى سبيلها ، فاذا هى ضالة تائهة لامعين لها : الأب يوسف خازن أسرارها ضدها ، والشيخ مصطفى العطوف لايوافقها . أما والدها فرجل قاس متمسك بالتقاليد

والعادات ، فالويل لها إن مانعت فى هذا الزواج أو هو عرف سرها . إنه يذبحها من الوريد إلى الوريد .

التجأت الفتاة إلى الصلاة ليسهل الله لها طريق الهناءة ، فقادتها الصلاة إلى درس حالها وسبر غور نفسها فى أعمق طياتها ، ورأت حينئذ هوة قلبها المخيفة حيث يرقد إبرهيم . ثم بعثت فيها الصلاة نشاطاً وإيحاء : ألم يكن ما اعتراها عندما عاد إبرهيم حنيناً إلى مواطن ساحرة تتوق إليها ، وتتعشق كل من يحمل إليها عبيرها ؟ أليس ما شعرت به نحو الضابط أقرب إلى الحب ؟. . . ثم اختلط كل هذا ، وجمد الفكر ، وانتصر الشباب ، فنامت أو هى استغرقت فيما يشبه النوم . . .

استيقظت الوالدة على نحيب ابنتها فذعرت ، وأسرعت إلى السراج ، فأشعلت فتيلته ثم دنت من الفتاة فأيقظتها ، ووضعتها فى فراشها .

وطلع النهار فجلست منيرة على مقربة من نافذة الغرفة الأرضية تشتغل فى حياكة جراب صوف للوالد ، وتغنى بعض المقاطع اللبنانية الحزينة .

وحانت منها التفاتة فجائية ، فاذا إبرهيم يمر تحت نافذتها ، وإذ هى تنظر إليه نظرة حنان أخوى لايمازجها اضطراب ، ولكنها مع ذلك تشفق على نفسها ، وتحتاط فتوجه نظرها إلى الداخل . . .

تمرد القاهرة

« الحب هو المحرك الأول لنشاطنا »
برناردان دى سان بيير

لما كان الشعب المصرى مكبلا بقيود الاحتلال الفرنسى كان يجالد وينافح عن حريته واستقلاله متحيناً الفرص والظـروف للانقضاض على مغتصب حقوقه . وإجلائه عن أرضه !

وشعر نابليون صاحب الذكاء الوقاد بهذه الناحية من حياة الأمة المصرية فحاول الظهور بمظهر المحب للمصريين الذى جاء لينقذهم من عبودية المماليك ، ويذيقهم طعم الحضارة الغربية ، ويثقفهم بالعلوم الحديثة حتى يستطيعوا السير فى قافلة التمدن . غير أن غرائز الإنسان السليمة تفهمه أن الحب للحب غير موجود ، وأن الاستقلال افضل من الاستغلال ولو كانت الأيدى المستغلة مبطنة بالحرير والقطيفة .

وغذت هذه الغرائز ، ودفعتها إلى التكتل أسباب عديدة . منها أن نابليون نظم الإدارة الحكومية على نوع لم يألفه الشعب ، وأدخل فى البلاد الأساليب الغربية بعجرها وبجرها ، فأمر بتشكيل مجلس نيابى من الأهلين ليكونوا مطية له فى إدارة البلاد ، فازدادت نقمة الأعيان والأغنياء على الجيش المحتل .

وانتشرت فى طول البلاد وعرضها أخبار تحطيم الأسطول البريطانى للأسطول الفرنسى فى « بوقير » ، واستعداد البريطانيين

لمساعدة أصحاب البلاد الشرعيين على خضد شوكة النمر الفرنسى ، وإعداد الدولة العثمانية مئات الفرق من الجيوش المدربة لإعادة فتح مصر .

إن هذه الأسباب متجمعة دفعت الأعيان وبعض المتعممين إلى إقناع الشعب بالتمرد والعصيان بداعى فداحة الضرائب ، وبطش الفرنسيين وغطرستهم فى تنفيذ أوامرهم ، لأنهم كانوا قد أوجبوا على أصحاب المنازل كنس الشوارع أمام منازلهم ، ورشها بالماء فى أوقات معينة ، ووضع فانوس منير فى الليالى على باب كل منزل وتوعدوا إنزال العقاب الشديد بمن يخالف ذلك .

وفى ١٨ من أكتوبر سنة ١٧٩٨ تجمع الكثيرون وعزموا على الجهاد من غير رئيس يرأسهم ، ولا قائد يقودهم ، وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاح . يصف الجبرتى حالة هؤلاء الطغام بقوله : « لهم صياح عظيم وهول جسيم » . وتوجهوا توا إلى بيت قاضى العسكر ، فخاف العاقبة ، وأغلق أبوابه ، وأوقف الحجاب على حراسته ، فرجم بالحجارة والطوب وطلب الهرب فلم يستطع . وزاد الطين بلة أن خلقاً كثيراً تجمهر فى الأزهر ، واندفع كالسيل الجارف يريد الفتك بجيش الاحتلال .

وحدث أن مر فى غضون ذلك القائد دبيوى على رأس كوكبة من الفرسان ، وعرج على منزل القاضى ، فوجد ذلك الزحام فخاف وعاد أدراجه ، فهجم عليه الجمهور ، وضربه وأثخنه جراحاً ، وقتل الكثير من فرسانه . .

لاريب أن هذا الأسلوب البدائى فى الثورات لاينفع فى القضاء على جيش منظم أحسن تنظيم بل يريد الحالة تحرجاً ويعرض السكان الآمنين للهلاك وأرزاقهم للخراب. ناهيك أن نابليون لم يكن رجلا تنقصه الخبرة فى الاجهاز على الفتن والثورات وهو الذى أجهز على أبناء جنسه فى شوارع باريس وميادينها وطوى حياته بين السيف والمدفع .

صدر إذن أمر القائد بتصويب المدافع المتركزة على جبل المقطم إلى القاهرة فنشرت الخراب فى العاصمة ، وخصوصاً فى الأزهر حيث لجأ مضرمو نار الفتنة .

قال الجبرتى : « بعد هجعة من الليل دخل الأفرنج المدينة كالسيل ، ومروا فى الأزقة والشوارع لايجدون لهم ممانع كأنهم الشياطين أو جند إبليس ، وهدموا ما وجدوه من المتاريس . . . ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر ، وهم راكبون الخيول ، وبينهم المشاة كالوعول ، وتفرقوا بصحنه ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالأروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسهارات وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأوانى والقصاع والودائع والمخبآت » ومزقوا الكتب والمصاحف وطرحوها على الأرض وداسوها بنعالهم .

وبث الجيش رجاله وأعوانه يتجسسون فى الأزقة ، ويقبضون على الناس المشتبه فى أمرهم ، ويسحبونهم بالحبال إلى غيابات السجون ، ويطالبونهم بالمنهوبات ، ويأخذون أقوالهم تحت التهديد

والضرب ، فدل بعضهم على بعض ، وانفضح أمر الذين دبروا الفتنة ، فقبضوا عليهم وعلى سائر الزعماء المعروفين بميولهم الاستقلالية وزجوا بهم فى الحبوس رهن التحقيق .

وأراد نابليون أن يبرهن على سعة صدره وحنكته وعدله ، فتجاهل ما صنعه جنده فى الأزهر . ولما نقل إليه الأعيان والمشايخ الخبر تكدر ، وأظهر غضبه ، وأمر باخراج الجند من ساحات المعهد العريق بأسرع ما يكون ، ظناً منه أن الحيلة قد انطلت على الناس .

وشاء أن يجعل الثائرين عبرة لغيرهم ، فسجنهم على ذمة المحاكمة فى سجن قصر الحاكم على مقربة من حديقة الأزبكية ، وأصدر أمره إلى المحكمة العسكرية العليا لمحاكمة المجرمين وكانت هذه المحاكم بحاجة إلى مترجمين عديدين فطلبت الضابط أنطون المقيم فى دمياط مع قائد الحامية . وما كاد يتسلم الأمر حتى هرع إلى منزل منيرة يودعها ويبوح لها بحبه .

قالت منيرة : « إننى واثقة من إخلاصك . لكن ألا تستطيع أن تفضى إلى بسر ذهابك إلى القاهرة » .

— لايجوز لى ذلك .

— ألا تثق بى ؟

— نعم ولكننى أخاف مغبة التهور .

— أقسم لك أننى لن أبوح بسرك لأحد .

— شبت ثورة فى القاهرة ، وألقى القبض على مضرمى نارها ،

وأودعوا السجن رهن المحاكمة .

— إنكم ستحكمون عليهم بالموت .

— من غير شك .

— إسمع يا أنطون كلامى . نحن عرب ، والفرنسيون لن يدوموا لك . إنهم يستغلونك اليوم وغداً ينبذونك نبذ النواة . إعمل جهدك للدفاع عن الثوار .

— هذا ليس بمتناول يدى .

— إن الذكى عندما يرغب فى تنفيذ شىء لاتعذره الأساليب .

— هذا صحيح . لكن أيجوز لهؤلاء العذل أن يثوروا على القوة الضخمة ؟ أليس من الجنون أن تقاوم العين مخرزاً ؟

— هذا مبحث آخر . إنما للإنسان الحق أن يدافع عن حريته بأية وسيلة من الوسائل .

— إنك متحمسة أكثر من المصريين أنفسهم لمصر .

— المصائب تجمع بين قلوب الأغراب فكيف بقلوب الأقارب ألسنا والمصريين أبناء لغة واحدة ، وعادات واحدة ، وأخلاق واحدة ؟ ألسنا نجاهد فى سبيل مثل عليا واحدة ؟ لقد تركنا بلادنا ، وحللنا فى هذه المدينة ، فوجدنا أهلها يعطفون علينا كأهلنا من غير ما فرق .

أحنى الضابط رأسه علامة الاقتناع وقال : « لو شرح لى غيرك هذه القضية لما صدقته . أما أنت فلا يجوز أن أشك فى صدقك وإخلاصك . وسأبذل جهدى فى مساعدة الثوار » .

— إن شئت أن تكون رجلا ، فأحبب كل متمرد على الظلم . إن الفرنسيين لراحلون عن بلادنا مهما كانت جيوشهم جرارة ، وتبقى لنا هذه الأرض الخصبة ، والسماء الصافية ، والوادى المضياف واخوان لنا فى السراء والضراء .

سار الضابط إلى القاهرة مؤمناً بعدالة المقاومة المصرية ، بفضل حبه فصدقت فيه كلمة برناردان دى سان بيير : « كأن الطبيعة التى ربطت الناس والكائنات برباط الحب قد شاءت كذلك أن يكون الحب هو المحرك الأول لنشاطنا والمنار الذى به نهتدى وعلى هديه نسير ! »

كانت التهمة موجهة إلى عدد كبير من المتعممين ، فدافع الضابط عنهم فى ديوان المحاكمة دفاع الأبطال ، وأخلى سبيل كثيرين منهم إلا أن اثنى عشر شيخاً قد ثبتت عليهم التهمة فأدانوهم بالموت . ثم أخذوهم موثوقين بالأصفاد إلى بيت القائمقام بدرب الجماميز حيث اعتدى على ديبوى ، وعروهم من ثيابهم ، وصعدوا بهم إلى القلعة فسجنوهم . وفى الصباح أخرجوهم وقتلوهم رمياً بالرصاص وألقوهم من السور خلف القلعة .

إن بلاغة الضابط ومحبته لم تفد هؤلاء المساكين ، لكن الرجل سر بما فعله لأنه أرضى ضميره ، ونفذ رغبات منيرة . ولكى يبعد هذا الضابط الكبير القلب النكبات عن الشعب أوعز إلى بعض المشايخ ليصدروا نشرة تدعو الناس إلى السكينة والهدوء ففعلوا وهذا نصها :

« نصيحة من كافة علماء الإسلام بمصر المحروسة . نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن . ونبرأ إلى الله من الساعين فى الأرض بالفساد . نعرف أهل مصر المحروسة من طرف الجعيدية وأشرار الناس حركوا الشرور بين الرعية وبين العساكر الفرنساوية بعد ماكانوا أصحاباً وأحباباً بالسوية . وترتب على ذلك قتل جملة من المسلمين ونهبت بعض البيوت . ولكن حصلت ألطاف الله الخفية وسكنت الفتنة بسبب شفاعتنا عند أمير الجيوش بونابارته ، وارتفعت هذه البلية لأنه رجل كامل العقل ، عنده رحمة وشفقة على المسلمين ، ومحبة إلى الفقراء والمساكين . ولولاه لكانت العساكر أحرقت جميع المدينة ، ونهبت جميع الأموال ، وقتلوا كامل أهل مصر . فعليكم ألا تحركوا الفتن ، ولا تطيعوا أمر المفسدين ، ولا تسمعوا كلام المنافقين ، ولا تتبعوا الأشرار ولا تكونوا من الخاسرين سفهاء العقول الذين لايقرأون العواقب ، لأجل أن تحفظوا أوطانكم ، وتطمئنوا على عيالكم وأديانكم ، فان الله سبحانه وتعالى يؤتى ملكه من يشاء ، ويحكم ما يريد . ونخبركم أن كل من تسبب فى تحريك هذه الفتنة قتلوا عن آخرهم . وأراح الله منهم العباد والبلاد . ونصيحتنا لكم أن لاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، واشتغلوا بأسباب معايشكم وأمور دينكم ، وادفعوا الخراج الذى عليكم ، والدين النصيحة . والسلام » .

الاب بولس مسعد

أغانى ودموع

« ومن لم يصانع فى أمور كثيرة
يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم »
شاعر عربى

كتب الراهب : «بعد أيام وصل الساعى المخصوص من الإسكندرية إلى منزل يوسف مرعى يحمل عربون الخطبة : خاتما من الماس ذا عدة فصوص فى علبة قطيفة جميلة الصنع ، وسواراً لليد عشرين بندقى وفى الوسط قطعة ذهب كبيرة ، وطرحة بشكولية بلون وردى مشغولة شغلا فاخراً » .

سمع يوسف حديث الساعى ، وقرأ رسالة نبيل ، فأسرع إلى الكاهن يطلعه على جلية الأمر ، ويستعجله فى عقد الخطبة بحسب رغبة الطالب . قال الكاهن :

— إن ما قاله الساعى لايكفى لعقد الخطبة . فنحن بحاجة إلى كتابة رسمية من حضرة السيد نبيل تعلن أنه أقام عنه فلان الفلانى وكيلا شرعياً فى عقد خطبته على فلانة . كما أنه يجب أن يكتب خطاً إلى الفتاة يظهر لها فيه نيته .

قال يوسف : « إن رجوع الساعى إلى الاسكندرية صفر اليدين صعب للغاية . لنعقد الخطبة ثم نأتى بالكتابة » .

— هذا غير ممكن بل الواجب أن تتم الأمور بالوجه الشرعى .

— إن نبيلا سيتكدر جداً من هذا التصرف .

— الذنب ذنبه ، لأنه لم يستشرنى .

— لاتؤاخذنا يا أبانا . نحن لانفهم القوانين الكنسية ... المهم أن تتم الخطبة بسلامة ... لانقصد إلا تخفيف التعب عنك .

— سيتم كل شىء باذن الله . إصنعوا كما قلت لكم .

ولما تأكد يوسف مرعى من أن الكاهن لايتزحزح عن أقواله عاد أدراجه وكتب إلى نبيل يخبره بما جرى .

توالت الأيام ويوسف مرعى على أحر من جمر الغضا ، والكاهن يفكر فى نبيل وهل هو راض عن تصرفه العادل أم ناقم عليه بسبب تمسكه بالقانون ؟ أما الحق الصراح فإن نبيلا ما قابل الساعى العائد بخفى حنين حتى احتدم غيظاً على الكاهن وقال : « إن هؤلاء الكهنة يدققون دائماً فى مسائل تافهة » . إن مالا يفهمه السيد نبيل يظنه لاقيمة له ، فرحم الله القائل :

« الناس أعداء ما جهلوا » .

ونادى الثرى أحد موظفيه وقال له : « أكتب توكيلا رسمياً لصديقنا يوسف مرعى فى ثغر دمياط ليقوم مقامنا فى خطبة منيرة كريمة شاهين العشقوتى ، وكلمة وجيزة إلى الفتاة مآلها إظهار خطبتى عليها بوساطة يوسف مرعى صديق البيت القديم » .

عاد الساعى المخصوص إلى دمياط متحقباً الأوراق المطلوبة ، ففرح يوسف مرعى بها ، وكذلك الكاهن ، وسارا معاً إلى منزل شاهين فاختلى به الكاهن ، وأطلعه على الواقع ، وأراه عربون الخطبة ، فطار فرحاً . ودعا زوجته وأمرها أن تعد المنزل لعقد

الخطبة فى مساء اليوم التالى ، وخرج مع ضيفيه .

قبل الرقاد قال الوالد لامرأته على حدة : « أقنعى منيرة بوجوب عقد الخطبة ، فاننا بهذا الزواج « نقبر الفقر » .

— مثملما تريد إنما . . .

— لا إنما ولا متى . . . يجب أن تقنعى منيرة بما أريد . « ليس عندى بنات تقول لا » .

خافت الزوجه من غضب زوجها ، ودخلت الغرفة تعمل على إقناع منيرة بهذه الخطبة شارحة لها الخير الوافر الذى تجنيه الأسرة من هذا الزواج ، ومبرهنة لها أن الضمير يحتم عليها ألا تكون أنانية .

ولما عجزت عن انتزاع كلمة « نعم » من بين شفتى المسكينة بكت وقالت لها : « إن والدك سيذبحك ، إنه قاس لايعرف الشفقة »

جلست منيرة فى سريرها تصلى وتفكر فى أحاديث الضابط ومواعيده وتعزت عندما ذكرت قوله : « إن الزواج لن يتم » . إنما تلك التعزية كانت بالنسبة إلى غمرة حزنها كالهباءة بالنسبة إلى رمال البحر .

ولما شاهدت الوالدة تسهد ابنتها ، جلست فى فراشها وأخذت رأسها بين يديها ، ووضعته على صدرها تداعب شعرها الجميل وعنقها الفضى وتقول لها : « لاتزعلى يا بنيتى . . . الفتيات يفرحن بالعرس وأنت تحزنين ؟ » .

أرسلت الفتاة تنهدة صادرة من عمق أعماق فؤادها . ومسحت

دمع عينيها بيديها ثم التفتت إلى والدتها قائلة : « أنا لاتهمنى العرس » وأعادت رأسها إلى صدر والدتها مسترسلة فى النحيب .

أثر بكاؤها فى والدتها فضاعفت ملاطفتها ثم قالت لها : « لاتحزنى ولا تخافى . إن الخطيب لن يحضر . إنه قد وكل عنه السيد يوسف مرعى . لنتمم غداً الخطبة . وقد يتغير فكرك أو تقنعين والدك » .

وقالت منيرة بحدة وغضب : « لست ضعيفة إلى هذا الحد ... لا والدى ، بل لا السماء ، ولا الأرض تستطيعان أن ترغمانى إذا أكرهتمونى ظللت عذراء طوال حيانى » .

أذهل هذا الكلام العنيف الوالدة ، ووقفت هنيهة تحدق إلى ابنتها حائرة فى أمرها : أتذبحها على قلة أدبها أم تمسك نفسها عن الكلام وتدعها وشأنها لئلا تزيد الشقة اتساعاً ! أخيراً قررت أن تضبط عواطفها وقالت :

« نامى الليلة ، وغداً نعقد الخطبة . ولن يكون إلا ما يرضيك »

حل موعد الخطبة فى ليلة غائرةالنجوم ، كثيفة الغيوم ، وكأن السماء اتشحت بحجاب صفيق لئلا ترى هذه العذراء فى ذروة أحزانها .

وكان أبونا يوسف يسير إلى منزل والد منيرة متعكزاً على عصا سنديانية معقوفة المقبض لايزال يعتز بأصلها اللبنانى ، ومستنيراً فى طريقه بمصباح ضئيل النور يحمله أمامه بنايوتى .

وكان وكيل الخطيب يمشى وراء الكاهن رافلا بحلته الجديدة ،

وزوجته وأولاده الخمسة يرافقونه ، ويمطرونه وابلا من الأسئلة السخيفة . وهو يجيب كل واحد منهم بتؤدة وهدوء !

وكانت منيرة لدى سماعها وقع أقدام المدعوين تنفش شعرها ، وتلطم وجهها ، وتذرف الدموع السخينة . ولما انتهرها أبوها على تصرفها ذاك ملكت روعها وتجلدت إلا أن الناظرين عرفوا فيما بعد أنها بكت كثيراً .

وصل الكاهن مع وكيل الخطيب إلى منزل منيرة فوجدوه مكتظاً بجمهور المعارف والأصدقاء ، فوقف الجميع إجلالا ، وتقاطروا للتبرك بلثم يد خورى الرعية ، فكانت نهباً مقسما بالعدل . ثم جلس على كرسى قش ، وحوله والد العروس ، ووالدتها ، والوكيل ، وسائر المدعوين والمدعوات . أما منيرة فكانت فى غرفتها صحبة بنات الشيخ مصطفى ، وبعض الصويحبات ، لايفتر لها ثغر ، ولا ترى بياضاً فى مستقبلها !

بعد استراحة وجيزة قال الكاهن للوالد بصوت جهورى : « إن السيد نبيل الكفرذبيانى القاطن فى مدينة الإسكندرية يطلب ابنتكم البكر منيرة عروساً له عن يد وكيله يوسف مرعى الذى يحمل إليكم عربون الخطبة . فماذا ترون » ؟

— إننى راض السيد نبيل خطيباً لابنتى منيرة . ثم وضع الوالد يده على رأسه علامة الاذعان والاحترام

وقالت الأم : « أنا موافقة لكن ، تصعب على غربة البنت »

قال يوسف : « البنت تعرف أين تولد ، ولا تعرف أين تموت »

وقالت إحدى الحاضرات : « الأمثال تقول بنت الشرق للغرب ، وبنت الغرب للشرق » .

وقال الشيخ مصطفى : « من المؤسف أن تقفى حجر عثرة فى سبيل ستر الفتاة بهذه الأفكار الغريبة » .

واسترسل الحاضرون فى الكلام حتى اختلط الحابل بالنابل ، وضاعت الغاية المقصودة من الحديث ، فغضب الكاهن ووقف منتهراً الجمع : « لسنا فى موقف مزح وثرثرة . فاضبطوا ألسنتكم ، ودعونا نتمم بسلام ما جئنا لأجله » قال هذا وصعد إلى الطابق العلوى ليأخذ رضى الفتاة فى قبول الخطبة وإذ دخل غرفتها فوجدها كئيبة « ولم يكترث لمفاجآت النساء » بل سألها السؤال القانونى :

« أتريدين نبيل الذبيانى المقيم بالإسكندرية والموكل عنه يوسف مرعى خطيباً لك ؟ »

كاد الدم يطفح من وجنتيها فأطرقت من غير أن تجيب ، واعتبر الكاهن سكوتها دلالة على رضاها فتابع حديثه قائلا : « إذن أنت راضية ! » وقفل راجعاً إلى قاعة الجلوس .

عندئذ وضع عربون الخطبة على منضدة خشبية أمام صليب نحاسى ، وحوله شمعتان منيرتان ، وعلق البطرشيل بعنقه ، وتلا صلاة الخطبة على العربون ، وسلم خاتم الخطيب لوكيله ، وخاتم الخطيبة لوالدها . ثم صعد صحبة الوالد والوالدة إلى مقر الفتاة وألبسها الخاتم والسوار ووضع الطرحة البشكولية على رأسها ، وظلت الفتاة كأنها فى حلم إلى أن بارك لها الكاهن فى الخطبة وخرج .

انتهت المراسم الدينية ، وأتى وقت السرور ، فبالغ شاهين فى إكرام ضيوفه لئلا يقول عنه أحد «إنه لم يعمل قيمة فتاته . » وصمدت الخطيبة ، إلى جانبها وكيل خطيبها الشرعى ، وحولها صديقاتها . وافتتح مطرب الحفلة السهرة « بردة » أثنى فيها على الخطيب والخطيبة ثم نقر الدف نقراً حماسياً فاشرأبت إليه الأعناق وكان صمت . وتحمس الشيخ مصطفى وجال مستعرضاً فنون الغناء الرفيع فى مصر ، حتى أسكر الجمهور بصوته العذب وأسلوبه المتفنن وأقواله الرشيقة . وكان الجميع « يطيبون » له بصوت واحد . ثم لعبت الخمرة فى رؤوس الشباب ، ودارت حلقات الدبكة حتى الفجر فسرى ذلك عن الخطيبة بعض الهم .

وخرج الناس من بيت شاهين منقسمين شيعاً وأحزاباً . هذا يقول : « إن السعادة أدركت منيرة » وذاك يلوم القسيس ويقول : « الله يخلى الوسائط . . . لسنا من المقام » والفتيات يتسارررن قائلات : « غداً ستكلل منيرة بالجواهر واللآلىء . الدنيا كلها حظوظ » .

أما الخطيبة فكانت بعيدة عن هذا الجو الخانق ، ومغرقة فى التفكير . انها تفتش عن وسيلة تتخلص بها من هذه الخطبة قبل فوات الأوان .

بعد بضعة أيام أتت جارة فاضلة لتتقدم بواجب التهنئة واعتذرت أنها كانت طريحة الفراش فى ليلة الخطبة . وقد اغتنمت السيدة غياب منيرة التى ذهبت إلى المطبخ لتحمل بعض النقل للضيفة وقالت لوالدتها :

« إن الخطبة لاتنفع ابنتك . أنا أعرف الخطيب وأمه . إنها امرأة قاسية ، لاكبير فى عينيها إلا الجمل . بعرضكم لاتدهوروا البنت . إن خطيئتها برقبتكم » .وقبل أن تستطيع الوالدة الرد على السيدة أو الاستفهام عما تقول عادت الفتاة ، فانقطع الحديث . ثم تكاثر عدد الزائرات فضاعت الإفادة ، وحلت الثرثرة .

ولكن حديث الجارة دفع الوالدة إلى فدافد من الحدث والتخمين وأخيراً أقنعت نفسها بأن تلك السيدة حاسدة ولا تريد الخير إلا لنفسها وأولادها .

وهكذا تحرى الراهب جميع هذه التفاصيل ، وأثبتها فى مذكراته بهذه اللهجة الشعبية لأنه كان يحمل فى طيات ثوبه الأسود الرسمى قلب أب حنون .

الأب بولس مسعد

الراهب « الشالح »

« أحب مجد الناس أكثر من مجد الله »
الانجيل

طوى أنطون فى القاهرة شهراً وبعض الشهر ، متفانياً فى النضال والكفاح عن القضية التى آمن بها على يدى عروس أحلامه منيرة ، وأخلص النصح للسلطات المحتلة ، ودعاهم إلى تخفيف الضرائب عن كاهل الشعب البائس ، مبرهناً لهم أن العدل أساس الملك وأن الظلم مرتعه وخيم . ولما ضاق الحكام به ذرعاً ، أعادوه إلى دمياط بغية تحقيره ، فرقصت جوانحه طرباً لهذا التدبير ، وشكر أمير الجيوش على ذلك ، فاستغرب الأمر .

كان الأخ أنطون فى طريقه إلى دمياط يتناول موضوع قرانه بمنيرة بالبحث والتحليل . هو يدرك أنه كان راهباً فى رهبانية قانونية نالت شرف التثبيت من الكرسى الرسولى فى رومية ، وقد أبرز النذور الاحتفالية أى الطاعة والعفة والفقر الاختيارى ، وأن ما من أحد يستطيع أن يحله من قيوده إلا الحبر الأعظم ، وأنه قد ترك خدمة الرب ليخدم الإنسان طمعاً بالمجد العالمى ، فصحت فيه الآية : « أحب مجد الناس أكثر من مجد الله » . ومنيرة عندما تعرف سره لن ترضى بالتزوج به ، لأنها شديدة التمسك بقواعد الدين ، تنفر من الذين يبيعون دينهم بدنياهم .

ولقد صرف أنطون أياماً بلياليها يفتش عن حل مرض لهذه

العقدة ، فتارة كان يرى قبساً من النور فى هذه الناحية وطوراً كان نوره يتحول إلى ظلمات دامسة . وظل على هذه الحالة إلى أن عقد العزيمة على مفاتحة الأب يوسف وإفشاء سره له لعله يرشده إلى سبيل الخروج من ورطته .

وما كاد يصل إلى دمياط ويستقر به المقام حتى هرول الى القسيس يقبل يده ، ويطلب صلاته . ثم توصل بمرونته السياسية إلى أن يطلع الأب على حقيقة حاله ، فدنا منه الكاهن وعانقه عناقاً حاراً وقال : « أنت الأخ أنطون ! سامحك الله فيما فعلت » .

— إن ضميرى مكدود ، ولن يستريح ما لم أنل نعمة التحليل من نذورى .

— إن أمرك فى يد خليفة بطرس الجالس على العرش الرسولى .

— أعرف ذلك ، إنما أريد منك أن تدلنى على الطريقة المثلى التى أتوصل بها إلى ما أبغى .

— يجب أن تقدم عن طريقى عريضة مسببة لقداسته ، فأدون أنا عليها عبارة الاعتماد ، وأبعث بها إلى مجمع نشر الإيمان المقدس

— أتظن أن رجوع الرد يطول أمره .

— أنت وحظك .

— إذن خير البر عاجله .

— من غير ما شك

وغادر منزل الكاهن على أمل أن يعود إليه فى الغد حاملا العريضة المطلوبة ، ورأى من الواجب أن يسلم على الشيخ مصطفى

فقصد منزله . وما كاد يشاهده حتى هجم عليه وأشبعه تقبيلا وهو يقول له : « أهلا وسهلا بالحبيب » . ولا تسل عن فرح الشيخ لما سمع ما قصه الضابط عليه من خططه فى الدفاع عن المتهمين . أخيراً قال له :

« لايحن على العود إلا قشره . بارك الله فيك يا ابنى »

غير أن الضابط كان صريحاً مع الشيخ إلى أقصى درجات الصراحة ، فأطلعه على كل شىء جرى فى القاهرة وقال له :

إن الرعاع أفسدوا على مرات عديدة أساليبى فى الدفاع عن المتهمين ، والأخذ بناصر الوطنيين ؛ لأنهم كانوا يسيرون فى الأزقة والشوارع ، وهم يصيحون « بكلام مقفى » ويصبون اللعنات على النصارى وأعوانهم ورؤسائهم .

هز الشيخ رأسه علامة الاشمئزاز وقال : « لاحول ولا قوة إلا بالله . إن نكبة الأمة بهؤلاء الرعاع لأعظم من نكبتها بجيش الاحتلال » .

أطرق الضابط يتأمل درر الشيخ فقال له « لماذا لاتتكلم؟»

— لو كان جميع المتعممين مثلك لتحولت بلادنا العربية إلى جنة غناء ، وأدرك أحرارنا مناهم من أهون السبل .

— إن مرجع هذا الانحطاط الجهل ، فعندما يعم العلم تتبدل الأحوال .

ودع الضابط الشيخ متمنياً من صميم فؤاده أن يجود الزمان عليه بفترات ينعم فيها بأحاديث هذا المتعمم الناضج .

كان فى طريقه يفكر فى منيرة ، ويود لو أن أمها تراه من نافذة المنزل ، فتدعوه إلى زيارتهم . وقد صحت أحلامه وألحت عليه الوالدة فى أخذ القهوة مع شاهين فعرج عليهم فرحاً .

استقبله رب البيت بالترحاب ، وأكرم وفادته ، ودعا جميع من عنده للسلام عليه ومجالسته واستبقاه بألف حيلة ليتناول الغداء على مائدته .

ثم ترك الوالد المنزل ليشترى بعض أصناف الأكل ، فأتاحت الفرصة لمنيرة أن تحدث الضابط وقتاً غير قصير ، شارحة له ألوان العذاب التى ذاقتها فى خطبتها لذاك الشاب الغنى الاسكندرى ، فشجعها على احتمال محنتها بصبر وقال لها : « إننى فى الزمان المناسب سأغير جميع الخطط التى يضعونها وأنقذك من عذابك » .

فرحت الفتاة بهذا الوعد ، وذهبت إلى المطبخ تعاون والدتها فى العمل ، وتغنى بينما كان الوالد يلعب الطاولة مع الضابط .

واستمرت الحالة على هذه الوتيرة من زيارات ومقابلات ودية إلى أن وصل أمر إلى الضابط بالشخوص إلى القاهرة لأعمال هامة . فترك دمياط مرغماً بعد أن رجا من الكاهن أن يبذل موفور جهده فى حله من نذوره .

الأب بولس مسعد

خيبة نابليون

« هذا الرجل قد حطم آمالى »
نابليون

جاء فى مذكرات قسيس ما ملخصه :

« انتهى الضابط إلى القاهرة فى أواخر شهر يناير من سنة ١٧٩٩ ، فوجد أمير الجيوش وسائر القواد يستعدون للحملة السورية استعداداً فائق الوصف .

« وكانت أسباب الحملة أن بونابرت قد تأكد عن طريق الجاسوسية من دفع الباب العالى جيشين كثيفين إلى مصر لإجلاء الفرنسيين عنها : جيش عن طريق البر وآخر عن طريق البحر . وأن « تيبو صاحب » الزعيم الهندى قد حض الهند على التمرد والعصيان . فرأى ذاك الداهية بثاقب نظره أن الفرصة سانحة لفتح سورية ، وللقضاء على الجيش العثمانى الآتى براً قبل وصول الأسطول المعادى إلى الشواطىء المصرية كما أن الإجهاز على الجيش المناوىء فى سورية يساعده على الوصول إلى الهند ، وضرب الأمبراطورية البريطانية الضربة القاصمة .

« بعد إتمام الاستعداد العظيم لتلك الحملة جمع أمير الجيوش الفرنسية أعضاء الديوان من مشايخ وأعيان وجباة وقال لهم :

« إن جيوشنا المظفرة قد تعقبت المماليك فى أقاصى الصعيد وعملت فى رقابهم السيوف . أما الفرقة الأخرى التى هربت إلى

ناحية غزة فاننا سائرون إلى استئصال شأفتها عن سطح الأرض وفتح البلاد السورية فى وجه القوافل والتجارات براً وبحراً ليزدهر القطر ، ويعم الرفاه الشعب . وقد نغيب عنكم شهراً ، ثم نعود فنرتب النظام فى البلاد ، ونضع الشرائع العادلة ، وعليكم الآن ضبط الرعية فى مدة غيابنا خوفاً من شبوب الفتن مع العساكر الباقية فى مصر . وإننا لسنا بمسؤولين عن الأضرار التى يلحقها جنودنا بالعاصين والمتمردين » فوعده أعضاء الديوان بالتقيد باشاراته المطاعة ، وكتبوا إعلانات طبعت وألصقت على جدران الأزقة والشوارع ».

وفى أوائل فبراير سار نابليون على رأس ثلاثة عشر ألفاً من جنوده المغاوير ، ومعهم التراجمة والعلماء ، وكل ما يحتاجون إليه من عتاد ، وأسرة ، وفرش ، وحصر . فملك قلعة العريش وأسر عدة مماليك ثم استولى عنوة على غزة ، وخان يونس ، وواصل سيره إلى يافا فأحاطت بها جيوشه من كل ناحية وحاصرها ثم أرسل إلى حاكمها الجزار أن يسلم إليهم القلعة قبل أن يحل بعساكره الدمار فلم يذعن لرغبتهم فهاجمها بضراوة بعد أن أسر عدداً عظيما من الجنود . وفتحها قسراً .

غير أن تكاثف عدد الأسرى ، وصمود عكا فى وجه الحملة أوجدت نابليون فى موقف حرج ، فخارت قوى الجنود ، وكادت تنفد أكداس المؤن ، فجمع القواد والضباط والمشيرين والتراجمة والمهندسين ، وأفضى إليهم بحقيقة الموقف وطلب منهم المناقشة

فى تدبير حلول عديدة للمشكلة ثم قال لهم : « أما رأيى الخاص فهو قتل جميع الأسرى رمياً بالرصاص ، لأننا إذا أخلينا سبيلهم انضموا إلى أعدائنا وساعدوهم على محاربتنا ، وإن احتفظنا بهم لانقدر على إطعامهم » . فوافق أكثر الموجودين على رأى أمير الجيوش وصفقوا له إعجاباً . فأغاظ ذلك الضابط أنطون ، وانبرى يطلب الكلام فأعطى فقال :

« يا أمير الجيوش !

« إخلاصى لكم يدفعنى إلى رفض قراركم ، لأنه ظلم صارخ . إن هؤلاء المغلوبين قد استسلموا لكم ، فأعطيتموهم الأمان . وعاونوكم على حفر الخنادق والمتاريس ، ومشوا بدقة على النظام القاسى الذى وضعتموه لهم ، ولم يخالفوا لكم رغبة .

إن شعاركم كان ولا يزال إقرار العدل بين الناس ، ومعاملتهم بالشفقة والرحمة على غير عادة المماليك الملاعين فأحبكم الناس ودعوا لكم بالنصر والتأييد . فاذا نفذتم اليوم ما عقدتم العزيمة عليه دمغتم نفسكم بدمغة العار وكتبتم فى تاريخ شهرتكم صفحة سوداء ، لاتبيضها جميع مآتيكم الخالدة . إن كنتم لاتقيمون وزناً لأحكام البشر ، ارتعدوا فرقاً من غضب الله لأن صراخ المظلومين وصلواتهم تصل إلى عرش العلى ، وتستمطر اللعنة على الجلادين » .

أثارت هذه الخطبة الفذة غضب أمير الجيوش ، وأوعز إلى الحراس فألقوا القبض على قائلها ، وأوثقوا يديه ورجليه بالحبال ،

وحكموا عليه بأمر ألوان النكال ، ثم أعادوه إلى مصر موصوماً بوصمة الخيانة . ووضعوه تحت الرقابة الشديدة .

أما أولئك الأسرى فان أمير الجيوش أمر بقتلهم رمياً بالرصاص فنفذ الجنود أمره باشمئزاز ، وكراهية لم يعرف لها التاريخ مثيلا ! ثم تكونت أكداس الجثث أتلالا . وظلت النيران تلتهمها أياماً بلياليها !

هذا هو التمدن الذى حملته أروبا إلى الشرق . وهذا هو الحد الفاصل لطموح الطاغية ، ولتحطيم آماله فى تشييد أمبراطورية شرقية !

حاصرت تلك الجيوش الجرارة مدينة عكا . وهاجمتها مرات عديدة ، وحاول الأطباء وقف تفشى الطاعون فى العساكر والقواد وذهب كل ذلك سدى . فقد دار القدر على الأسد الضارى وأوقفه للمرة الأولى فى وثبة خائبة .

ولكى تزيد السلطة العسكرية فى إذلال الضابط أنطون ، فإنها حكمت عليه بالعودة إلى مصر مكبلا بالأصفاد صحبة جنود حملوا الأعلام التى انتزعوها من قلعة يافا . قال الجبرتى :

« أرسلوا الأعلام والبيارق التى أحضروها من قلعة يافا ، وعدتها ثلاثة عشر ، وفيها من له طلائع فضة كبار ، إلى الجامع الأزهر . وكانوا أنزلوا أعلام قلعة العريش قبل ذلك بيوم من أعلى المنارات ، وأرسلوا بدلها أعلام يافا ، وعملوا لها موكباً بطائفة من العسكر يتقدمهم طبلهم ، وخلفهم الآغا بجماعته وطائفته والمحتسب

ومديرو الديوان ، وخلفهم طبل آخر يضربون عليه بازعاج شديد، وخلف ذلك الطبل جماعة من العسكر يحملون البنادق على أكتافهم كالطائفة الأولى ، وبعدهم عدة من العسكر على رؤوسهم عمائم بيض ، يحملون تلك الأعلام الكبار والبيارق المذكورة ، وخلفهم جماعة خيالة من كبار العسكر ، وآخرون راكبون على حمير مكارية . فلما وصلوا إلى باب الجامع الأزهر رتبوا تلك الأعلام ، ووضعوها على أعلى الباب الكبير فوق المكتب منشورة ، وبعضها على الباب الآخر من الجهة الأخرى عند حارة كتامة المعروفة الآن بالعينية ، ولم يصعدوا منها على المنارات كما صنعوا فى أعلام العريش»

ويسترسل كاتب المذكرات :

« ولدى وصول الضابط إلى القاهرة زجوا به فى السجن مدة ثلاثة أشهر تأديباً له ، واقتصاصاً من تطاوله على أمير الجيوش . فطوى تلك المدة يعانى ألوان العذاب فى أكله وشربه ، إلا أنه صمم النية على الانقضاض على أولئك المحتلين ، ومساعدة أبناء البلاد فى التخلص من استبدادهم وغطرستهم ».

حاصر نابليون عكا شهوراً ، وضربها بمدافعه الثقيلة ضرباً عنيفاً ، وهاجمها مرتين فى ٢٥ من مارس ، وفى ١٠ من مايو دون أن ينال منها منالا ، فصغرت الدنيا فى وجهه ، وقال عن سيدنى شميت الذى قدم العتاد الحربى والمؤن للمدينة المحصورة : « إن هذا الرجل قد حطم آمالى » . ثم قرر العودة إلى القاهرة ، فوصل إليها فى ١٤ من يونية ودخلها من باب النصر بأبهة عظيمة؛ وقد وصف ذلك الشاهد العيانى الجبرتى فقال :

« أرسلوا إلى المشايخ والوجاقات وغيرهم فاجتمعوا بالأزبكية بوقت الفجر بالمشاعل ، ودقت الطبول ، وحضر الحكام والقلقات بمواكب ، وطبول وزمور ونوبات تركية وطبول شامية وملازمون وجاويشية وغير ذلك . وحضر الوكيل ، وقائمقام ، وأكابر عساكرهم ، وركبوا جميعاً بالترتيب من الأزبكية إلى أن خرجوا إلى العادلية ، فقابلوا سارى عسكر بونابرته هناك ، وسلموا عليه ودخل معهم إلى مصر من باب النصر بموكب هائل بعساكرهم وطبولهم وزمورهم وخيولهم وعربانهم ونسائهم وأطفالهم فى نحو خمس ساعات من النهار إلى أن وصل إلى داره بالأزبكية وانفض الجمع وضربوا عدة مدافع عند دخولهم المدينة وقد تغيرت ألوان العسكر القادمين واصفرت ألوانهم وقاسوا مشقة عظيمة من الحر والتعب وأقاموا على حصار عكا أربعة وستين يوماً حرباً مستقيما ليلا ونهاراً وأبلى أحمد باشا وعسكره بلاء حسناً وشهد له الخصم » .

الاب بولس مسعد

البخل كاشف العيوب

« لاتقدروا أن تعبدوا ربين : الله والمال »
الانجيل

لندع الضابط فى سجنه يشرب المرار على الأذى على حد تعبير بشار بن برد ، ولنعد إلى ما أعقب خطبة منيرة من أحداث .

يقول الأب يوسف ، وقد تولى وصف كل صغيرة فى تسلسل هذه الخطبة :

فى الوقت الذى كان والد الخطيبة يتقبل التهانى والأمانى ، ووالدتها تسمع أحاديث الجارات المخلصات ، والحاسدات على السواء ، والفتاة غائصة فى لجة من الأحزان والهموم ، ومتعزية بعض العزاء فيما قاله الضابط لها قبيل سفره ، كان فرح نبيل ووالدته بالغاً . فقد كرم وفادة الساعى ، ووصله صلة ألهجت لسانه بالشكر الطويل ، والثناء الجزيل . ثم أمر أحد موظفيه ليخط رسالة إلى صديق البيت القديم يوسف مرعى يشكره على همته ويثنى على إخلاصه ويؤكد له أنه موافق على كل ما أجراه . وأنه بعد شهرين سيرسل معتمداً من قبله مع كل ما يلزم ليأخذ الفتاة صحبة والدتها إلى الإسكندرية ، وأنه مستعد للإنفاق على معدات العرس من غير أن يكلف أهل العروس شيئاً . ثم قال : « يجب أن يتم العقد فى الإسكندرية على أفخم ما يكون من العظمة والترف بحضور أكبر عدد ممكن من قواد جيوش الاحتلال » .

نقل يوسف مرعى الرسالة إلى القسيس ، وكلفه أن يأخذ رأى والدى الفتاة فى الموضوع ، فقال شاهين للكاهن : « أعطنى مهلة لأستشير زوجتى وابنتى » .

وأجابه الكاهن : « طلبك معقول فليكن كذلك » .

ماكاد الكاهن يغادر منزل يوسف عائداً إلى البارجة حتى وجد فى فنائها جندياً فرنسياً ، فخاف منه وتوقع الشر . إنما الرجل كان لطيفاً فدنا منه ولثم يده وقال له : « كنت فى القاهرة ، وقابلت المسيو أنطوان وكلفنى أن أحمل إليك هذه الرسالة » .

وهاك نصها :

« سيدى الأب الجليل أدام الله بره

بعد لثم يدكم واستمداد بركة صلاتكم فاننى قد عدت إلى مصر ولكن بمذلة وإهانة . وأنا اليوم مطمور فى الحبس لأننى وقفت فى وجه أمير الجيوش وبرهنت له أن قتل الأسرى جريمة لاتغتفر فحنق على وأمر بربطى بالحبال وجلدى ثم رجعت مع كبار الأسرى مشياً على الأقدام من يافا إلى القاهرة وعاملونى أقسى معاملة ولولا رحمة الله لكنت اليوم بين الأموات . فأرجو يا حضرة الأب أن تذكرونى بصلاتكم ليمن الله على بالفرج القريب .

بلغوا تحياتى واحترامى لحضرة الشيخ مصطفى واشرحوا له جميع أحوالى وسلموا على شاهين العشقوتى وأهل بيته . وأطال المولى كريم بقائكم بالنعم » .

ولدكم المخلص

أنطون

طالع الكاهن رسالة الشاب « فكاد ينشق من الحزن » ، ثم سأل الجندى عن طريق إنقاذ المسكين فقال : « المال » .

وكان الكاهن فى غضون ذلك لايزال يفى الدراهم التى استدانها يوم قفل البارجة ، ويساعد الوطنيين على القيام بأود أسرهم ، فكتب إلى نبيل فى الإسكندرية يطلب منه المساعدة فى مشاريعه العديدة . فمضى خمسة عشر يوماً وإذا بالرد يأتى بالرفض ، فتأثر الكاهن من ذلك وقال فى نفسه : « سبحان الخالق . نذل نفسنا فى سبيل خدمته وهو لايرسل إلينا بقرش واحد لمشاريعنا . سامحه الله على بخله » . .

وصعد إلى منزل الشيخ وأطلعه على كتاب نبيل إليه وقبل أن يتكلم قال له :

— يا شيخ مصطفى لايجوز أن نرمى منيرة فى هذه البؤرة . لقد تحملنا غطرسة الرجل وضغطنا على قلب الفتاة ، ولكن بخله وقلة ذوقه قد كشفا النقاب عن بصيرتنا . . . أطلع والدها على جلية الأمر من غير أن تأتى على ذكرى . . .

فى اليوم التالى جاء شاهين إلى الكاهن وقال له :

— ضميرى تعب ، ولا أعلم كيف تعود الراحة إلى نفسى .

— قل يا ابنى ولا تخف .

— الظاهر أن نبيلا ليس متكبراً فقط بل هو بخيل أيضاً . شرفه فى ماله وشهامته فى بطنه . . . لن أرضى به زوجاً لابنتى ...

— من قال لك ذلك ؟

— الشيخ مصطفى .

— الشيخ لايكذب أبداً وكلامه مقدس . . . منيرة تستحق كل توفيق .

— هذا من حبك لنا يا أبانا . لكن كيف نستطيع فك الخطبة ؟

— دع الأمور للمقادير . . . على التدبير .

وبعد ثلاثة أيام ذهب الكاهن صحبة يوسف مرعى إلى منزل ثاهين ليلا فرحب بهما ترحيباً حاراً إكراماً للكاهن فظن الرسول أن الترحيب به فانتفخ كالطاوس وقال :

— كتب إلى نبيل بك من الأسكندرية يطلب سفر العروس إليه صحبة والدتها فقط لإجراء مراسم الإكليل .

— لاحكم لإنسان على . أنا لاأترك زوجتى وابنتى تسافران إلى الإسكندرية وحدهما .

— مثلما تريد إنما السفر يكون على حسابك .

— على حسابى؟ كل شىء سيكون على حسابى . سفر زوجتى على حسابى ، وسفر منيرة على حسابى ، وسفر الكاهن على حسابى . وإبقاء فتاتى فى بيتى على حسابى ، وفك الخطبة على حسابى ، أليس كذلك يا أبانا ؟

قال الكاهن : « كلامك فى محله يا ابنى ، إنما لا أستطيع الاعتماد عليك فى فك الخطبة ، فيجب أن أسأل منيرة عن رأيها فهى صاحبة الشأن وحدها ، وكما تقول يصير .

قال الوالد : « هذا عين العقل يا أبانا » وخرج من الغرفة

ودعا الفتاة من الطابق العلوى ، فحضرت ، وجلست على مقربة من الكاهن بعد أن لثمت يده فقال لها :

— تعرفين يا ابنتى أن الزواج المسيحى لافراق فيه ولا طلاق . فيجب على الفتاة أن تكون حرة فى انتخاب عريسها لئلا تعيش فى الشقاء طوال حياتها . أتعدين بأنك تقولين لى الحقيقة ؟

— أنت تعرف أننى لا أكذب .

— كتب خطيبك من الإسكندرية يطلبك لإتمام عقد الزواج فما رأيك ؟

احمرت وجنتا الشابة خجلا ، وحدقت إلى والدها قائلة :

— الرأى لوالدى يا أبانا .

— لا . هذا خطأ . الرأى لك وحدك . لاتخافى تكلمى بصراحة .

قال الوالد : « أبونا يريد سعادتك يا منيرة فقولى له الحقيقة ، وكلنا نعمل بما تريدين ».

استغربت الفتاة من رقة حديث والدها والتفتت إلى الكاهن قائلة :

— أنا لم أقبل الخطبة بخاطرى ، ولن أرض بنبيل عريساً لى .

قال الكاهن : « أتقولين هذا من عندك أم أوعز به إليك ؟ »

— لو أكرهت على التزوج بنبيل لقتلت نفسى .

— هذا لن يحصل والراهب على قيد الحياة . . . أتتسلم منك عربون الخطبة ونفسخها ؟

— من غير شك .

وأسرعت فرحة ، وأحضرت العربون ، وسلمت الهدايا إلى الكاهن الذى دفعها إلى وكيل نبيل ، وعادت أدراجها تغنى وتقبل والدتها قائلة لها : « الله نجانى من مصيبة عظيمة » .

بعد أيام قال الأب لشاهين : « إننى مندهش من منيرة فانها فى أثناء الخطبة كانت الدموع لاتنشف من عينيها . ولما فسخنا الخطبة تغيرت أحوالها بسرعة وصارت مرحة . . . إنها فتاة محاطة بالأسرار ! »

وإذ كان القسيس يفكر فى جمع الدراهم المطلوبة لإنقاذ الضابط الشجاع دخل عليه الشيخ مصطفى وقال له :

— إن الضابط أنطون قد لاقى ما لاقاه دفاعاً عن حقوقنا . لذلك مررت على إخوانى وجمعت له خمسة أكياس . وأكبر الظن أنها كافية .

— عاطفتك نبيلة ، وتقديسك للواجب رائع ، فأجرك على الله.

تناول الراعى المال وبعث به إلى السجين عن طريق أمين ، فكانت فرحته به كبيره ، لأنه قصر أيام محنته .

الأب بولس مسعد

إبرهيم الثائر

« من لم يركب الاخطار لا ينل الرغائب »
مثل عربى

فى العاشر من يوليو من سنة ١٧٩٩ أفرجت القيادة العليا عن الضابط أنطون إلا أنها حرمته الإقامة فى دمياط أو فى أحد الثغور خوفاً من أن يفر إلى الأعداء أو يفضى إليهم بأسرار حربية تكلف الجيوش ثمناً باهظاً . فتقبل الضابط هذا الأمر بصبر ، وسعى لدى أحد القواد ليسمح له بالذهاب إلى مدينة دمياط بضعة أيام إنجازاً لأشغال تتعلق به شخصياً . وإذ كان القائد يدبر حلا لهذه المشكلة تأزمت الحال . ووصل أسطول عثمانى إلى الإسكندرية وأنزل جيشاً فى بوقير فرأى القائد الصديق أن يلتمس الإذن للضابط من أمير الجيوش ، فلان قلبه وخوله حق السفر إلى دمياط فى أواخر يولية .

كانت رحلته إلى تلك المدينة الحبيبة إلى نفسه فى مركب مثقل بالعتاد الحربى غادر ساحل إمبابة فى فجر يوم صفا جوه ورق نسيمه فسار المركب فى تلك القنوات الناشرة الثروة على جانبيها يترنح طرباً فبلغ دمياط بعد أربعة أيام من مغادرته القاهرة . وأفكار صاحبنا فى تلك الفترة من الزمان ، مقسمة بين منيرة والتحليل له من نذوره المؤبدة ، وبين اندحار الجيش العثمانى والأسطول البريطانى فى معركة بوقير ، وانتصار الجيش الفرنسى ،

وزهو نابليون وصلفه . وهو يتمنى من صميم فؤاده لو أن الدائرة دارت على الفرنسيين ليخففوا كابوس احتلالهم عن البلاد ويرجعوا إلى سياسة الاعتدال والرحمة .

لم يطو صاحبنا فى دمياط ساعات لإنجاز بعض الإجراءات الرسمية حتى أسرع إلى خادم الرعية يطلعه على أحواله ويسأله عن التحليل ، ويطلب بركته ورضاه ، فرحب به الراعى أجمل ترحيب وباركه وقال له :

— ليس من المنظور أن يأتى التحليل فى هذه السنة ، فتوكل على الله وكل آت قريب .

ثم دعاه إلى العشاء على مائدته فقبل الدعوه مسروراً واجتمع بعد الأكل بالشيخ مصطفى وشاهين وأهل بيته فى منزل جار يدعى الحاج أحمد وهو من رجال المقاومة الذين أبلوا بلاء حسناً فى تلك الأيام السوداء . ولأول مرة عرف الضابط إبرهيم بن الشيخ مصطفى ، وهو بين رجال المقاومة زعيم الشبان وزينتهم . وما شد ماكانت دهشته لما خاطبه إبرهيم بالفرنسية وأجاد التعبير والنطق بلغة حسنة لالحن فيها ولا تردد وخاصة لما علم أن الشاب قد تعلم فى لبنان . وقد تحمس عند ذاك الشيخ مصطفى وقال :

— أسفنا على الأذى الذى لحق بك بسبب دفاعك عن قضية البلاد العادلة . فأنت بعملك هذا أصبحت من الوطنيين المخلصين الذين تقدسهم الأجيال الآتية .

— إننى لم أقم إلا ببعض المتوجب على .

— كلنا فى هذا المكان نعتنق عقيدة سياسية واحدة . ولا يريد الواحد منا إلا إنقاذ الوطن فما رأيك فى حركة ثورية شاملة ؟

— إننى واقعى لا أؤمن بالأوهام ، ولا أصدق إلا لغة المنطق والأرقام . إن حركتكم مهما كانت شاملة وقوية لن تفيد البلاد فى الظروف الراهنة إلا سفك الدماء البريئة وتدمير المدن والعساكر الآمنة ، لأنكم لستم أشد بطشاً من الجيش العثمانى الذى يؤيده الأسطول البريطانى ، ومع ذلك فإن نابليون قد انقض عليه فى بوقير بستة آلاف مقاتل فى الخامس والعشرين من الشهر المنصرم ، وأذاقه الهزيمة النكراء فقتل عدداً عظيما ، وأسر عدداً أعظم ، وحرق نصف الأسطول وأكثر . والعاقل من اتعظ بغيره !

لم ترق إبرهيم هذه الكلمة المتزنة ، فقد استمع إليها متململا ، ولم يشأ أن يجيب بأكثر من كلمتين وقد غلى الدم فى عروقه ومنعه من الرد المتبسط فقال :

— أقوال حضرة الأخ صحيحة ، لكن الخنوع يضعف الهمم .

— لاأقول لكم استسلموا لليأس ، واتركوا النضال . إن الكفاح فى سبيل حياة حرة شريفة هو فرض واجب على المواطن المفيد . أما فى الوقت الحاضر فيجب أن نقوى الشعور القومى ، ونغذيه ليتكتل ثم تسنح الفرص فيندفع فى طريقه كالزوبعة يستأصل بضحايا قليلة التقاليد البالية والأساليب الانحطاطية .

قال الشيخ :

— معنا أن الإنجليز يعدون جيشاً جراراً لطرد الفرنسيين من مصر .

— عاشرت الأروبيين وخبرتهم فوجدتهم واحداً فى استغلال الأمم الضعيفة . أتظن أن الإنجليز يريدون إجلاء الفرنسيين عن أرضنا حباً لنا ؟

قال القسيس : إن لم يكن حباً لنا فلماذا ؟

— المطلع على الحالة السياسية يعلم أنهم يطردون الفرنسيين ليحلوا محلهم . ومن يعش ير .

قال الشيخ : « إذن نحن بين أعداء ثلاثة : الجيش العثمانى والإنجليزى والفرنسى . دعهم فى صراعهم ففى إضعافهم قوتنا ».

— هذا عين العقل . ليسمح لى الشيخ الوقور أن أضيف عدواً رابعاً أفتك من الثلاثة ، هذا العدو هو زمرة المماليك .

كانت منيرة تسمع أقوال الضابط بلذة وتفتخر فى قرارة نفسها أنها هى التى حولته عن مبادئه ، وجعلته يعتنق القومية القويمة . وكانت تردد فى حنايا صدرها : « هذا هو الرجل الذى يقدرنى حق قدرى لأنه قد فهمنى » .

وظل الضابط إلى أواخر شهر أغسطس فى دمياط صارفاً أكثر أوقاته عند شاهين والأب يوسف والشيخ مصطفى وإبرهيم إلى أن تسلم كتاباً ينبئه أن أمير الجيوش قد سافر إلى فرنسا لفتح البحر ، وإرسال الجيوش الجرارة ، والمعدات الحربية الفتاكة حتى يقبض على القطر المصرى بيد من حديد ، ويقطع دابر المفسدين . ثم حذره المراسل من القائد العام الجديد كليبر ، لأنه كان من أشد القواد بغضاً له .

إن الشق الأول من الرسالة أثلج صدر أنطون لأنه ظن — وقد حققت الأيام ظنه — أن العاهل الفرنسى قد رجع إلى وطنه ، لأنه تأكد من أن نهاية أيام جيوشه فى مصر قد دنت . غير أن الشق الثانى أحزنه لأن القائد الجديد كان جندياً قاسى القلب ، صلب الإرادة . يجاهر بأن المصريين لايستحقون الرحمة وأن الواجب أن يؤخذوا بالعنف . فتوقع صاحبنا ازدياد النكبات والويلات على يدى هذا القرم العنيد .

ثم نقل هذه الأخبار إلى القسيس ، وحرضه على الإخلاد إلى السكينة ، وإعداد الناس للعمل فى الساعات الحاسمة وقال له :

— الواجب يقضى على بالرجوع إلى القاهرة ، فخذوا حذركم ، ولا تقوموا بحركات طائشة تجر عليكم الوبال والدمار .

أقنعه الأب أنه وزملاءه يدركون عواقب الثورة وباركه ، ودعا له بالتوفيق فشكره وسار على بركة الله .

واليوم نعرف أن نابليون قد غادر وادى النيل حزيناً لأن أسطوله غرق ، وجيوشه تحطمت على أسوار عكا ، وأحلامه فى تأسيس أمبراطورية شرقية تلاشت ، وطريقه إلى الهند قد أوصد .

إن الوصول الطموح يحول اندحاره إلى انتصار ، ونابوليون من هذا الطراز الفذ فهو بعد إخفاقه فى المشرق قد وجه نظره إلى الحالة الداخلية فى بلاده حيث علم أن الحكومة قد دب فيها الضعف فرأى بثاقب فكره أن ما عجز عن تحقيقه فى المشرق سيدركه فى فرنسا ، وترك عندئذ عساكره وعاد إلى وطنه فاستقبلته الجماهير

استقبال المنقذ ، ووثب بعد ذلك إلى كرسى الحكم وكتب لنفسه صفحة جديدة فى التأريخ .

وهناك رجل آخر وجه الضربة التى تلقاها إلى ناحية الفائدة والظفر ، ذاك هو محمد على منشىء مصر الحديثة . جاء متطوعاً مع الفرق العثمانية ، وكان ضمن الذين نزلوا فى دمياط ، وقد رأى اندحار رفقائه الشجعان أمام نظام الجيش الفرنسى القليل العدد ، وفهم الفرق بين الشجاعة الغشيمة والقوى المنظمة ، وشاهد فائدة « المربعات » التى أنشأها بونابرت وقامت فى وجه أعدائه قلاعاً بشرية قلما قهرت .

الأب بولس مسعد

نار وأمطار

« لايسلم الشرف الرفيع من الأذى
حتى يراق على جوانبه الدم »

المتنبى

كانت الفترة التى صرفها الضابط فى دمياط مفيدة له من كل الوجوه . عرف فى خلالها إبرهيم وزملاءه الشجعان ، وأعد معهم الخطط الناجعة كما أنه درس أخلاق منيرة عن كثب . وبات ينتظر التحليل له بالزواج من رومية ، وانحصر جهده فى مساعدة الوطنيين خفية .

كان الضابط فى طريقه إلى القاهرة يحوك فى مخيلته مشاريع المستقبل التى محورها منيرة وهو لايدرى أنه قابض على ماء ، وأن أحداث الزمان فى تقلب ، وأن الأقدار تلعب بنا كما يلاعب غلام عصفوراً .

وصل المسكين إلى القاهرة فضمه القائد الجديد إلى مكتبه فعرف أن الظروف المحدقة بالحملة كانت قاسية : العثمانيون يدخلون العريش مكبرين ، والإنجليز ينزلون الجحافل التركية بعتادها على شواطىء دمياط وأسطولهم يبذل الجهود لتأمين طرق التموين ، لأن الإنجليز يدركون أنهم لن يستطيعوا احتلال مصر ما دام الفرنسيون فيها . والمماليك يجمعون صفوفهم لأخذ ثأرهم عندما تدق الساعة . أضف إلى ذلك أن سائر رجال الحملة قد ملوا القتال

والحروب فى بلاد نائية ، وبرح بهم الشوق لرؤية زوجاتهم وأولادهم وأقاربهم . لذلك عقد كليبر العزيمة مع أركان حربه على الجلاء عن مصر . ولم يعر الانتصارات الحربية أى اهتمام ، ثم اتصل بالوزير التركى يوسف باشا قائد الجيوش العثمانية فى الصالحية ، واتفقا على أن يغادر الفرنسيون مصر فى ظرف ثلاثة أشهر ويعودوا إلى بلادهم على الأسطول البريطانى . ووقع قائد الأسطول سيدنى شميت هذه الاتفاقية للعمل بها .

كان أنطون بين التراجمة الذين رافقوا القائد إلى الصالحية ، وأول من نقل الاتفاقية إلى اللغة العربية ، وقد أنفذ صورة منها إلى رجال المقاومة فوزعوها فى سائر أنحاء القطر والجميع يكادون يطيرون من الفرح ناسين أو متناسين أن الاحتلال العثمانى أفظع من أى احتلال غيره . وقد ندد الجبرتى فى تاريخه بطرق عساكرهم ، وقوادهم القبيحة ، وأهمها عدم التفاتهم إلى شكاوى الشعب .

غير أن تلك الاتفاقة لم ترق بريطانيا فنقضتها بحجة أن ممثلها لا يملك حق عقدها ، وحاولت إرغام قائد الحملة على التسليم من دون قيد ولا شرط مستندة فى إملاء إرادتها إلى الجيش العثمانى الذى احتل القسم الأكبر من وادى النيل ، وكان عدده يربو على السبعين ألفاً . فجمع القائد أركان حربه وأطلعهم على نوايا بريطانيا فقرروا امتشاق الحسام من جديد لأن الشرف الرفيع لا يسلم من الأذى إلا بالدم كما ينادى المتنبى إمام المنشدين الحربيين . ولم يمض على هذا القرار عدة أيام حتى أدركت الجيوش الفرنسية جحافل

العثمانيين بعين المرج وسرياقوس ، فهزمت الأعداء . وهكذا سجل كليبر لنفسه مجداً حربياً فى تلك الموقعة التى تسمى موقعة عين شمس .

ولحق المنتصرون بالمنهزمين إلى بلبيس والصالحية ودفعوهم إلى الصحراء . ففر الوزير على رأس مئات قليلة من فرسانه ، وهامت فلول جيشه على وجوهها فى تلك الفدافد والصحارى .

عاد أنطون بعد موقعة عين شمس إلى القاهرة فوجد زمام الحركة قد فلت من يدى العقلاء فثار الطغام ، واقترفوا الموبقات . قال الجبرتى : « تحزب كثير من طوائف العامة والأوباش والحشرات وجعلوا يطوفون بالأزقة وأطارف البلد ولهم صياح وضجيج وتجاوب بكلمات يقفونها من اختراعاتهم وخرافاتهم » . وزادت الفلول التركية المتقهقرة الطين بلة ، فأوعز نصوح باشا عند ذلك للعامة أن يستأصلوا شأفة المفسدين وقال لهم : « اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم » فلما سمعوا منه ذلك هاجوا وماجوا وراحوا يقتلون من يصادفونه ويكبسون البيوت ، وينهبون ويأسرون ويفضحون النساء . ولم يميزوا فى ذلك بين مسلم ونصرانى . كل ذلك والأتراك يتفرجون عليهم ، ويشدون عزائمهم لأن كرامة البلاد لاشأن لهم بها وليس من مصلحتهم إجماع الرعية على أمر واحد .

أما القائد كليبر فانه لما تأكد من هزيمة الوزير العثمانى وهربه أبقى قسما من جنوده فى الصالحية وبلبيس والقرين لتوطيد الأمن ولحفظ النظام ثم رجع إلى القاهرة وقد بلغته الأخبار بما حصل من

دخول ناصف باشا والأمراء وقيام الرعية ، فتأهب للحوادث الجسام ، ودخل داره فى الأزبكية ، وأمر جنوده فأحاطوا بالمدينة ، ومنعوا الداخل والخارج ، وقطعوا عنها المياه ، وأصلوها ناراً حامية من التلول والسفوح ، واستمروا على ذلك عدة أيام ، فعزت الأقوات ، وغلت الأسعار ، وندرت الحبوب ، واختفى الخبز من الأسواق ، وفحشت أسعار ماء الآبار ، وصارت العساكر العثمانية تخطف ما تجده بأيدى الناس .

ولما امتنعت القاهرة عن الاستسلام ، وعرف الفرنسيس من جواسيسهم أن أحد المحرضين على الشر هو إسمعيل كاشف الألفى راقبوه بدقة حتى تيقنوا أنه تحصن ببيت أحمد آغا شويكار ، فجعلوا تحته لغما ، وأشعلوه فرفع ما فوقه من الأبنية والناس ، وطاروا فى الهواء ، واحترقوا عن آخرهم على حد تعبير الجبرتى .

وسارت الأمور على هذا المنوال أياماً كادت تقضى على سكان القاهرة وعلى بيوتها . فخاف قادة الجيش الفرنسى هول العاقبة ، فأرسلوا إلى أهل بولاق يطلبونهم للصلح وترك الحرب ويحذرونهم من الاستمرار على العناد فلم يرضوا ، وصمموا على القتال ، فكرروا عليهم الطلب فازدادوا تهوراً وشغباً ، فأنفذوا فى خامس مرة فرنسياً ينادى : « بالأمان » فأنزلوه عن فرسه ، وقتلوه . وظن الرعاع إنما هم يطلبون الصلح عن عجز . عندئذ ثار قائد الجيش ثورة عنيفة ، وأمر جنوده فى ليلة كثيرة الأمطار بالهجوم على المدينة وبولاق . يصف الجبرتى ذلك فيقول :

« اغتنموا الفرصة وهجموا على البلدين من كل ناحية وعملوا فتائل مغمسة بالزيت والقطران وكعكات غليظة ملوية على أعناقهم معمولة بالنفط والمياه المصنوعة المقطرة التى تشتعل ويقوى لهبها بالماء . . . كانوا يرمون المدافع والبنبات من قلعة جامع الظاهر وقعلة قنطرة الليمون ويهجمون أيضاً وأمامهم المدافع وطائفة خلفهم بواردة يقال لهم السلطات يرمون بالبندق المتتابع وطائفة بأيديهم الفتائل والكعكات المشتعلة بالنيران يلهبون بها السقائف وطرف الحوانيت وشبابيك الدور ويزحفون على هذه الصورة شيئاً فشيئاً والمسلمون أيضاً بذلوا جهدهم وقاتلوا بشدة همتهم وعزمهم وتحول الآغا وأكثر الناس إلى تلك الجهة وزلزلوا فى ذلك اليوم والليلة زلزالا شديداً . وهاجت العامة وخرجت النساء والصبيان ، ونطوا من الحيطان والنيران تأخذ المتوسطين بين الفئتين من كل جهة . هذا والأمطار تسح حصة من النهار وكذلك بالليل . . . وقاتل أهل بولاق جهدهم ، ورموا بأنفسهم فى النيران حتى غلب الفرنسيس عليهم ، وحصروهم من كل جهة ، وقتلوا منهم بالحرق والقتل وسلبوا بالنهب والسلب . وملكوا بولاق وفعلوا بأهلها ما تشيب من هوله النواصى وصارت القتلى مطروحة فى الطرقات والأزقة واحترقت الأبنية والدور والقصور » .

فى ٢٥ من أبريل تم النصر للفرنسيين وسط الدماء الغزيرة والحرائق الفظيعة وفر الجيش التركى من القاهرة مع إبرهيم بك ، وأمراؤه ومماليكه والألفى وأجناده ومعهم السيد عمر مكرم النقيب والسيد

أحمد المحروقى ، وصفا الجو لجيوش الاحتلال . وأنزلوا أفدح القصاص وأقساه بالمحرضين على الثورة والنافخين فى نارها وفرضوا على المدينة الضرائب وعاملوا الناس بالقسوة والقوة والشدة .

يقول الراهب : أبكت هذه الحالة المحزنة الضابط أنطون فجلس على الأطلال نادباً شاكياً: رباه ماذا صنع هؤلاء المساكين حتى أمطرتهم بهذه النكبات ؟ أهم أكثر الناس شراً ؟ أليس الباشا التركى وجنوده هم الذين دفعوهم إلى الفتنة دفعاً ؟ ألم يغفر لهم جهلهم ما اقترفت أيديهم ؟ إنهم لايفهمون من الدين شيئاً ولا يعرفون من حقائق الوجود لا ألفا ولا ياء !

ها إن المنازل متهدمة ، والطرق نائحة ، والحدائق نادبة ، والساحات مقفرة إلا من الجيف المنتنة والخنادق والمتاريس الهادئة ! أما العدو فانه فرح بهذه المناظر التى تقطع نياط القلوب ، وأما الأتراك فانهم قد فلتوا من قبضة العدالة ، وراحوا يضحكون فى سرهم من ذل بنى أمى !

أيظل الطغام دائماً سبباً فى نكبات الأوطان ؟ لو ملكوا أعصابهم وسمعوا من العقلاء لكنا فى غنى عن هذا الخراب ، وهذه المشاهد الراعبة !

أما هذا القائد القاسى القلب ، فهل يظل بمنجاة من عدل الخالق ؟ لقد كان قادراً بمهارته الحربية أن يتفادى كل هذه الدماء والدموع ، لكنه أراد أن ينتقم ، إنما آخرة المنتقم أنظع من الانتقام نفسه .

الأب بولس مسعد

سليمان الحلبى

« من أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ »
الانجيل

عاد الشاب إلى عمله وهو فى حالة نفسية مضطربة وقد آوى إلى فراشة فتراءت له الأشباح والأخيلة ترعبه وتناديه : كيف تسمح لنفسك بعد أن شاهدت من فظائع التقتيل والتدمير أن تخدم وحشاً ضارياً ؟

إنك نذل مسف إن ظللت فى مكانك لاتريم !

نهض من فراشه مذعوراً وجلس يصلى . كانت مفاتن العالم وأهوال المعارك وغطرسة الحكام قد أبعدته عن الله فشعر فى تلك الساعة بجرمه وأظهر استعداده للتكفير عنه .

استيقظ باكراً وخلع ثيابه العسكرية واتشح بقفطان قديم وانسل هارباً . ولم تمض على هربه ثلاثة أيام حتى صار بمأمن من الأعداء فأرخى لحيته وعمد إلى أساوب الكلام البدوى القريب الشبه من اللهجة اللبنانية وأطلق على نفسه اسم « أبو أحمد » وجعل يتنقل من مدينة إلى مدينة، ومن دسكرة إلى دسكرة حاضاً الناس على المقاومة بفطنة إلى أن لقى فى بلبيس الشاب سليمان الحلبى فتعرف إليه ، وحادثه مرات عديدة .فى آخر لقاء قال له سليمان :

— إننى سأنتقم لدينى وملتى .

— ممن ؟

— من القائد الذى أذل الإسلام ، وهتك الأعراض ، وسلبت جنوده الديار .

— وكيف تتوصل إليه ؟

— أطلب العون من الله فيهدينى إلى مرشد حكيم .

— ألا تعلم أن القتل جريمة يعاقب عليها الرب ، وأنت تطلب المساعدة منه تعالى لارتكاب المحرمات ؟

— لاأعرف سوى شىء واحد ، وهو الانتقام من القائد .

— ألا تخاف الله ؟

— إننى سأصرعه ولو نزلت بعد ذلك إلى الجحيم .

— ما رأيك لو أخبرت الفرنسيين عنك حتى يأخذوا حذرهم منك ؟

— لن تفعل لأنك وطنى شريف .

— الإنسان يقول كثيراً ويعمل قليلا .

— هذا صحيح ولكننى سأقتله مهما كلفنى ذلك من ثمن .

إن العاطفة لم تترك صاحبنا فى الحيرة المؤلمة ، فصورت له أن أمير الجيش المحتل يستحق القتل لأنه أخذ الناس بالشدة وعاملهم بالقسوة وجرعهم كأس الذل حتى الثمالة ثم أضاءت عاطفته نور بصيرته فصاح بقوة اللاشعور قائلا : « حقاً إن قتله حلال » وخاف أن ينكشف سره لأحد الناس فيوشى به ويلاقى حتفه كما أنه خاف من عقاب السماء فقال : « أغفر لى اللهم . إنك أنت الديان العادل » .

افترق الرجلان وذهب كل منهما فى طريق . سليمان الحلبى سار إلى القاهرة ، وأقام فى جامع الأزهر يفكر ويراقب ويتحفز لتنفيذ خطته ، وأنطون قصد دمياط متخفياً وضميره يذيقه مر العذاب . وظل أياماً فى هذه الحرب حتى اهتدى إلى حل أراح ضميره ، فراح يردد قائلا :

« لست مسؤولا عن حياة القائد كما أننى لم أحرض سليمان على قتله ، فاذا فعل كان ذنبه على رأسه . . . إننى هولت عليه بافشاء السر ، فلعله يرعوى عن غيه . . . »

وصل إلى دمياط منهوك القوى ، مهدم الأعصاب ، فارغ المعدة فتهالك على ظل وارف بعيد عن المدينة بعض البعد ، ورقد تحته حتى إذا دجا الليل لبسه وسرى إلى القسيس يطلب مسكناً ومأكلا . ولما شاهده الكاهن بهيئته الجديدة كادت تغيب عنه معالمه غير أن صوته وقامته وتقاطيع وجهه كشفت عن حقيقته فعرفه وقدم له أكلا ثم سأله عما جرى له فأخبره بالحقيقة وختم حديثه قائلا :

أرى من الجبن والعار أن يبقى الإنسان فى وظيفة لاترضى ضميره !

— حسناً فعلت يا ابنى . إن ريح الاحتلال لذاهبة بسرعة .

— سمع الله منك !

— إن شاهين طريح الفراش هل تذهب معى لعيادته ؟

— ليس لى غيرك فى الحياة ، فعليك أن تدبرنى .

قال هذا واغرورقت عيناه بالدموع ، فظن الكاهن أن معاملته الرقيقة أثرت فيه فانتزعت عواطفه من مخبآتها وأثارت شواعره من مكنوناتها فربت كتفه وقال له :

— احمد الله فى السراء والضراء ، وتوكل على فى كل ما تريده ، لأننى أجد لذة فى خدمة البائسين .

ودخل « أبو أحمد » دار شاهين صحبة القسيس . وخيل إليه أنه فى حلم ثم تمالك نفسه وجلس على مقربة من المريض فلم يعرفه بلحيته الكثة وجلبابه المتسخ فتفرس فيه الضابط المتنكر هنيهة من الزمان ثم قال له :

— ألم تعرفنى ؟

وكأن هذه العبارة كانت مفتاح الرصد فقال له :

— أنت الضابط الذى أنقذتنى من الجلد . ماذا حدث لك ؟

قص عليه صاحبنا النكبات التى تألبت عليه ، والمرائر التى شربها ثم قال : « إن شاء الله تقوم بالسلامة وتفرح بمنيرة »

— تنهد شاهين من عمق أعماق نفسه وقال له : هذا لن يكون لأننى أشعر بدبيب الموت يجرى فى عروقى .

— التشاؤم من المرض أفظع من المرض عينه . ثق أنك ستقوم .

— لايدرى ما فى الإنسان إلا روح الإنسان . نفسى تحدثنى بالموت العاجل . . . فقط أطلب من الله أن يبيض حظ منيرة لأننى لا أملك مالا يقوم بأودها .

— لاتشغل بالك فى أمور المستقبل ، فمعرفتها عند الله وحده ولا يتنازل عنها لأحد من خلائقه .

طوى « أبو أحمد » بضعة أيام فى منزل القسيس وكان دائم التردد إلى بيت شاهين .

حدث مرة أن استغرق المريض فى نوم هادىء وذهبت الوالدة لشراء بعض الحاجيات فاتخذ « أبو أحمد » هذه الفرصة لمصارحة منيرة فيما نواه . قال :

— تعرفين أننى غيرت مجرى حياتى ، واعتنقت العقيدة القومية حباً لك ، واحتملت فى سبيل ذلك المشقات وعذاب السجون . أترين بعد ذلك أن ترفضى لى طلباً ؟

— كل طلب غير مشروع أرفضه لأن طاعة الخالق أولى من طاعة المخلوق مهما كان حبيباً إلى القلب ، قريباً من النفس .

تهيب الضابط الموقف وانتفض انتفاضة المقدر المستنكر وقال :

— أعرف متانة أخلاقك ، ولذلك لن أطلب منك إلا ما هو مشروع .

— قل .

— إننى أرى سعادتى فى التزوج بك لأنك فتاة فاضلة .

وأطرقت الفتاة فى الأرض وجلة وقالت له : أأخذت رأى القسيس ؟

— أؤكد لك أننى لن أفعل شيئاً إلا بموافقته .

— إذن كما يريد الرب .

— إسمعى يا منيرة أنا اليوم فى حالة لاتسمح لى بالاقتران بك ، فأطلب منك آن تعطينى وعدا صريحاً بأنك لن تتزوجى بغيرى. أأنت مستعدة ؟

— يعنى إذا لم أتزوج بك أدخل الدير ؟

— لا أريد هذه التضحية !

— وماذا ؟

— أن تنتظرى عودتى لمدة ثلاث سنوات وبعد ذلك أنت حرة .

سكتت الفتاة ، فظن الضابط أن السكوت علامة الرضى ففرح بهذه النتيجة ، وذهب إلى القسيس ليأخذ رأيه فى الموضوع فوجده كئيباً هزيلا فقال له :

ماذا جرى ؟

— قال : وافانى صديق من القاهرة يقول إن المدينة قائمة قاعدة الناس فى ذعر شديد والجنود يجرون فى كل ناحية يفتشون المنازل ، ويكبسون المجاورين فى الأزهر ، ويقارفون المنكرات وينادون : « إذا لم يظهر القاتل فلا بد من قتل أهل مصر عن آخرهم » .

— قاتل من ؟

— فى الرابع عشر من مايو الجارى كان أمير الجيوش كليبر يتداول بعض الأمور الهامة مع كبير المهندسين ، وكانا يسيران جيئة وإياباً فى حديقة قصر الأزبكية ، فدخل عليهما شخص غريب فأمره كليبر بالرجوع ، فأوهمه أن له حاجة عاجلة يريد قضاءها ولما دنا منه مد إليه يده كأنه يرغب فى تقبيل يد القائد فبسطها إليه

آمناً ، فقبض عليه وبقر بطنه بخنجر حاد ، فسقط على الأرض مضرجاً بدمائه ، فصاح رفيقه المهندس يطلب النجدة ، فهرول الجانى إليه وطعنه طعنات نجلاء ولاذ بالفرار .

– أهذا يحزنك ؟

– إن هرب القاتل يصب الويلات على الأبرياء ناهيك أن الإصلاح بالعنف لاأقره لأن مقاومة الشر بمثله شر .

– أعرف القاتل ، وهو لايهاب الموت ، فاذا لم يتوصل الجيش إلى القبض عليه قدمت نفسى ، وأرشدتهم إليه ، وأنقذت المدينة من دمار جديد .. وسوف أسافر إلى القاهرة ، وأحث القاتل على تسليم نفسه .

– حسناً تفعل .

– قبل سفرى لى رجاء عندك .

– قل فأنا لك .

– عاهدت منيرة على التزوج بها بعد استتباب الأمن وإجلاء الجيش المحتل عن البلاد .

– أهى موافقة على ذلك ؟

– على شريطة أن ترضى أنت .

– إذن سر على بركة الله ولكل حادث حديث .

قبل خروج أنطون أو « أبو أحمد » من دمياط كان الجيش قد ألقى القبض على القاتل فى البستان المجاور لمنزل القتيل المعروف بغيط مصباح ، إذ كان كان مختبئاً بجانب حائط مهدم ، فأحضر

إلى السجن وسأله المختصون عن اسمه وعمره وبلده فوجدوه حلبياً واسمه سليمان ثم شكلوا محكمة حافلة وأجروا محاكمته بصورة علنية . فظهرت لهم براءة أهل مصر ، وتركوا ما عزموا عليه من استئصال شأفتهم . كما أن تلك المحكمة قد قضت بإدانة ثلاثة آخرين كانوا عارفين بما عقد القاتل النية عليه ولم يخبروا عنه القيادة العليا ، وببراءة مصطفى البرصلى لأنه لم يكن له علم بقصد القاتل .

وقد أعجب سكان القاهرة بطرق المحاكمة العادلة التى أمرت بها قيادة الجيش وتقيدت بها المحكمة حتى أن العامة كانت تردد : « ما أعظم هؤلاء القوم الذين يحكمون العقل ولا يتدينون بدين ! إنهم بعد القبض على الجانى ، واعترافه بما اقترف من ذنب ، وإرشاده إلى الذين أخبرهم بما انتواه ، لم يعجلوا بقتله وقتل شركائه بل أعطوهم الفرصة الكافية ليدافعوا عن نفوسهم . حقاً إن ضبط نزوات النفس والخضوع لأوامر العقل من أهم أركان التمدن الحقيقى ! »

انتهى « أبو أحمد » إلى بلبيس فسمع أحاديث الناس وقرأ النشرات التى طبعها جيش الاحتلال باللغات الفرنسية والعربية والتركية ووزعها فى جميع أنحاء البلاد ، وهى تحتوى على أعمال محاكمة المتآمرين وكيفية تنفيذ حكم الموت فيهم . وقد استوقفت نظره فقرات وردت فى ذاك الحكم هذه حرفيتها : « اتفقوا جميعهم أن يعذبوا المذنبين ويكون عذابهم لائقاً للذنب الذى صدر ، وأفتوا أن سليمان الحلبى تحرق يده اليمنى ، وبعده يتخوزق ، ويبقى

على الخازوق لحين تأكل رمته الطيور . وهذا يكون فوق التل الذى برا قاسم بيك ، ويسمى تل العقارب ، وبعد دفن سارى عسكر العام كليبر ، وقدامه كامل العسكر ، وأهل البلد الموجودين فى المشهد . ثم أفتوا بموت السيد عبد القادر الغمزى مذنب أيضاً ... وكل ما تحكم يده عليه يكون حلالا للجمهور الفرنساوى ثم هذه الفتوى الشرعية تكتب وتوضع فوق البيت الذى يختص بوضع رأسه ، وأيضاً أفتوا على محمد الغزى وعبد الله الغزى وأحمد الوالى أن تقطع رؤوسهم وتوضع على نبابيت ، وجسمهم يحرق بالنار ، وهذا يصير فى المحل المعين أعلاه ويكون ذلك قدام سليمان الحلبى قبل أن يجرى فيه شىء » .

إن هذا العقاب الشديد استنزف العبرات من عينى « أبو أحمد » وشكر ربه لأن الجانى لم يبح باسمه فنجا مما أصاب أولئك التاعسين ثم قال فى نفسه : « لقد أصبح سفرى إلى القاهرة عبثاً ، ورجوعى إلى دمياط مكتنفاً بالأخطار . . . إن رجال الجيش أصبحوا مفتحى العيون وحذرين ، فاذا وقعت بين مخالبهم ان أنجو من الموت المحقق. الأوفق أن أشد الرحال إلى الإسكندرية حيث أشتغل بالتجارة إلى أن يفتح الله علينا أبواب الفرج » .

ولم يتردد صاحبنا فى تنفيذ ما أوصله إليه تفكيره ، فسافر إلى الاسكندرية ، واستأجر مخزناً ، وراح يتاجر بالغلال موهماً الناس أنه بدوى جاء المدينة بغية الربح من الجيش المحتل . ولكى يمعن فى التنكر اتخذ شريكاً له من أهل البلد يدعى « محمود » كان يقوم بالأعمال التى تستدعى الاختلاط بالناس أما هو فكان يدير العمل من وراء الستار .

الأب بولس مسعد

العودة إلى الدير

« أترك كل شيء واتبعني »
الانجيل

كتب الراهب ما كتب لأن موضوع خطبة منبرة شغل باله، وأزعج سلفه كما رأينا ، ولأنه أحب إبرهيم ، وأراد أيضاً أن يواصل تاريخ الراهب «الشالح» فى أدق تفاصيل حياته ليجعل من سيرته عبرة للرهبان وللناس عامة . وسوف نتابع معه سيرة الشاب بالتفصيل. أما الآن فلنعد إلى الجبرتى الذى يقول :

إن الفرنسيين بعد الفراغ من محاكمة المذنبين وقتلهم والتمثيل بأشلائهم نصبوا قائداً عليهم عبد الله جاك مينو الذى انتحل الإسلام ديناً ليتزوج بمسلمة شابة ، فأصدر أوامره بتنظيف المدينة فخرج المنادون يدعون الناس إلى الكنس والرش وحرق القاذورات وفى الغد اجتمعت عدة كتائب من الجيش الفرنسى تمثل جميع الأسلحة وعلى رأسهم القواد والضباط والعلماء والتراجمة وأعيان المدينة ومشائخها ومشوا بجنازة القتيل .

كان جثمانه موضوعاً فى تابوت من الرصاص ومحمولا على عربة مطهمة الخيول وعليه قبعته وسيفه والخنجر الذى قتل به وهو مغموس بدمه وشدوا إلى العربة أربعة أعلام صغيرة مشغولة من الشعر الأسود ، وساروا يضربون طبولهم ضربات حزن وعلى الطبول شرائط سوداء ، والجنود منكسة البنادق ، وكل شخص

منهم يعصب ذراعه بشريط أسود ، وألبسوا التابوت القطيفة السوداء وفى وقت الجنازة كانت المدافع تهزم فى جميع جهات القاهرة . ولما وصلوا إلى باب قصر العينى ركزوا التابوت على تل من تراب فى وسط تخشيبة أعدوها لذلك ، وعملوا حولها درابزين وفوقه كساء أبيض ، وزرعوا حوله شجيرات السرو ورتبوا حارسين يتناوبان الحراسة من غير انقطاع .

كان منو شيخاً مهدم القوى ، برع فى الإدارة المدنية ، لكنه لم ينبغ فى فن الحرب والمناورات السياسية كسلفه . فاستسلم للبطانة ، وللأحلام التى تهلك أصحابها فى الحروب . كان النذير يأتيه تلو النذير بدنو الجيوش التركية والإنجليزية من مصر فيصم أذنيه عن سماع ناقوس الخطر ، وينام على وسادة الطمأنينه والراحة .

وفى الثامن من مارس سنة ١٨٠١ وصل الأسطول البريطانى إلى بوقير ، وأنزل حملة عسكرية بقيادة السير رالف ابركرومبى ثم لحقت به الجيوش العثمانية ، ووطدت أقدامها على البر فى تلك الناحية .

وفى ٢١ من مارس التحم الجيشان فى معركة حامية الوطيس فأصيب القائد البريطانى إصابة مميتة واندحر منو بجيوشه وانسحب إلى الإسكندرية .

وخلف ابركرومبى فى القيادة البريطانية هوتشينسون فواصل الزحف إلى القاهرة بينما كان الوزير يوسف يسير إلى العاصمة على رأس جيش مؤلف من ثلاثين ألف مقاتل . فالتقى الجيشان

الحليفان حول القاهرة وهب إلى نجدتهما البرديسى وأعوانه . فرأى بليار قائد القاهرة نفسه فى مأزق حرج فترك العاصمة بين يدى الجيوش المتحالفة ، ورحل مع جنوده إلى الإسكندرية بعد أن أخذت ثلة من الجنود التركية سلامه وقدمت له التحية العسكرية المعتادة .

وبموجب الاتفاق الذى تم بين الفريقين تعهد الأسطول البريطانى بنقل الحملة الفرنسية إلى بلادها ووفى فى هذه المرة بوعده . ونجت مصر من غاصب عادل لتقع تحت قبضة مغتصبين لايرحمون .

يقول الراهب :

« وبينما كانت الجيوش الفرنسية تعمل على الرحيل ، وكان « أبو أحمد » يمنى نفسه بالفرج القريب إذ دخل عليه فى محله أحد الضباط الملحقين بتلك الحملة ، وطلب شراء بعض الغلال ، فاختلفا على السعر ، فشتم الضابط صاحبنا ورد عليه بشتيمة من نوعها ، فعرفه من لهجته ونبرات صوته وأساليب كلامه ، فغادره على عجل صامتاً ، واتصل على جناح السرعة بالقائد بليار ، وأخبره بأنه عثر على الضابط أنطون الهارب من خدمة الجندية ، فأصدر أمره باعتقاله .

بعد ساعتين كان صاحبنا مكبلا بالأصفاد ، ومقتاداً إلى السجن العسكرى ، فترك محله أمانة فى عنق شريكه وقال له :

— إن عدت إلى الدنيا فسآخذ منك رأس المال مع ربح قليل ، وإن لم أعد انتظر ثلاث سنوات ثم تصرف بمالى كيفما تحب على

شريطة أن ترسل إلى القسيس أنطون فى دمياط مبلغ خمسة أكياس وخمسة أكياس أخرى تسلمها إليه ليوصلها إلى أسرة شاهين العشتوتى .

— الأمل بالله أن تعود إلينا قريباً .

— كل الشك فى أمر الخروج .

تأثر الشريك من حظ الضابط العاثر واستغرب طيبة قلبه وإحساسه المرهف ، ودعا له بالعودة العاجلة والصحة التامة .

لم تمض ساعة من الزمان حتى كان أنطون فى حضرة القائد ، فانتهره وأغلظ له الكلام ثم أمر بحلق لحيته ، وإلباسه الثوب العسكرى ، واعتقاله فى السجن على ذمة التحقيق . غير أن الأيام كانت تشق عباب الحياة بسرعة ، وتصب الويلات والنكبات على رجال الحملة الفرنسية ، فلم تدع الوقت الكافى لبليار حتى يفتح التحقيق مع صاحبنا ، فأوعز إلى المختصين بتكبيله بالقيود ووضعه على ظهر أحد المراكب التى تنقل العتاد الحربى بحراسة ثلاثة جنود غلاظ الرقاب . وترك جيش بليار الشواطىء المصرية فى تضاعيف شهر يوليو ١٨٠١ ، عل ظهر الأسطول البريطانى ، فذاق الشقى الأمرين من الجوع والعطش والإهانة إلى أن سئمت نفسه الحياة واشتهى الموت ثم قال فى نفسه :

« عن قريب سيدنو الأسطول من جزيرة مالطة كما قال لى الحراس . لأجربن حظى فاذا استطعت الهرب أشرقت على الحرية بشمسها الجميلة وإلا فان الموت أفضل من هذه المرائر » .

وراح يفتش عن وسيلة ينفذ بها ما انتواه ، فلم يجد سوى الصليب الذهبي الثمين بالسلسلة البديعة الصنع ، المتدلى حول عنقه منذ فارق أمه فى لبنان . . فتودد إلى رئيس حارسيه ، ووعده بأنه إذا ساعده على التخلف فى جزيرة مالطة أعطاه الصليب بسلسلته الجميلة ، فسر الجندى بهذا العرض وغير سياسته مع صاحبنا .

بلغ الأسطول مالطة فنزلت الجنود تطوى بعض أوقات الراحة فى تلك الجزيرة ترفيهاً عن النفس . فظل الحارس الكبير يراقب المركب والسجين ، وأعطى زميليه فرصة حتى يمرحا ويسرحا مع السارحين والمارحين ، وقبيل عودتهما أخذ كبير الحراس الصليب والسلسلة ، وأخلى سبيل العاثر الحظ ، فلبس الظلام ثوباً وسرى على غير هدى يتلمس مأوى ، فانتهى به المطاف إلى دير لرهبان الفرنسيسكان الطليان فدخله ومكث عندهم مدة ثلاثة أشهر يشاركهم فى أعمالهم ومأكلهم ومشربهم وصلاتهم مدعياً أنه جاء من الشرق ليختبر بنفسه الحياة الرهبانية ، فاذا وجد نفسه قادراً على تحمل أعبائها لبس الثوب الرهبانى ، وإلا ظل بثوب الجندية الذى اشتراه من أحد الجنود الفرنسيين .

كان صاحبنا فى تلك الفترة من حياته يستعرض وقائع سيرته ، ويحلم بساعات اللقاء بمنيرة وبالرجوع إلى جمال الحرية . وجلس مرة منفرداً فى جهة من بستان الدير واستغرق فى التأمل والشرود الفكرى :

صدق القائل : سلامة الإنسان فى حفظ اللسان . إن غلطة

واحدة كادت توردنى حتفى . لن أقارف الأخطاء فى حياتى أبداً .

لكن أيستطيع الإنسان أن يعيش طاهراً نقياً من الأدران ؟ كم من مرة نرتكب الإثم ونذوق مرارته ، فنندم على فعلتنا الشنعاء ثم تدور بنا الحياة فننسى المقاصد التى أخذناها ونعود إلى التمرغ فى الحمأة !

فى أحد الأيام كان أنطون سابحاً فى الصلاة فظهر ضميره على عقله وصرخ فى وسط الكنيسة قائلا : « اللهم لاتعاملنى بحسب معاصى بل بحسب كثرة رحمتك . أعدنى إلى أحبائى لأن نفسى كادت تذوب شوقاً إليهم » . فاضطرب الرئيس والرهبان من تصرف هذا الرجل المجلبب بالأسرار ودعاه إليه بعد الصلاة وسأله : « أريد أن أعرف متى تعلن عن قرارك النهائى و ما معنى صلاتك : أعدنى إلى أحبائى ؟ »

— يعنى أهلى .

— وهل جئت الدير وأنت تجهل الآية: « أترك كل شىء واتبعنى » ؟ إذهب ولا تنس ما قلته لك .

بعد ثمانية أيام ودع الرجل الرئيس ورهبانه وطلب أدعيتهم وسار فى تلك الجزيرة هائماً على وجهه ومكرراً لنفسه : « منيرة منتظرة وسأعود » .

محمد على الكبير

« فى مصر رجل . . وفى لبنان أمة »
لامارتين
١٨٣٢

انطوى القرن الثامن عشر على أحداث كان لها أثر فى مستقبل أمم الأرض وخرجت بها مصر من ظلمات القرون الوسطى إلى فجر العصر الحديث .

وفى هذا المنقلب الحافل بالعظائم كانت الحياة كما هى الآن وكما ستكون فى كل عهد : طبقات من بنى البشر تزحف كالجراد فوق جثث الآباء ، ومئات الملايين من الناس تجرى كالنحل فى نشاط وحرص . وحفنة من الفلاسفة والشعراء والمفكرين يحاولون الوقوف فيجرفهم التيار . . .

. . . ونساء يحبلن ويلدن ويسلمن ثمرة أحشائهن لهذا العالم . . ومن هذه النساء نائلة التى تكنت منذ يوم زواجها بلقب « أم طانيوس » ولم تستحق هذا الشرف إلا اليوم . وها شاهين المريض يفتح الكتاب الدينى الضخم الذى ورثه عن أجداده فى غلاف من جلد الماعز ويكتب :

« فى ٢٨ شباط (فبراير) ١٨٠١ والساعة الخامسة والربع (٥/) عرب رزقنا ولداً ذكراً أسميناه باسم جده طانيوس » .

ثم يضيف آيات من وحى الكتاب الدينى ومن سيرة الآباء إبراهيم وإسحق ويعقوب التى ما زالت سيرة القبائل فى الشرق :

« أطلق نفسى يا رب فقد رزقتنى ذرية صالحة . . أعد يا رب عظامى إلى مواطن أجدادى . . واجعل لابنى فى ربوعها مقراً هنيئاً ومقاماً عزيزاً » .

دعت النساء والد الطفل إلى غرفة الأم ودخل الرجل متكئاً على عصاه وانحنى على فراش زوجته ونظر إلى ابنه وتملك نفسه ليحتفظ بوقار الأبوة وجلال الوصية :

« مصر يا نائلة عزيزة كريمة ، ولكن هناك أرزاقاً بائرة وتوتاً يابساً ينتظر ساعدى ابننا . . اننا يا نائلة قد هربنا من وطننا . . لاتنسى هذا . . أنا لست يائساً من رحمة الله ولكننى أشعر بدنو أجلى . . إننى أسامح ولا أحمل لأحد حقداً » .

كانت جيوش الترك والإنجليز والمماليك تحاصر القاهرة وتعبث فى أرض مصر فساداً وكانت مدافع الحروب تدوى وصواعق السماء ترعد . والإنسان متأثر أبداً بعاطفتى التشاؤم والتفاؤل ، فقد رأى شاهين فى هذه الرعود احتفالا بولده ، شبيها بتلك الاحتفالات التى تدوى لها الاودية والجبال عندما تزيد القبيلة «بارودة» ورأى فى تلك الظواهر بشائر المجد لابنه .

وفى يوليو ١٨٠١ رحلت جنود الحملة الفرنسية عن مصر كما رأينا .

* * *

سيرى القرن التاسع عشر أعاظم الشعراء وسيصل بالاختراعات إلى الذروة ، وسيقول ارنست رينان : « وددت لو أتيح لى أن

أرى أحوال العالم بعد مائة سنة !.. ان كتيباً بين يدى تلميذ صغير سيكون أعظم شأناً من تآليفنا كلها » . وستظل معرفة المستقبل غاية الغايات . ولكن كيف يعرف الإنسان مالا وجود له ؟

ستسير جنود محمد على فى أرجاء ثلاث قارات وسترتد عن القسطنطينية . وبين جنود محمد على هذا الطفل .

ولكن ، فلنعد إلى قصتنا بادئين بسنة ١٨٠١

باتت مصر بعد انهزام الفرنسيين نهباً مقسماً بين فئات عدة ، وفى هذا الجحيم المضطرم ، وفى هذه المنعرجات الملتوية والملتفة ، وفى هذا الظلام الدامس ، اختلط على الناس سواء السبيل حتى أن الجبرتى المؤرخ أخذ يسرد الوقائع بغير هدى . ولكن رجلا كان قد فهم كل هذا وبدأ فى حل العقدة بعد الأخرى وقد التف حوله ، خلاف جنوده الأرنؤد ، رجال وشبان أدركوا مآربه ، ومن هؤلاء شراذم العصاة الذين أرادوا تطهير مصر من الأتراك وجنودهم البرابرة من انكشارية ووجاقلية ودالاتية وأرنؤد ومن المماليك أتباع الألفى وأتباع البرديسى كما تطهرت من الفرنسيين ومن الإنجليز ، وكان إبرهيم قد تلقى الدرس من كتب التاريخ التى درسها فى المدرسة اللبنانية كما سمعه من فم الضابط المترجم أنطون الذى خبر أوربا .

يقول الجبرتى :

« وانقضى هذا الشهر وما حصل به من عربدة الأرنؤد وخطفهم عمائم الناس وخصوصاً بالليل حتى كان الإنسان إذا مشى يربط

عمامته خوفاً عليها . وإذا تمكنوا من أحد شلحوا ثيابه وأخذوا ما معه من الدراهم ويترصدون لمن يذهب إلى الأسواق مثل سوق إمبابة فى يوم السبت لشراء الجبن والزبد والأغنام والأبقار فيأخذون ما معهم من الدراهم ثم يذهبون إلى السوق و ينهبون ما يجلبه الفلاحون. ويأتون فى آخر الليل . . ويبيعونه بأغلى الأثمان . . . ووقع منهم القتل فى كثير من الناس . حتى فى بعضهم البعض وغالبهم لم يصم رمضان ولم يعرف لهم دين يتدينون به ولا مذهب ولا طريقة يمشون عليها ، إباحية . أسهل ما عليهم قتل النفس وأخذ مال الغير وعدم الطاعة لكبيرهم وأميرهم وهم أخبث منهم ! فقطع الله دابر الجميع !. . أما فعل كشاف الأقاليم فى القرى القبلية والبحرية من المظالم والمغارم وأنواع الفرد والتساويف فشىء لاتدركه الأفهام ولا تحيط به الأقلام . . . »

* * *

أما محمد على فقد كفاه أن يشاهد الأفرنج فى موقعة لهم ليفهم بعبقرية سجيته الفرق بين الشرق وما صار إليه والغرب وما أدرك من التقدم .

ولم تمر السنتان حتى كان الجبرتى يكتب ، بقلم لايمل وقلب لايرتاح ، الأسطر الأولى من عهد محمد على وهو الآن يسرد وقائع تنصيبه كالمشاهد الفاتر الذى سئم التحليل وانحنى تحت حكم الزمان المتقلب وأحكامه المتناقضة، لايحاول أن يدرك سر تقلباته !

إسمعه يقول :

« ربيع الثانى ١٢٢٠ (١٨٠٥) ليلة الاثنين ٤ منه حضر فى ذلك اليوم المشايخ الذين كانوا ذهبوا لملاقاة الفاتحين صالح أغا . . واجتمع الناس وطوائف العامة وخرجوا من آخر الليل وهم بالأسلحة والعدد والطبول إلى خارج باب النصر ووقفوا بالشوارع والسقائف للفرجة . وكذلك النساء والصبيان . وازدحموا ازدحاماً زائداً . ووصل (آتياً من استنبول) القابجى المذكور إلى زاوية دمرداش ونزل هناك وعمل له اسماعيل الطبجى الفطور فأكل وشرب القهوة وركب وانجرت الطوائف والغوغاء من العامة وهم يضربون بالبنادق والقرابين والمدافع من أعلى سور باب النصر والفتوح و استمر مرورهم نحو ثلاث ساعات وخرج كتخدا محمد على وأكابر الأرنؤد وطائفة من العسكر كبيرة والوجاقلية وكثير من الفقهاء العاملين رؤوس العصب وأهالى بولاق ومصر القديمة والنواحى والجهات مثل أهل باب الشعرية والحسينية والعطوف وخط الخليفة والقرافتين والرميلة والحطابة والحبالة وكبيرهم حجاج الخضرى وبيده سيف مسلول وكذلك ابن شمعة شيخ الجزارين وخلافه ومعهم طبول وزمور . والمدافع والقنابر والبنبات نازلة من القلعة . فلم يزالوا سائرين إلى أن وصلوا إلى الأزبكية فنزلوا بيت محمد على باشا .

« وحضر المشايخ والأعيان وقرأوا المرسوم الذى معه (مع القابجى) ومضمونه الخطاب لمحمد على باشا والى جدة سابقاً ووالى مصر حالا من ابتداء ٢٠ ربيع أول حيث رضى بذلك العلماء والرعية . وأن أحمد باشا معزول من مصر . وأن يتوجه إلى الإسكندرية بالإعزاز والإكرام » .

نسيب رهيبة الخازن

محمد على باعث مجد مصر

« الروح العربية أقامت الامبراطوريات »
من كتابى (Misr) ١٩٣٤

لم يكن تنصيب محمد على ليحل مشكلة مصر المستعصية . تولى محمد على فى سنة ١٨٠٥ ولم ينفرد بالحكم إلا فى سنة ١٨١١ بعد أن أهلك المماليك فى مجزرة القلعة . أما السنون المظلمة فقد شهدت حوادث مفجعة قابلها السكان بقوى مدافعة إلى أن أخذ يشد أزرها « عسكر النظام » الذى أنشأه محمد على .

كان لكل مدينة حماة يشتد بأسهم أو يضعف . وكانت أخلاط جنود الأتراك من الهمجية بحيث لايؤمن لها شر فى كل ساعة من ساعات النهار والليل . وتكفى الإشارة إلى « الدلاة أو الدالاتية » وهى فئة غير نظامية من محاربى الدولة ، ومعنى الكلمة فى التركية « المجانين » ليقشعر الإنسان من الفظاعة والوحشية اللتين كانتا تلازمان مرور هذه الشراذم من الأكراد القتلة والمجرمين فى أية ولاية تختار لها الدولة هذا القصاص .

فى القاهرة سلطات متعددة قد تتوازن أحياناً أو تتقاتل فى أزقة العاصمة وقصورها ، والقاهريون فى ذعر دائم وروع لايهدأ ليلا ولا نهاراً . وكبار الشيوخ والعلماء يردون البلايا عن الرعية ما استطاعوا إلى الأمر سبيلا . أما الأقاليم فهى تئن تحت نير الكاشف أو السنجق

أو المملوك أوالشيخ ، وكل يستبد . بل هى فى حالات كثيرة تحت رحمة « جندى » .

عاشت دمياط فى هذا الجو فى هدوء نسبى وكان لإبرهيم ورجاله فضل كبير فى ذلك . والشاب مع شدة بأسه ينتصح حيث تجب النصيحة ويحمى مدينته وجوارها . وقد وجد فى علمه خير المدبرين وفى رجاله من قبيلة الحبابية وغيرهم خير المعاونين وفى تصائح والده الشيخ خير التوجيه .

ذكر الرواة والمؤرخون تلك العناصر العربية البدوية التى وازنت بين السلطات ، وردعت الظالمين منذ عهد المماليك حيث كانت القبائل تراقب اختلافات الطغاة وتنضم إلى أحدهم ثم إلى الآخر وتربح من الاثنين . وفى أثناء الحملة الفرنسية ناوأ عرب القبائل جنود الحملة وأجبروا القواد على تبديد قواهم . وقد قال شاهد عيان من الفرنسيين هو الشفاليه شاتلان : « هذا ما يجعل كل إحصاء للقوات العثمانية ولقوة المماليك فى مصر أمراً مستحيلا إذ أن مجرد انضمام العرب لهذه القوات تضخم أعدادها فجأة بمقدار ٥٠٠٠٠ مقاتل » .

* * *

دمياط اليوم مظلمة ، والمتاجر مقفلة منذ أيام ، والسلب والقتل يهددان كل بيت وكل إنسان . وإبرهيم ورجاله ساهرون .

يصف القس حادث اليوم فيقول ما مؤداه :

مر الدلاة المخربون وامتدت أيديهم إلى النهب والسلب والقتل

فانتهكوا حرمة البيوت وحملوا الرؤوس المقطوعة فوق حرابهم وبقروا بطون الحبالى وسحقوا الأطفال تحت سنابك خيولهم واستباحوا الدم والعرض . وفى الليل جلس القس وصاحبه الشيخ مصطفى للتفكير فى مواجهة الحوادث وقد احتمى فى بيت الشيخ الكثيرون ومنهم شاهين وأم طانيوس ومنيرة. وقد قرر المجتمعون منذ ظهور الدلاة فى الصباح إستدعاء إبرهيم ورجاله للذود عن المدينة وبات المجتمعون ينتظرون وصوله وإذا بالنار تكتنف منزل الشيخ والنساء يولولن وأشباح القتلة تختلط على وهج النار باشباح الضحايا . .

هب الرجال وحمل كل منهم ما استطاع ، فهذا يحمل عصا ، وذاك فأساً أو معولا أو مجدافاً . ثم وصل إبرهيم ورفاقه ببنادقهم التى سلبوها من الجيوش منذ بدء الحملة الفرنسية ، ونشبت المعركة فجزع الدلاة وتسلل بعضهم للاحتماء بالبيوت وجعلوا من بيت الشيخ مصطفى قلعة تحميهم وهرب الباقون نحو البحر حيث تنتظر مراكبهم الريح للإقلاع إلى الديار الشامية . ولحق بهم من لحق من الناس . هذا يبتغى ماله المسروق وذاك يريد الانتقام لذويه وآخر . . .

قاتل إبرهيم دون البيت الذى ضم جميع من أحب . وفجأة سمع الشاب صيحة ذعر . فاذا بشاهين المريض يتخبط بدمه على أرض الشارع وقد رمته الوحوش القاتلة من النافذة . وإذا بنائلة ، وقد حرمت رجلها ، قد عادت إلى تقاليد أسرتها « بيت المجوم » وإذا بهذه المرأة تفج جمجمة فارس وتعمل فى وجه آخر مخالبها

وأسنانها . وهى تحمى ابنها وتنتقم لزوجها وتصيح صيحات الحرب التى رددتها أودية التين موطن أجدادها الأولين :

« وغى ! وغى ! وغى ! وغى ! »

رأى إبرهيم ورجاله هذا المنظر فألهبهم حماساً كما اهتز له الجمهور وتحول ذعره إلى شجاعة جنونية . وشعر الدالاتية بحرج موقفهم فقفزوا من السطوح إلى ظهور خيولهم وفر الآخرون من الشوارع مدحورين تحت وابل من المقذوفات . وهدأت الحالة ، ولكن منيرة كانت اختفت . وهنا جن جنون إبرهيم ونائلة الهجوم ، فأدار هذا جواده إلى طريق البحر حيث سفن الدالاتية ولحقت به « الهجومية » منثورة الشعور زائغة النظر ، وبعد دقائق معدودة كانت المعركة تدور بين فتيان الثورة من جهة والدالاتية من جهة أخرى . ووصل جنود « النظام » الجديد ، جنود محمد على ، وانتهت المعركة بعودة الأهالى وعلى رأسهم إبرهيم يقطر رأسه دماً وتحمل ذراعاه منيرة وأمامهم نائلة الهجوم وقد ذهب عقلها ، وهى تصيح صيحات الحرب اللبنانية :

« إن كنا شبنا ضهور الخيـــــل ما شابت

« وان كنا تبنا سيوف الحـــــرب ما تابت

بيت الشيخ مصطفى دخان يرتفع من أركان مظلمة ، وجدران متهدمة ، وما بقى من بناء البارجة ماطخ بالدماء وبآثار الحرائق ، والجثث تتوارى تحت الأنقاض وتظهر فى العراء وأذرع المحتضرين

تمتد فوق الخراب ثم تهوى إلى الفناء . يقول القسيس :

« لم يبق من أسرتى شاهين والشيخ مصطفى سوى الذين شاء الله لهم البقاء : نائلة وابنتها منيرة وإبرهيم وطانيوس « إن أحكام الرب غامضة . . »

نسيب وهيبة الخازن

الراهب ١١٦ — ٢٩٧

من الأعماق . . .
مزامير داود

فى سنة ١٨٠١ حل راهب آخر محل الرهبان الذين عرفنا ، وكأن القدر قد أنشأ نبتاً جديداً على جذور نبت يابس أو وضع حجراً محل حجر . . لأن « الطاعة المقدسة » التى تقيد الرهبان تحول أرواحهم وأجسادهم إلى آلات تدور بأمر الرؤساء.

فى ٤ تشرين الثانى (أكتوبر) انحدر الأب أنطون مارون من أعالى « ظهور الشوير » إلى بيروت . وفى ١٤ منه ركب هو أيضاً سفينة الريس جبور شيخ العرب كما ركبها أسلافه وربيبهم إبرهيم ابن الشيخ مصطفى ووصل دمياط فى ٢٩ منه . أما الخمسة عشر يوماً التى استغرقها السفر فى أرجاء البحر الخيالية والتى قضاها الراهب المرسل فى راحة إجبارية فتأكد أنها لم تشتمل على حلم من أحلام النفس ، ولا على عاطفة حزينة من جراء الفراق ، ولا على فرحة للقاء ، أو بهجة لطرافة . . استمع إلى السرد الجاف لحياة ملؤها العمل البحت . قال الراهب :

« وصلت دمياط فى ٢٩ منه نهار الأحد بعد العصر واجتمعت بحضرة الأب يوسف وبقدس الأب عطا الله فأخذانى بكل قبول وعرضت عليهما المكاتيب والمناشير التى بيدى فارتأيا أنى أطلع لمصر استقيم مدة أيام أشاهد والدتى . . . سلمت لرأى الأبوين ونزلت من ثغر

دمياط فى ١٣ كانون الأول (ديسمبر) ختام ١٨٠١ فوصلت إلى محروسة مصر فى ٢١ منه نهار الاثنين . . »

وهنا يثبت الراهب تلك التبعية الفرنجية التى حتمتها نظم المماليك على رجال الدين الشرقيين . . والتى دفعته إلى الاستقلال بمسكن ابتاعه للرهبنة . ثم يذكر انتخاب الأب يوسف خادم دمياط رئيساً عاماً للرهبنة وتعيينه فى دمياط بدلا منه فى سنة ١٨٠٩ :

« فبالحال أنهيت كافة أشغالى . . وخرجت من محروسة مصر فى ٢٢ إيار (مايو) ١٨٠٩ ووصلت ثغر دمياط فى ٢٧ منه بعد أن استقمت بمصر سبع سنين وخمسة أشهر بطاعة الرهبنة . . وعند وصولى . . . توجه الأب يوسف بالسلامة فى ١٧ تموز (يوليو) ١٨٠٩ من ثغر دمياط . . وكانت مدة إقامته فيها واحد وعشرين سنة خلف عن سلفه . . »

وبدأ الأب فى تدوين أسماء رعيته وأعمارهم وبناتهم وشبانهم وأطفالهم . . ولم يذكر فى سنة ١٨١٣ فتح الحجاز ألا لمناسبة قيامه بواجبه إذ قال : « فى ٢٠ شباط (فبراير) حضرت البشاير بفتح البلاد الحجازية من محمد على باشا فصار زينة فى دمياط بحراقة عظيمة فى الخمس قدام الديوان بالليل ومن جملة المتفرجين كان واقفاً الياس بن جرجس الأسود فأصابه صاروخ فى فخذه فوقع على الأرض وسال منه الدم فحملوه إلى بيته حيث توفى . وثانى يوم جنزته . . وفى خروجى ورجوعى اجتهدت فى الطريق من عدم الملامسة . . لأن الطاعون ولا شك موجود فى البلد . .

ولكن قليل . » وكان الطاعون بالفعل . . ودون الراهب حوادثه بين الأهلين وبين أفراد رعيته . . إلى أن قال :

« وفى ١٨ حزيران (يونية) المعروف بنزول النقطة فى إقليم مصر زاد الموت عن الأيام السابقة وحصل وهم عند أهل البلد ولا سيما اخواننا المسلمين لأنهم كانوا متعشمين أنه فى نزول النقطة يرتفع الطاعون حسب العوايد القديمة فى بر مصر . . . وتزايد الطاعون وصار يطلع من البلد ما يقرب من مائة جنازة . . . ورتب صديقنا الشيخ صلوات وأدعية وطاف بها الأولاد توسلا لله تعالى لرفع الطاعون . . رفع الله غضبه عنا ! » .

وهنا يلازم الراهب التعليمات الوقائية التى تقيد بها سلفه كما قرأنا فى هذه القصة . . وتحل سنة ١٨٢٠ وينقل الراهب إلى القاهرة

لم يهمل هذا الراهب « سجل خدمته » يوما واحدا من سنة ١٨٠١ إلى سنة وفاته فى ١٨٤٦ وأنت تستطيع طيلة هذه المدة أن تعرف عدد الشموع التى أضيئت فى الهيكل ، ومقدار الزيت الذى احترق فى كل سراج . كما تستطيع أن تتابع صلوات الراهب وشؤون رعيته فى دمياط والقاهرة ، بل أن ترسم فى ذهنك كل مكان حل به .

أنظر مثلا إلى ما فعل بغرفته : « فى ٢٣ كانون الأول ، شرعنا فى تصليح غرفتنا :

أولا : نزعنا الدولاب الكثيف الذى كان فوق الباب الأكثف الذى كان بجانب الشباك ، وذاك الرف الحقير الذى كان فوق

الدولاب لوضع الكتب ، ثم نزعنا الرف الصغير الذى كان فى حايط الأوضة ناحية الشباك وعليه ستارة قديمة لايعرف لها لون ، ثم رفعنا الصناديق القديمة التى كانت فى الأوضة بمنزلة كراسى للجلوس ...

ثانياً : . . . . . فيما بعد قيد علينا الخواجة . . . ثمن ثلاث لاطات كنا نظن سمح فيهم فدفعنا ثمنهم ٦٠٠ فضة ودفعنا كامل المصروف وكرسى بياض ودهان ومعلمين فتكون الجملة أكلاف الأوضة ٥٣٧٣ فضة . . .

« وبعد أن تممنا الشغل . . عملنا لوح طويل وحررنا فيه تاريخ نظام الأوضة بأشعار نظمها لنا حضرة الأب عيسى بيترو الشاعر الرومى وضعه بلون أصفر كتابة فارغة ودهن أرض اللوح دهان جنزارى وسمرنا اللوح المذكور فى برواز السقف لجهة حائط الكنيسة . وقد انتهينا من شغلها فى أول نيسان ٢ ابريل ١٨١٢ .

« وهذه أبيات التاريخ :

« يابتول مريم أرزة لبنـــان توسلى فينـــا عند الرحمن
واطلبى لنا منه الغفـــران وتشفعى فى من نظم هذا المكان
عبدك القس المستبان
خلف عن سلف بخدمة هذا المـــكان
خورى بثغر دمياط حالا ومنذ زمان
تحريراً . . . فى غرة شهر نيســان »

استطاع المسيحيون من الكاثوليك الشرقيين فى عهد محمد على

أن يؤسسوا الأديار والكنائس واستقل هؤلاء عن الكاثوليكيين الغربيين . وأنت تستطيع أن تتابع تقدمهم إذ تقرأ فى سجل الأب أنطون مارون نفقات إعداد أمكنة العبادة والقبور . كان المرسلون من الرهبان قبله يأتون مصر بأمر رؤسائهم ولم تكن رسالاتهم سوى بعثات ومن طبيعة البعثات عدم الاستقرار . ولكن سماحة محمد على أشعرت كلا منهم أنه أصبح مواطناً مصرياً . وفتوح محمد على قد جمعت الشام إلى مصر منذ سنة ١٨٣٠ فاستقر رجال هذه البعثات فى وظائفهم . وليس أدل على ذلك من إقدام راهبنا على بناء الضريح الذى أعده لنفسه قبل موته باثنتى عشرة سنة وحفر على حجر من الرخام أثبته على باب الضريح :

من عمق بحر الخطـــايا أسرع يا الله فى انتياشى

أنا عبدك القس ١١٦-٢٩٧ الحابى اللبنـانى الناشى

قد تساءلنا فى الفصل الأول من هذه القصة : هل أغفل الراهب اسمه تشاؤماً أم تواضعاً أم تفنناً . . والجواب عندنا الآن ما زال متعدد الفروع ولو أنه لايخرج عن الاحتمالين الأخيرين . فى سنة ١٨١٢ لجأ الراهب فى نظم تاريخ «الحادث» إصلاح غرفته إلى قسيس رومى «شاعر» ورسام ودهان . ويبدو لنا أنه بعد ذلك استحيا من إهماله الدرس والتحصيل ، ومن عجزه بنفسه واستطاعته بغيره . فأكب على الأدب والفن إلى أن تمكن من إعلان نفسه « الناشى » للشعر المنحوت على الرخام ومن التفنن فى تجهيز قبره على نمط العلماء والأدباء ، ومن صياغة الأحاجى المستعصية ،

ومن أمنيته « الدنيوية » الوحيدة ، وهى حلوة بريئة ساذجة فى أهدافها وفى تفرعها من الهدف الأسمى . . والراهب فى تعبده لايهمل حقل الدير وبقراته ، ولا حقل المعرفة وصفحاته ، ولا ينسى أن يسجل ثمن البخور قبل أن يحرقه بفؤاد مسرور فى هيكل الله ! وعلى كل فقد آل تفنن الرجل إلى التواضع وأفضى على كل حال إلى إغفال الإسم . . وبقى بعد ذلك ذكر الرجل لا للناس بل لرب النيات العالم بما فى الصدور .

و يواصل الراهب حياته بعد أن أعد ضريحه وينبت كل ما يشاهده من أحداث . إلا أنه قد أغفل منذ سنة ١٨٠٥ ، كما أغفل إخوانه الرهبان ، ذكر إبرهيم ومنيرة ونائلة وطانيوس والشيخ مصطفى . وهكذا دفن الرهبان الأسرتين فى بطون السجلات والتفتوا إلى باقى القطيع الموكول إليهم أمره .

نسيب وهيبة الخازن

خارج الكهف

« تعيش الانسانية فى كهف مظلم يخرج
منه الفلاسفة ثم يعودون بقبس من النور »
أفلاطون

فى سنة ١٧٦٩ عند بدء قصتنا كان سان سيمون فى التاسعة من عمره . وفى سنة ١٨٣٥ كان يردد على فراش الموت :

« لقد أخطأ الناس حين ظنوا أن مصير الأديان إلى التلاشى . إنما الأديان تتطور ولا تفنى . أذكروا أن عظائم الأعمال لاتصدر إلا عن النفوس الملتهبة » .

كان الغربيون فى غمرة الإلحاد يبحثون عن دين جديد لاجتماع فوضوى بينما كان الشيخ مصطفى الحبيب والرهبان يدخلون محراب المحبة ، قدس أقداس الأديان ، ويضعون حجر الأساس فى بناء صرح جديد لشعوب بائسة . وجاء محمد على يرفع البناء إلى الأجواء العليا .

تسلم محمد على زمام مصر فى سنة ١٨٠٥ ولكنه لم يتمكن من إبادة العناصر الطاغية قبل سنة ١٨١١ كما قلنا . وما كاد العرب يرون هذا العبقرى على مسرح الشرق حتى فقهوا معنى العنصرية وميزوا بينها وبين الطائفية . ولما جاء دور البطل الفاتح إبرهيم فى ربوع الشام وجبال لبنان ، ورأى العرب سماحته ، غمرت موجة العروبة واللاطائفية مصر وسوريا ولبنان . ولنعد الآن إلى قصتنا :

إبرهيم ومنيرة غرس تعهده رجلان أحلا السماحة محل التعصب ولكن المبادىء الجميلة ترتطم عند تطبيقها بصخور التقاليد وبأمواج من عواطف الطفولة تلازمنا إلى الموت . وقد يأتى المثل من أعلى فتتقدم البشرية فى سنة بعد جمود أجيال .

إن ما شعرت به منيرة من الحب ساعة عودة الشاب المسلم إبرهيم من لبنان قد عدته الفتاة إثماً فدفنته فى أعماق نفسها وأقامت فوقه صرحاً وهمياً يخفى الضريح المزعوم !. . لقد شاءت أن تتزوج الضابط المترجم أنطون لتنسى حبها الحقيقى ولتكبت خفقات قلبها ، وهى فى هذه المحاولة أرادت أيضاً أن تحصر اختيارها بين نبيل وأنطون لتجد فى الثانى منقذاً من الأول .

وقد وقفت قصتنا عند هذا . . وبات زميلى الراهب يبحث فى سجلات الرهبان . . وقلبت مجلدات الجبرتى الأربعة باحثاً عن حوادث الشهور والسنين واطلعت على كل ما اتصل بأسرة الحبايبة ثم طفت بسيارتى القرى القريبة والنائية باحثاً عن سلالتهم .

بحثت فى الأمكنة التى ذكرها الجبرتى عرضاً ، عن أسماء أبطالنا . وللأسماء فى مثل هذه الأبحاث قيمة فى توجيه البحث . فقد وجدت فى لبنان مئات من أسماء الأشخاص والأسر والأمكنة ، رددتها أودية اليمن وجبالها ، وصحارى الحجاز ونجد ، وفتوحات العرب .

ثم بدا وميض الأمل إذ تذكرت الشيخ مصطفى الحبيب سليل قبيلة الحبيبية ، الذى عرفته فى بدء خدمتى فى القضاء . فبحثت

عن أبنائه وأحفاده ، ووفقت إلى بعض ما أبتغى إذ وجدت أسماء « منيرة . ونائلة . وشاهين . ومصطفى . وإبراهيم » فى أسرة تقيم فى إحدى قرى مديرية الشرقية . . . وإذا ما قاله الفارابى الفليسوف يتمثل أمامى فى نطاق أصغر . وإذا الأشخاص قد أفناها الدهر وبقيت « الصورة » الخالدة . وإذا بسنى تتسلسل من ١٨٠١ إلى يومنا هذا وتعيد فى جيل ما عرضته فى أجيال سابقة .

وهاك ما استخلصت من آثار طمرتها السنون كما تطمر الرمال أضرحة الفقراء :

* * *

رقد الشيخ مصطفى رقدته الأخيرة وانطوت رمال مصر على أجساد الشيخ مصطفى وذويه كما ضمت رفات شاهين ثم نائلة الهجوم « أم طانيوس » .

أعوام انقضت ، وزمن تغير . وأقارب غادروا الدنيا ، ومرض طويل أقعد إبرهيم وأقام منيرة حارسة عليه فى الليل والنهار ، وقد أصبحا وحيدين ، ورمزين لعالم جديد ، ثم نقاهة أعادت إلى عينى الفتاة الكرى بعد أن اكتحلتا السهاد . ثم حب جارف ، ثم فتاوى ثم زواج يباركه قسيس ويعقده شيخ .

وعلى صخرة تائهة بين أمواج الاطلسى يموت فى ١٨٢١/٥/٥ الرجل الذى دوخ المماليك وأنهى فى مصر عصر الأجيال الوسطى .

وفى سنة ١٨٣٠ ينخرط طانيوس فى جيش محمد على مؤسس الامبراطورية العربية الحديثة ثم تعود جنود إبرهيم الفاتح فى

سنة ١٨٤٠ ويبقى طانيوس فى وطنه عشقوت ذات الجبلين المنفرجين كالكتاب المفتوح ، حيث حياة كل أسرة سطر تخطه الأيدى المتعاقبة .

وفى مصر ، « يرقد بالرب » فى سنة ١٨٤٦ ، بعد مائة سنة من تأسيس رسالة رهبانية فى مصر ، ذاك الراهب الذى أعد ضريحه فى سنة ١٨٣٤ ونقش عليه رقما مميزاً له شبيهاً بالأرقام التى يحملها الجنود فى أيامنا .

« القس ١١٦ — ٢٩٧

الراهب الحلبى اللبنـــــانى »

وفى أعماق وادى القديسين يسجد راهب متعبد فى منسك لبنانى نحت فى الصخور ، وهو يعيش فى الكهوف والأدغال ، بعد أن دفن حياته فى غار الجبل ، كما دفن فى صدره ذكريات الابتداء وروما والحملة الفرنسية وتقلبات حياته وانكسار قلبه المغرم . . . وبات ينتظر الآخرة السعيدة بعد شقاء الجسد وألم النفس « فى هذا الوادى ، وادى الدموع » .

* * *

يا أخا الروح

دخلنا الكهف ، وانصتنا ، ونقلنا إليك ما استطعنا أن نعى .

وها أنت قد جلت معنـــا فى وادى الأحزان ، إثر حملة المشاعل من رواد المعرفة والأخاء الإنسانى . دخلت معنا كهفاً نام

أهله وحمى صانه الدهر فلم تبهرجه ولم تسلط على قدسيته الماضى نوراً يبهر قناديل هذا المعبد .

وجدت فى السراج ذبالة عذراء ، وزيتاً صافياً مضيئاً كالنفس الطاهرة ، فقدحت الزناد وأسرجت القنديل وجلست وأصغيت إلى أحاديث ساذجة مطمئنة على نور ترقص حوله الأشباح . وعرفت روحك أرواحاً شفافة فأحببتها بعد أن أنكرتها . حينئذ تجردت من الطبائع واتصلت بحقيقة الحقائق وجوهر الوجود وعلمت أن « الإنسان ذئب على الإنسان » ، « وأن كل إنسان على الإنسان حرام ، ماله وعرضه ودمه » وأنك إنسان وأن كل إنسان أخ لك .

وان الحب فى تماسك الذرات وتجاذب أجرام السماء . وأن فى لغات الأرض قاطبة ترادفت كلمات : نهار وجمال ولمعان وحرارة وحب وذكاء وضياء وبياض وطهارة . كما اجتمعت فى صعيد آخر كلمات : ليل وظلام وبرد وقبح وظلم وبغض وغباوة .

نهضت ، ومن السراج الضئيل أزكيت نار المشاعل ونورها ، وخرجت حاملا مشعل الرجاء والمحبة إلى جيل يعيش فى كهف حالك بظلام اليأس والعدوان . جيل يضيف إلى بؤس الأجيال الماضية تعصباً مذهبياً لم تعرفه الوثنية .

نسيب وهيبه الخازن

مطبعة كوستاتسوماس وشركاه
[illegible]

A 8

مطبعة كوستاتسوماس وشركاه
٥ شارع رقعا الأزبوطلي - القاهرة تليفون ٤٤١٢٨

893.783
K527

BOUND

SEP 19 1957

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58889230
893.783 K527
Mashall,